روايات الهلال

الأم

بيرل بك



روايات الهلال

Rewayat Al - Hilal

تصدر عن مؤسسة « دار الهلال »

العدد ٣٧٣ – يناير ١٩٨٠ – صفر ١٤٠٠
No. 373 — Janvier 1980

رئيسة مجلس الإدارة : **أمينة السعيد**

نائب رئيس مجلس الإدارة : **صبرى أبو المجد**

رئيس التحرير : **الدكتور حسين مؤنس**

سكرتير التحرير : **موسى عبيد**

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى – ١٢ عددا – فى جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان بالبريد العادى . وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى . وفى سائر انحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادى وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . بحوالة بريدية غير حكومية وباقى بلاد العالم بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الأسعار الموضحة اعلاه عند الطلب

اسعار البيع للجمهور فى البلاد العربية للاعداد العادية من «روايات الهلال» الشهرية اعتبارا من شهر يناير عام ١٩٧٩ :

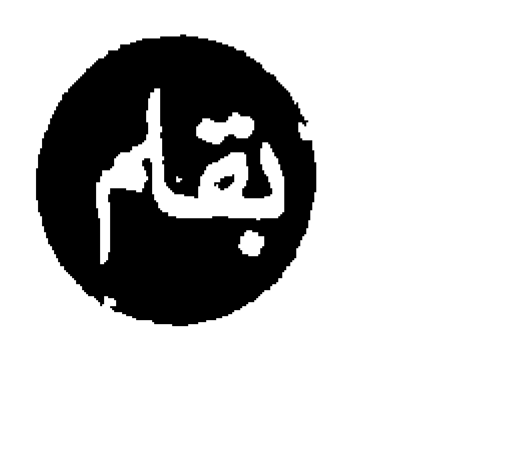
بسعر ٢٠ قرشا للقارىء فى مصر

سوريا ٣٠٠ ق . س « ثلاثمائة قرشا سوريا »
لبنان ٢٥٠ ق.ل «مائتان وخمسون قرشا لبنانيا »
الاردن ٢٥٠ فلسا « مائتان وخمسون فلسا اردنيا »
الكويت ٣٥٠ فلسا «ثلاثمائة وخمسون فلسا كويتيا »
[illegible] ا »
[illegible] ريال »
[illegible] مرب القاهرة .

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمى





بيرل بك



محمود مسعود

دار الهلال

مقدمة

اذا ذكرت الروايات الانسانية التى خلدت فى الآداب العالمية من طراز « البؤساء » لفكتور هوجو « كوخ العم توما » للكاتبة الأمريكية هـ . ب . ستو و « دافيد كوبر فيلد » لتشارلز دكنز ، فان رواية « الأم » تحتل بينها مكان الصدارة بما حفلت به من الصور الانسانية العميقة والمشاعر التحليلية الدقيقة والنماذج البشرية التى وان كانت وليدة بيئة بعينها فانها فى تقلباتها ومنازعها قاسم مشترك فى كثير من البيئات على اختلاف المكان والزمان ، حتى لتحس وانت تتابعها بين فصول الرواية بانك ازاء شخوص بشرية معهودة لديك ، وان ما تتأثر به هذه الشخوص من الانفعالات والأحاسيس وما تنحو اليه من التصرفات وتسلكه من المسالك هو جزء من النفس البشرية فى ضعفها وتساميها وفى انقيادها وتمردها وفى خنوعها وعسفها وفى أطماعها وقناعاتها وفى غرورها وتواضعها وفى زللها وتندمها وفى سخطها ورضاها . والواقع ان ذلك يتجلى على أشده فى هذه الرواية التى صورت فيها الكاتبة الأمريكية الكبيرة بيرل باك حياة الريف الصينى تصويرا مستفيضا رائعا فى شخص هذه الأم الفتية التى تداب على العمل نهارها فى الحقل مع زوجها متفانية كادحة ثم تتوفر آخر اليوم على رعاية الزوج والأطفال وتقبل على الانجاب كل عام قريرة العين دون أن تجد فى دورة هذه الحياة المتكررة المتجددة ما يصرفها الى شىء آخر — لولا ضيق الزوج الشاب المفتون بنفسه بحياة يعدها رتيبة مملولة وغيابه من حياتها هربا الى المدينة مما كان بداية للكارثة التى عصفت بحياة الأسرة وقوضت سعادة الأم وعرضتها لزلة كانت فى اعتقادها هى السبب فيما امتحنت به من صروف وارزاء فى ذاتها وفى ابنائها . وبغير رغبة فى الاستطراد مع أحداث الرواية تفاديا لضياع عنصر الجدة والتشويق فى هذه العجالة ، تراك وانت ماض فى السياق مشدودا الى شخصية الأم التى لا يثنيها شىء عن احتمال مشاق العمل واعباء رعاية الأسرة مدفوعة بغريزة الأمومة وبهذا الداب الذى ينتظم البيئة كلها كوحدة ناصعة منتجة . وانت واجد فى صورة الأم خاصة وافراد

الأسرة الصغيرة وفى محيط البيئة من حولهم وفى شتى مسالكهم وتأثرهم بكل ما يعرض لهم فى حياتهم البسيطة العانية شبها غير قليل بما تراه وتقرأه وتسمع به فى بيئات كثيرة أخرى من هذا العالم المتباعد الأطراف المتقارب فى الخصائص والسمات البشرية ، مما يجعلك تحس احساسا غير قليل بوثاقة الروابط الانسانية بينك وبين هذه الصور المجلوة فى قالب البساطة والصدق والواقعية . ومن ثم كان للرواية طابعها الانسانى الذى يسلكها فى عداد الأدب العالمى ويهيىء لها مقومات الخلود .

ولن يكون من دواعى العجب أن تختص بيرل باك بهذه القدرة الباهرة فى تصوير الحياة والاحياء فى الصين وهى التى عاشت فيها منذ نعومة أظافرها حتى شبت وترعرعت ثم تزوجت وأصبحت أما ولا تكاد تبعد عنها حتى تعود اليها لتستأنف الحياة فيما عدته وطنها الثانى . فهى اذن قد خبرت هذه الحياة وأحبتها وشغفت بها الى الحد الذى جعلها تؤلف ثمانى روايات عنها من جملة رواياتها السبع عشرة . وكذلك كان تصويرها للحياة الصينية صادقا ينبض بالحيوية والنفاذ الى اعماق الناس وأغوار السرائر . اضف الى هذا قدرتها كامرأة على تحليل طبائع المرأة وانفعالاتها ذلك التحليل البارع الذى يتأدى الى أدق البواطن وأخفى الخلجات ويميط اللثام عن مكنون المشاعر التى تنضج بها طبيعة المرأة فى شتى المواقف مما يجلى للقارىء ذخيرة نفيسة رائعة من الصور النفسية والتحليلات العاطفية يندر أن يوفق الى مثلها الكتاب والمؤلفون من الجنس الآخر . وربما كان من ابرع هذه الصور ما ازجته المؤلفة فى تحليلها لشخصية الأم التى وصفتها بأنها كانت منذ شبابها مخلوقة ذات مشاعر متأصلة واحاسيس عميقة ولكنها ساكنة صامتة ولم يحدث قبل زواجها وحين كانت فتاة عذراء ان اتجهت بخواطرها الى الرجال من حيث هم رجال ، وكانت اذا هزتها المشاعر العنيفة والأشواق الغريبة عن نفسها لا تتطلع قط الى الرجال لترى كنههم ، بل كانت تطوى الضلوع على حنينها واشواقها وتحتملها فى صبر وسكون وانتظار . فلما تزوجت وادركت كنه الرجل سطع أمام عينيها قدر يسير من ذلك الحنين العميق الذى كان يجيش فى صدرها وعرفت انها لا تستطيع الحياة دون وجوده معها . « على ان الرجل وحده لم يكن يكفى ، بل كان ينبغى أن تحمل منه وان تستشعر الطفل يتكون فى أحشائها وتدب فيه الحياة ، وبهذا تتم الزوجية ، وعندئذ كانت

تسمرها موجة من السعادة بتحقيق مطمحهـا ومشتهاها . وكانت اذا شالعتها علائم حمل جديد ساورها احساس رضاء جسدى مستعذب وكأنها شبعت وارتوت ونامت ولم يعد ينقصها شيء من مطالب الجسد المادية ... لقد كان هذا الاحساس أسمى واعظم حتى من الطفل نفسه ؛ بل كان اسمى واعظم من شخصها ومن شخص الزوج ايضا . فقد كان الزوج رغم تعلقها به وكونه كل شيء فى نظرها يمثل جزءا من الأمومة ، ولم تكن تحبه لذاته فقط ومن حيث هو زوج ورجل » .

فهل رايت اروع من هذا التحليل فى تصوير طبيعة المراة فى عذريتها ، وزوجيتها وامومتها ؟ .

بل ان هذه الصور الدقيقة المستمدة من عمق البصر بطبائع النفس البشرية عامة وطبيعة المراة خاصة تتعاقب فى سياق الرواية تعاقب اللوحات الرائعة فى معرض فنى حافل . ولعل اغزرها بالمشاعر المؤثرة تلك التى تتصل بالكارثة الكبرى التى نزلت بالأم بعد ان هجرها الزوج نذالة وعرضها لامتحان رهيب افضى بها الى الزلل فى لحظة غواية عمياء . لقد كانت هذه الخطيئة هى اللعنة الكبرى التى عصفت بحياتها عصفا شديدا وجلبت عليها غضب الآلهة حتى لاحقتها الكوارث التى تمثلت فى عمى ابنتها ثم وفاتها فى ظروف مؤسية ، وفى انحراف ابنها الأصغر الى اعتناق ذلك المذهب الهدام الذى أفضى به الى الاعدام . واستمع الى صرختها المؤثرة اذ ناءت بهذه الارزاء : « اذا كنت اذنبت فى حياتى أفلم أنل من الأحزان ما يكفى ؟ اذا كنت اذنبت فلم لا اموت وحدى واضع حدا لكل شيء ؟ ... لكن أين هى المراة الفاضلة المبرأة من الذنوب ؟ .. ولم أحتمل وحدى هذه الأحزان كلها ؟ الم انل كفايتى من العقاب ؟ » .

وفى غمرة هذه الغواشى ، وكأنما أستجيب لتندمها وابتهالها ، تجيء البشرى بمولد حفيد لها بعد طول يأس من الانجاب ، وسرعان ما تتبدد أحزانها وتهتف والدموع تغمر وجهها الذى كلله المشيب وقد رفعت المولود بين يديها : « انظروا .. اننى أشك فى امتلاء نفسى بالذنوب كما خيل الى فيما مضى » .

هكذا تنتصر الحياة الوليدة على الموت والعدم ويتغلب الأمل البازغ على اليأس والاحباط ، ومن هذا المنطلق كان للكيان البشرى عند قيمها مكانته الأولى فى حياة ان تكاثرت على هذه الصورة المعهودة حتى

أشرف تعدادها على الف مليون نسمة ، فان افراده جميعا كخلية نحل هائلة تنتج دائبة وتبلغ من أسباب القوة ما طوع للأمة كلها أن تحتل مكانتها المرموقة في المجتمع الدولى وأن تكون قوة مؤثرة تناجز احدى القوتين العظميين فى عالمنا المعاصر ، وتخطب ودها القوة الاخرى .

محمود مسعود

الفصل الأول

جلست الأم فى مطبخ الدار الريفية الصغيرة ، فوق مقعد منخفض من الخيزران ، وراحت تدس الأعشاب فى فتحة الفرن الطينى حيث شبت النار منذ قليل تحت القدر الحديدية . واخذت تضيف اليها بين وقت وآخر غصنا صغيرا ، أو حفنة من الأوراق والحشائش اليابسة التى اقتطعت فى الخريف الماضى من سفح التلال ..

وفى احد اركان المطبخ انكمشت قرب النار عجوز شديدة النحول والتهدم ، مدثرة بجلباب سميك أحمر اللون مصنوع من القطن ، يعلوه رداء أزرق مرقع .

كانت العجوز تشكو فى عينيها مرضا اليما كاد يفقدها البصر ويطبق اجفانها . على أنها برغم ذلك كانت تستطيع أن تميز المرئيات من خلال الثقبين الضيقين ، واخذت تراقب وهج السنة اللهب التى كانت تتواثب وتضطرم بين يدى الأم المدربتين . ثم تكلمت اخيرا . فخرجت الكلمات كالفحيح من فم غائر تجرد من أسنانه ، قالت :

ـ عليك بالاقتصاد فى الوقود . لا توجد عندنا سوى حزمة واحدة من الحشائش . ونحن لم نزل فى أول الربيع وسيطول بنا الوقت قبل أن تنمو الحشائش وتصلح للقطع . وانت ترين حالى وما صرت اليه من الشيخوخة والضعف ، وأنا أشك فى قدرتى بعد على الخروج لاحضار بعض الوقود . فقد صرت عجوزا لا نفع منها ، وافضل لها أن تموت .

الفت العجوز أن تكرر كلماتها الأخيرة مرات فى اليوم . وفى كل مرة كانت تنتظر من زوجة ابنها أن تجيبها بهذه العبارة التى قالتها لها الآن حقا :

ـ لا تقولى هذا الكلام يا أمى ! ماذا كنا نعمل لو انك كنت غير موجودة لحراسة البيت اثناء ذهابنا الى الحقل ، للاشراف على الاولاد الصغار حتى لا يقعوا فى الترعة ؟ .

فسعلت العجوز سعالا حادا وقالت وهى تلهث :

ـ صحيح انا افعل هذا . يجب حراسة البيت فى هذا الزمن الفاسد ، زمن اللصوص والنهابين فى كل مكان . ولو جاءوا يا ابنتى

لرفعت الصوت عاليا ، وأذكر أن الحال كانت تختلف عن هذا فى شبابى . كان الانسان يترك فأسه خارج البيت فى أول الليل فيجده مكانه فى الفجر . أو يقيد حيوانه خارج الباب فيجده كما تركه فى اليوم التالى . و . .

ومع ان الأم ضحكت مجاملة وقالت لها : « صحيح يا أمى ؟ » ، فانها لم تقف للاصغاء الى العجوز التى لم تكن تفتأ تثرثر طول النهار . بل تركتها تتكلم وراحت تتساءل فى نفسها عما اذا كان الوقود سيكفى حتى نهاية الربيع اذ يتم نماء النبت ويتسنى لها أن تذهب بسكينها الى حيث تقتطع افرع الأشجار الصغيرة وتلتقط ما تيسر من الحشائش والأوراق . وصحيح أنه كانت توجد فى فناء البيت حزمتان من قش الأرز مضمومة أعواده بعناية ومغطاة بطبقة من الطمى الكثيف الصلب صونا لها من فعل الأمطار والثلوج . لكن قش الأرز كان أثمن من أن يستخدم وقودا . فان أهل المدن هم الذين يجوز لهم وحدهم أن يصطنعوا الوقود من قش الأرز . وكانت هى أو زوجها يذهبان به الى المدينة بعد جمعه فى حزم كبيرة حيث يجنيان من بيعه نقودا فضية طيبة . وهكذا لم يكن يجوز أن يوقد قش الأرز فى غير بيوت المدن .

جعلت الأم تغذى الفرن بالحشائش ، واستغرقت هذه المهمة عنايتها فصرفتها عما عداها . وانعكس وهج النار على محياها العريض القوى ذى الشفتين الممتلئتين ، والذى لوحته حرارة الشمس ولفحته الرياح فاكتسى لونا أسمر قاتما ، ولمعت عيناها السوداوان الصافيتان فى ضوء النار . واذا قيل أن وجهها لم يكن جميلا ولا وسيما فقد كان يشف عن حرارة العاطفة وفرط الطيبة .

كانت زوجة مخلصة واما بارة . كما كانت رفيقة بحماتها العجوز .

واسترسلت العجوز فى لغوها . فقد كانت تمضى نهارها وحيدة لا يؤنسها غير حفيديها الصغيرين . اذ كان ابنها وزوجته يسلخان بياض النهار كدا فى الحقل . فلما عادت الزوجة التى كانت العجوز تحبها أخذت تنهال عليها بمختلف الحديث وهى تسعل بين حين وآخر بسبب الدخان المتدفق من فتحة الفرن . فراحت تقول :

— قلت دائما انه متى جاع الرجل ، وخصوصا اذا كان شابا قويا كولدى ، فان بيضة مخلوطة بالأرز . .

ورفعت العجوز صوتها عاليا حين قاطعتها مناوشة طفلين تشبثا بكتفى الأم التى انحنت لامداد النار بالوقود .

لكن الام ما فتئت منهمكة في انجاز عملها ، وما برح وجهها محتفظا بهدوئه . أجل . كانت هادئة وكأنها لم تسمع مناوشة الولد والبنت ، ولا صوت العجوز المسترسلة في الحديث .

كانت تفكر في تأخرها قليلا هذه الليلة عن الموعد المألوف . فقد كان فصل الربيع يقتضيها عملا كثيرا ، وقد بقيت في الحقل لكي تبذر آخر قدر من الفول . ولم يكن بد من ان يستغل الانسان الى اقصى حد هذه الأيام الدافئة والليالي الرطيبة ، وهكذا فعلت حينما اتمت هذا البذر . وستدب الحياة هذه الليلة في ذلك الفول الجاف . وملأت نفسها هذه الفكرة بشعور الغبطة والرضاء . بل ستدب الحياة في سائر نواحي الحقل هذه الليلة حيث التربة دافئة رطبة ، وحيث لم يزل زوجها يعمل هناك ويدفن البذور في الأرض بقدميه العاريتين ، وقد تركته يعمل وحده اذ سمعت وهي في الحقل بكاء الطفلين وهتافهما باسمها وسارعت بالعودة الى الدار .

ولما وصلت الى باب المطبخ الفت الطفلين يبكيان جوعا ، وكان الولد يبكي بكاء رفيقا متصلا لا اثر فيه للدموع ، والبنت تبكي بصوت خافت وتلعق يدها الصغيرة . وكانت العجوز تنصت اليهما في غير ضيق ولا برم . فقد لاطفتهما حينا . لكنهما بلغا الآن حدا لا تجدي معه ملاطفة ، ولذلك تركتهما وشأنهما .

على أن الأم لم تخاطبهما بكلمة . بل تقدمت مسرعة الى الفرن وانحنت في طريقها وتناولت بعض الوقود . لكن هذه الدلالة كانت أبلغ من كل حديث . فان الطفل كف عن البكاء وركض خلفها بكل ما تسمح له سنواته الخمس . وتلته الطفلة بقدر ما وسعتها قواها ، اذ كانت لا تجاوز الثالثة الا قليلا .

أخذ الطعام يغلي في القدر . وانبعثت من فرجات الغطاء الخشبي سحائب البخار مشبعة برائحة سائغة . فتلاحقت انفاس العجوز وأخذت تطحن فكيها العتيقين طحنا خفيفا . وتعالت السنة اللهيب تحت القدر حتى بلغت قاعها . ولما لم تجد منصرفا تمددت وانتشرت ، واستحالت دخانا كثيفا انصب في فضاء الغرفة الصغيرة ، فتراجعت الأم الى الخلف وجذبت الطفلة معها . لكن الدخان الخانق وصل الى الطفلة فأخذت تغمض وتفتح عينيها وتدلكهما بيديها القذرتين . وصرخت باكية وسرعان ما نهضت الام وحملت الطفلة وأجلستها خارج المطبخ قائلة لها :

ـ اقعدي هنا ! الدخان دائما يؤذي عينيك ولا تكفين عن القرب منه .

ونشرت العجوز سمعها شأنها حينما تسمع زوجة ابنها تتكلم ، ووجدت فى هذا مادة جديدة للكلام . فراحت تقول :

ـ نعم .. قلت دائما أنه لولا اضطرارى لاشعال النار طول حياتى الماضية ، لما اصبت بهذا العمى . الدخان وحده هو سبب عماى . والدخان ..

لكن الام لم تستمع لكلام العجوز ، بل كانت ملقية بسمعها الى بكاء الطفلة الصغيرة التى انبطحت على الأرض وراحت تصرخ وتدلك عينيها محاولة فتحهما . والحق أن عينى هذه الطفلة كان بهما حمرة دائمة ورمد متصل . بيد انه لو قال قائل للأم أن بعينى ابنتها مرضا لبادرت بهذا الجواب :

ـ ليس بها شيء . وكل ما هناك أنها تدس رأسها فى الدخان كلما اشعلت النار فى الفرن .

ما كان بكاء الطفلة ليهز من نفسها وترا حساسا كما حدث فى الماضى . فقد كان عملها متواصلا هذه الأيام . والأطفال يأتون سراعا . وحينما رزقت بطفلها الأول لم تحتمل سماعه يبكى بتاتا . فقد تصورت فى ذلك الحين انه ينبغى للأم عندما يبكى الطفل أن تسكنه على أي وجه من الوجوه . ولذلك كانت اذا بكى الطفل تكف عما هى آخذة به وترضعه ثديها . وما تكاد تفعل حتى يكون زوجها قد غضب لامساكها عن العمل فى الحقل ، ويصيح فيها قائلا :

ـ ما هذا ؟ هل تفعلين هكذا وتتركين العمل كله لى ؟ . انت الآن فى اول عهدك بالأولاد وستقضين العشرين سنة القادمة فى ارضاع الأولاد . فهل احتمل هذا ؟ لست زوجة لرجل غنى حتى ينحصر عملك فى الولادة والرضاع واستئجار من يقوم بالعمل ؟ .

وكانت اذا سمعت منه هذا الكلام تواجهه غاضبة مهتاجة . فكلاهما فى عنفوان الشباب وحدة الطبع وفورة العاطفة ، ثم تصيح فى وجهه :

ـ وهل لا أجد تعويضا يسيرا لآلامى ؟ هل تعمل الشهور مثلى مثقلا بالحمل ؟ وهل تعانى آلام الوضع ؟ ، لا ، انك لا تذهب الى البيت حتى تستريح . أما أنا فاطهو الطعام واهتم بالطفل والاطف العجوز وانظر فى هذا وذاك .

وهكذا كانت تنشب بينهما مشادات حامية لا غالب فيها ولا مغلوب اذ كانا متكافئين . لكن هذا الشجار لم يدم طويلا . فسرعان ما جف ثدياها ، اذ كانت تحمل فى سرعان وخصب الحيوان القوى الصحيح ، بل ان لبنها قد نضب فى الوقت الحالى ، وان كانت قد

اجهضت فى الصيف الماضى على اثر اصطدامها بالمحراث وسقوطها على الأرض .
واذن فقد كان على الأطفال ان يصبروا . واذا لم يكن بد من بكائهم فليبكوا ما شاءوا . فلم يكن بوسعها أن تركض اليهم لارضاعهم ثديها . ولا مفر لهم من الانتظار والصبر على الجوع حتى تعود اليهم .
هكذا كانت الأم تتكلم . لكن الواقع ان قلبها كان ارق من حديثها . ولم يكن يسعها الا ان تسارع الى اطفالها حينما تسمع نداءهم لها .
ولما غلت القــدر وقتا وامتزج الدخان بشذى الأرز جاءت الأم بصحفة وملأتها للعجوز ثم وضعتها على الخوان فى الغــرفة الكبرى حيث يعيش الجميع ، وسارت بالعجوز اليها وهى لا تكاد تعى لغوها وقولها : « واذا خلطت الباسلاء بالأرز نتج منهما لون شهى للذيذ » . ثم جلست العجوز الى الخوان وامسكت بالصحفة بين يديها الجافتين الباردتين ولزمت الصمت وقد عرتها فجــأة رعشة النهم ، وسال اللعاب من جانبى فمها المغضن . وقالت مستاءة :
ـ أين الملعقة ؟ لا اجد ملعقتى .
فوضعت الأم الملعقة فى يد العجوز وخرجت من الغرفة الى المطبخ ، حيث جاءت بصحفتين أخريين أصغر حجما وملأتهما أرزا ، وتناولت ملعقتين من خشب الخيزران وحملت احدى الصحفتين الى الطفلة التى ما زالت تبكى وتفرك عينيها بيديها . وكانت الطفلة جالسة على الأرض وقد امتزج الوحل فوق وجهها بالدموع . فانهضتها الأم على قدميها ومسحت وجهها براحة يدها الخشنة السمراء ، ورفعت طرف جلبابها المرقع وجففت دموعها .
فعلت الأم هذا مترفقة ، فقد كانت عينا الطفلة حمراوين ، وتدلت اجفانها وشابتهما حمرة شــديدة . ولــما أشاحت الطفلة براسها وهى تغمض وتفتح عينيها باكية تركتها الأم ولم تعرضها وقد تألمت وقلقت لحالها . وضعت الصحفة فوق خوان خشن خارج الباب وقالت للطفلة بصوتها المرتفع :
ـ تعالى ... كلى .
وتقدمت الطفلة متعثرة ووقفت متشبثة بالخوان وهى تكاد تغمض عينيها المحمرتين فى اشعة الشمس الآفلة . ومدت يديها الى الصحفة . فهتفت الأم :
ـ حاسبى .. سخن .. !
فترددت الطفلة ، واخذت تنفخ فى الطعام لتبريده . لكن الأم جعلت

تحدق فيها قلقة ، وغمغمت لنفسها :
ـ حينما يقصد الى المدينة حاملا قش الارز سأطلب منه أن يذهب الى أحد حوانيت الأدوية لشراء دواء لرمد العيون .
وما لبث الولد أن تذمر لأنهـا لم تقدم له صحفته مثل أخته . فذهبت اليه ووضعتها فوق الخوان . وساد الصمت بعض الوقت .
وأحست الأم بتعب شديد حال دون أن تأكل فزفرت زفرة عميقة وحملت مقعدا صغيرا من الخيزران ووضعته قرب الباب وجلست فوقه . وتنفست من أعماق رئتيها وجعلت تسوى شعرها الأشعث الأغبر بيديها . وأدارت نظرها فيما حولها .
أخذ الظلام ينسدل فوق التلال المنخفضة المحيطة بالوادى ، وشحب وجه الأفق . وفى بطن الوادي حيث قامت المزرعة الصغيرة بدات سحب الدخان تنبعث من مساكن القرية مؤذنة بانهماك أهليها فى اعداد طعام العشاء وجعلت الأم تراقب الدخان المتصاعد بطيئا فى الهواء الساكن وهى راضية قريرة . فقد خطر لها فجأة انه ليس بين أمهات المزرعة المؤلفة من بضعة بيوت لا تجاوز أصابع اليدين من تعنى بأطفالها خيرا من عنايتها بأطفالها . وصحيح أن بعضهن كن أغنى منها مالا . فان زوجة صاحب الخان مثلا كانت تملك بعض الأقراط والخواتم التى كانت الأم تشتهيها فى طفولتها دون ان تنالها . لكن الأم كانت تفضل ان تمنح طفليها أفضل ما عندها من طعام حتى ينشآ صحيحين قويين . وقد اذاعت امراة المزارع الثرثارة ان صاحب الخان اعتاد أن يطعم أولاده فضلات اللحم المتبقى فى صحائف نزلائه . أما الأم فكانت تقدم لطفليها خير ما تنبت أرضهما من الأرز ، ولولا رمد عين الطفلة لما وجد ما يشكون منه . فقد كان الجميع صحاح الأجسام مكتملى النمو ، ويكاد الناظر يحسب الطفل فى السابعة أو الثامنة من عمره . أجل . فقد كانت الأم توهب أبدا أطفالا صحاحا . ولو لم يلفظ ذلك الطفل الذى اجهضت فيه أنفاسه حينما صافحت عيناه نور الوجود لعاش الآن وكان ولدا ناميا صحيحا كأخيه ، يحاول أن يدب على قدميه .
تنهدت الأم ثانية . ومهما يكن من شيء فهي توشك أن تضع وليدا جديدا فى غضون شهر أو شهرين ، وفى هذا ما يستغرق تفكيرها . لكنها كانت جذلة راضية . نعم .. كانت شديدة الجذل والرضاء كلما حملت طفلا وامتلأت احشاؤها بكائن جديد تدب فيه الحياة .
ثم رأت الأم شخصا يخرج الى شارع المزرعة الصغيرة من أحـد

البيوت . وعرفت فيه امراة عم زوجها . فقالت لها :
ـ آه . انت تطهين ايضا طعامك . انى فرغت منذ قليل .
فأجابتها المراة :
ـ نعم . وكنت أقول لنفسي الآن انك فرغت ، وانك سريعة فى عملك .
لكن الأم قالت بصوت مرتفع وبلهجة المجاملة :
ـ لا . لا . الحقيقة ان أولادي يجوعون بسرعة ! .
فهتفت زوجة العم :
ـ بل أنت امرأة قديرة ، سريعة .
ثم دلفت ثانية الى داخل بيتهـــا بعد ان حملت الحشائش التى خرجت لتناولهـــــا . وجلست الأم فى ضوء الشفق تعلو وجهها ابتسامة . فقد كان لها أن تفخر حقا بنفسها ، وبقوتها ، وبطفليها ، وبزوجها . وفجـأة رن صوت الولد قائلا وهـو يدفع صحفته الى الامام :
ـ أمى . (كمان) .
فنهضت الأم لـكى تملأ الصحفة . ولما خرجت ثانية الى الباب رأت قرص الشمس ينحدر بين التلال المحيطة بالحقل حيث قضت نهارها فى العمل . ثم شاهدت زوجها عائدا الى البيت متأبطا فأسه سائرا بخفة ونشاط . وفجأة سمعته يغنى . وكان صوته عاليا متموجا صافيا . وكان يلم بكثير من المقطوعات الغنائية . وكثيرا ما كان يدعى أيام الراحة للغناء فى حانوت الشـــاى حيث يزجى وقت الحضور ويسليهم .. ولما وصل الآن الى الدار لم يكف عن غنائه ، ولكنه جعل يغنى بصوت أقل ارتفاعا . ثم وضع فأسه قرب الجدار . ولما سمعت العجوز صوته افاقت من غفوة انتابتها بعد شبعها ، واستأنفت الـكلام وكأنها لم تسكت . فقالت :
ـ قلت أن ابنى يحب الباسلاء المخلوطة بالأرز ، وهو طعام شهى لذيذ .
فضحك الرجل ضحكة طبيعية متكاسلة ودخـل البيت ، وقال بصوت عذب :
ـ نعم يا امى . انا احب هذا اللون فعلا .
وفى خارج البيت كانت الابنة قد شبعت وجلست جامدة . ولـما ذهبت الشمس فتحت عينيها قليلا وتطلعت حولها فى يسر وفى غير ألم . وذهبت الأم الى المطبخ وملأت للرجل صحفة حتى حافتها ووضعت فى وسط الأرز الساخن بيضة اقتصدتها من بيض الدجاج القليل الذى

يملكونه . فقد كان حقا للرجل أن يظفر ببعض اللحم أو البيض وهو يكد طول يومه . ومهما حدث بينهما من التشاد فقد كانت تحب أن تراه ينال قسطا وفيرا من الطعام ، وكانت ترى أن هذا التشاد والتشاحن لم يكن يتجاوز اللسان الى القلب . وقالت المرأة العجوز :

ـ انى وضعت بيضة طازجة فى أرز ولدك . وقدمت له أيضا بعض الكرنب .

فما كادت العجوز تسمع هذا الكلام حتى قالت من فورها :

ـ آه . نعم . بيضة طازجة . قلت دائما بيضة طازجة . هى أفضل شىء للشاب . هى تعيد القوة .

لكن أحدا لم ينصت اليها . فقد كان الرجل شديد الجوع وجعل يأكل مسرعا . وطلب الى الأم أن تملأ صحفته من جديد وهو يضرب بها فوق الخوان حتى يستحثها . ولما ملأتها وقدمتها له جاءت لنفسها بصحفة . لكنها لم تجلس بجانب زوجها . بل تناولت مقعدا منخفضا وجلست فوقه قرب الباب وجعلت تلتهم طعامها راضية متلذذة . وبين وقت وآخر كانت تنهض وتقتطع لنفسها بعض الكرنب من صحفة الرجل . وجاء الطفلان واستندا اليها وفتح كلاهما فمه لكى يتلقف منها بعض الطعام ، فلم تبخل عليهما . ومع أنهما تناولا نصيبهما وشعرا بالامتلاء فقد كان الطعام من صحفة الأم أحلى مذاقا وألذ طعما . بل أن الكلب الأصفر تقدم نحوها مطمئنا . فقد انكمش حينا تحت خوان الرجل طمعا فى بعض الفتات ، لكن الرجل ركله بقدمه وطرده بعيدا . فجاء الى الأم وجعل يلتقط بعض الأرز الذى كانت تلقيه اليه .

كررت الأم ملء صحفة الرجل ثلاث مرات . ولما شعر بالامتلاء غمغم راضيا .. وصبت الأم فى صحفته الخاوية ماء مغليا ، فأخذ الرجل يحتسيه . ثم خرج الى الباب وجعل يحتسى الماء بصوت مرتفع . ولما فرغ حملت منه الصحفة ودخلت بها . ووقف فى مكانه يردد نظره فى هذه المنطقة الزراعية التى شملها الظلام . وبزغ الهلال ضئيلا فى صفحة السماء . فحدق الرجل فيه وانشأ يغنى أغنية رقيقة .

ثم أخذ الرجال يخرجون من بيوتهم مثله . وجعل بعضهم يتنادى مع بعض بشأن لعبة ابتدأوا فيها فى الخان . ووقف آخرون عند أبوابهم يتثاءبون .

وكف الزوج الشاب عن الغناء فجأة واستقر نظره عند الشارع .

كان هناك رجل واحد يواصل العمل والكل مستسلم للراحة . ذلك هو عمه الذى لا يكف عن العمل حتى فى الليل . والقى عليه نظـرة وهو جالس أمام داره منهمكا فى صنع سلة من اغصان الصفصاف . لكن هذا العم اذا رضى لنفسه هذا العمل المتصل فان الزوج الشاب ما كان يرضى ذلك لنفسه . ولابد له من الراحة والترفيه عن النفس . ولابد له من المقامرة قليلا . فأدار راسه لمخاطبة زوجته فى هذا الشأن . وسرعان ما قابلته بنظرتها العـدائية وقد ادركت قصده . فلم يتمالك الرجل ان لعنها فى سره . أليس من حقه أن يقامر بعض الوقت فى ليله بعد أن قضى نهاره فى الكد والعمل الشاق ؟ هل كتب عليه أن يفنى حياته فى العمل المستمر على انه لم يستطع أن يصمد لتلك النظرة الصارمة الغاضبة ، ولم يلبث أن هز كتفيه كالطفل المغلوب على أمره ، وقال :

ـ سأنام بعد هذا النهار الشاق ؟ . انا متعب جدا . ولا اقـدر على اللعب هذه الليلة .

ودلف الى داخل البيت والقى بنفسه فوق الفراش وتمدد وتثاءب . وفجـأة قالت العجـوز وهى لم تستطع أن تبصر شيئا فى الغـرفة المظلمة .

ـ هل ذهب ابنى الى فراشه ؟ .

فأجابها غاضبا :

ـ نعم يا امى . وهل يمكن غير ذلك فى مثل هذا المكان المحدود الفارغ ؟ شغل ونوم ! . شغل ونوم .

فقالت العجوز فى جذل دون أن تفطن الى لهجة الغضب التى مازجت صوته :

ـ نعم . نعم . شغل ونوم .

ونهضت من مكانها وجعلت تتحسس طريقها الى فراشها ، وهو مرتبة من القش فى ركن الغرفة خلف ستار ازرق من القطن . وفى هذا الوقت كان الرجل قد استغرق فى النوم .

ولما سمعت الأم صوت غطيط زوجها نهضت وتبعها الطفلان وهما يتشبثان بجلبابها . فغسلت الصحاف بقليل من ماء (الزير) البارد الموضوع قرب باب المطبخ . ووضعتها فى تجويف فى الحائط المشيد بالطين .. وذهبت الى الجهة الخلفية للدار وملأت دلوا خشبيا من بئر ضحلة وصبت الماء فى (الزير) .. ثم عادت الى الخارج وفكت عقال الجاموسة وأطعمتها بعض القش وقليلا من الحبوب . وقادتها

الى داخل الدار حيث قيدتها الى احدى قوائم الفراش الـذى نام الرجل فوقه .. وفى هذا الوقت كان الدجاج يوشك أن يستسلم للنوم أسفل الفراش . وأخذ ينق قليلا عنـد دخولها . ثم لزم الصمت .

وخرجت مرة أخرى من الدار ورفعت صوتها منـادية . فجاوبها خنزير من خلال الظلام . وكانت قد اطعمته وقت الظهر ، ولذا لم تقدم له الآن شيئا من الطعام . وجعلت تدفعه أمامها برفق حتى ادخلته . وتركت الـكلب الأصفر وحده فى الفنـاء ليقوم بواجب الحراسة .

وفى اثناء ذلك كله كان الطفلان يتبعانها جيئة وذهابا . وما لبثا الآن أن تشبثا بساقيها باكيين . فوقفت ورفعت الطفلة فوق ساعدها وقادت الولد من يده . ودخلت بهما الى الدار واوصدت الباب خلفها.

وتقدمت الى الفراش ومددت الطفلين عند قدمى الرجل . وجعلت تنزع ملابسهما وملابسها الخارجية فى رفق وهدوء . ولما تم لها ذلك تمددت بدورها بين الرجل والطفـلين . وجذبت الغطـاء فوقهم جميعا .

انطرحت الأم فى مكانها ساكنة وقد احس جسدها القوى بوطأة التعب . وكانت فى تمددها هذا كتلة من الرقة والحنو . ومهما نفد صبرها فى غضون النهار ، ومهما امتلأ صدرها بنزوات الغضب العارمة فقد كانت فى ليلها تستحيل مخلوقة رقيقة عاطفة . عاطفة على الرجل الذى يرقد بجـوارها .. عاطفة على الطفلين اللذين استسلما لسلطان النوم . عاطفة على العجوز اذا انتابها السعال ليلا ؛ فتنهض من مكانها لموافاتها بقليل من الماء .. بل عاطفة حتى على الحيوانات اذا تدافعت واثار بعضها بعضا . اذ كانت تخاطبها بقولها : « اسكتوا .. ناموا .. النهـار بعيد » .. ولا تكاد الحيوانات تسمع صوتها الأجش الرخيم حتى تهدأ وتعود للنوم .

وفى ابان الظلام تقلب الطفل فى مضجعه والتمس ثديها . فتركته يرضع وهى مستسلمة للخدر اللذيذ . ومع أن ثديها كان جافا فقد كان فيه للطفل ذكرى مريحة مسكنة . ولن يلبث أن يمتلىء عن قريب . وبجانب الطفل تمددت الطفلة موصدة العينين شديدة التصاق الجفنين . وكانت لا تنفك تفركهما بيديها حتى فى نومهـا لفرط ما تحس من ألم والتهاب .

لـكن سرعان ما استسلم الجميع للنوم . ولو نبح احد الـكلاب

فى الليل ما استيقظ منهم أحد . فقد كانت هذه الأصوات مألوفة فى أسماعهم ، الا الأم التى كانت تستيقظ وتنصت ، حتى اذا لم تجد ما يدعوها للنهوض عاودت النوم من جديد .

الفصل الثانى

ترى هل كانت الأيام تختلف وتتغاير فى نظر الأم ؟ .

كانت الأم تنهض فى الفجر والكل نيام ، فتطلق الدجاج والخنزير والجاموسة وتقودها الى الفناء . ثم تنظف مرابطها وتحمل الروث المتخلف منها الى الكوم الموضـوع فى أحد أركان الفناء السالف الذكر . وتذهب الى المطبخ حيث تغلى الماء لكى يشربه زوجها وامه العجوز وتضع بعض هذا الماء المغلى فى وعاء لكى تغسل به عينى الطفلة .

كانت هذه الطفلة تنهض صباح كل يوم موصدة العينين لا ترى بتاتا حتى تغسل الأم عينيهـا . وقد فزعت الطفلة أول الأمر وجزعت الأم لـكن الجدة العجوز راحت تقول :

ـ كانت هذه حالى فى طفولتى . ولم أمت بسبب عينى ! .

والآن قد ألف الجميع هذه الحال واطمأنوا اليها وعلموا ان هذا هو شأن الأطفال وانهم لا يموتون بسببه . وما كادت الأم تصب المـاء حتى جاء الولد يقود أخته من يدها . فقد انسل كلاهما من الفراش بسكون حذرا من ايقاظ الأب والاستهداف لغضبه ، اذ كان رغم مرحه يغضب أشد الغضب اذا أوقظ قبل أن يستوفى قسطه من النوم ، ولا يتردد فى لطمهما بيديه .

وقف الطفلان لدى الباب ساكنين . وجعل الولد يفتح ويغمض عينيه من تأثير النوم ، وراح ينظر الى أمه وهو يتثاءب . أما البنت فقد وقفت فى مكانها صابرة ممتثلة وهى مطبقة الجفنين .

ثم نهضت الأم مسرعة وتناولت المنشفة السمراء المعلقة فى وتد خشبى بالحائط ، فغمست طرفهـا فى ماء الوعاء وجعلت تمسح بتؤدة عينى الطفلة . فأخذت الطفلة تئن وتبكى بكاء خافتا لا يكاد يسمع . وراحت الأم تناجى نفسها كما كانت تفعل صباح كل يوم :

ـ لابد من البحث عن دواء لعينى البنت . سأطلب منه حينما يذهب لبيع قش الأرز ، اذا لم انس ، أن يذهب الى أحد حوانيت الادوية . فانى أعرف حانوتا عند باب المدينة فى شارع ضيق هناك .

وفيما هى تناجى نفسها بهذه الخواطر جاء الرجل الى الباب وهو يلتف بملابسه ويتثاءب ويحـــك رأسه . وما لبثت الأم أن اعربت عما يخالج نفسها قائلة :

ـ عندما تذهب لبيع قش الأرز في المرة القادمة ، فاقصد الى حانوت الأدوية القريب من باب المدينة ، واطلب دواء للعيـــون المريضة كعينى هذه البنت .

لـكن الرجل كان ضيق الصدر من تأثير النوم . وقال متبرما :

ـ ولم نضيع مالنا القليل فى شراء دواء للعيون المريضة ما دام يستحيل أن تموت بهـــذا السبب ؟ انى كنت اشـــكو مرض العينين فى صغرى . ولم ينفق أبى شيئا على لهذا السبب . رغم أنى كنت ابنه الوحيد الذى بقى على قيد الحياة .

رات الأم ان الوقت غير صالح للجدل . فلم تزد شيئا عمـــا قالت . وصبت للرجل ما يحتاج اليه من الماء . غير انها كانت غاضبة كذلك . فلم تقدم الماء اليه . بل وضعته فوق الخـــوان حتى يأخذه بيده .

وفجأة استيقظت العجوز ونادت بصوت خافت . فحملت لهـــا الأم اناء من الماء الدافىء لـكى تشربه قبل أن تنهض . وجعلت العجوز تحتسى الماء بصوت مسموع . ثم تجشأت واخذت تشكو ما ينتابها من الضعف فى الصباح .

ثم قصدت الأم الى المطبخ واخذت فى اعـــداد طعام الافطـــار . وجلس الطفـــلان فوق الأرض متضـــامين بسبب برودة الصباح الباكر . ثم نهض الولد اخيرا وذهب الى حيث كانت أمه تشعل النار . أما البنت فقد لزمت مكانها .

وفجأة أشرقت الشمس وغمرت أشعتها ارجاء المزرعة وسقطت فوق عينى الطفلة فأغمضتهما بسرعة . وكاد الألم يدفعها للبكاء غير انها اخذت تلهث وغالبت نفسها كما يفعل الانسان البالغ ، وجلست فى مكانها ساكنة وقد اطبقت جفنيها المحمرين ولم تتحرك حتى وافتها أمها بالطعام ودفعته بين يديها .

اجل .. هكذا كان شأن الأم كل يوم .. لكنها لم تتململ مرة من تعاقب الأيام على هذا النحو ولم تتبرم بتشابهها وتماثلها . ولو خاطبها أحد فى هذا الصـــــدد لحدقت فيه دهشة بعينيها السوداوين ، وقالت له :

ـ لكن الأرض تتطور بين زمن البذر والحصـــاد . ثم يجنى

المحصول من أرضنا ويدفع نصيب مالك هـــذه الارض التى نستاجرها حبوبا . ثم هناك أيام الأعياد والسنة الجديدة . نعم . وحتى الاطفال يتغيرون ويشبون . ثم احمل من جديد . كل شيء يتغير فى نظرى . بل كل شيء يتطور ويحملنى على العمل من مطلع الفجر الى مغرب الشمس .

واذا انفتح أمامها الوقت رات نساء المزرعة بين حامل توشك أن تضع ، واخرى تندب وليدا لهـــا مات ، وثالثة اهتدت الى طريقة جديدة لتفصيل الثياب .

وكانت تقصد أحيانا الى المدينة برفقة زوجها لبيع بعض الكرنب او الحبوب ، وهناك ترى مناظر طريفة تستهوى اللب وتدعو الى التأمل أن بقى أمامها وقت للتأمل والتفكير .

لكن الواقع أن هذه المرأة كانت من طراز لا يستهويه فى الدنيا سوى مجاورة الرجل والأطفال ولا يغريها شيء بالتفكير فى غيرهم .

كل ما كان يعنيها من الدنيا هو أن تلمس عاطفة الرجل ، وأن تحس الحياة تدب وتنمو فى أحشائها ، وأن تضع وليدا تقدم له ثدييها .

ثم تنهض فى الفجر فتقدم الطعام لأهل البيت وتقيت الدواب . وتبذر الحب وتجنى الثمار . وترفع الماء من البئر لـكى يشرب منه ذووها . وتمضى الى الروابى والتـلال فتجمع الحشائش البرية وتستشعر حرارة الشمس ولفح الهواء .

كانت تستمتع بمظاهر حياتها وتعاقب ادوارها فيها . تستمتع بالوضع والعمل فى الحقـــل ، والأكل والشرب والنوم ، وكنس الدار وترتيبها ، وسماع نساء المزرعة يثنين على براعتها فى العمل والحياكة . بل أن التشاحن مع الرجل كان أمرا طيبا وعاملا على اذكاء عاطفتهما . ومن اجل هذا كله كانت تستقبل اليوم الجديد بنشاط وحمية .

وفى هذا اليوم الذى تقدم وصفه ، أفطر الرجل وحمل فأسه وقصد الى الحقل متباطئا كعادته . فتقدمت الأم الى الصـحاف لغسلها . واجلست العجوز فى حرارة الشمس . وامرت الطفلين باللعب قرب البيت ، بعيدا عن الترعة . ثم حملت فأسها وسارت فى طريقها ، غير انهـــا وقفت مرة أو اثنتين والقت نظرة الى الخلف .

حمل النسيم الى سمعها صوت العجوز الرقيق يتردد خافتا . فابتسمت وواصلت طريقها . فقد كانت حراسة الدار هي قصارى ما تضطلع به هذه العجوز . وكانت تقوم بهـــذا القسط فخورة مزهوة . فهي رغم شيخوختها واضمحلال بصرها لم تزل بها القدرة على النظر وتمييز المخلوقات . ولو دنا من الدار كائن غريب لرفعت الصوت عاليا صائحة مستنجدة .

وصحيح أن العجوز كانت حملا ثقيلا ، وعالة كالأطفال الصغار أو أشد كثيرا ، فكلما طعنت في السن زادت عنادا واستعصت على الزجر والتأديب . لكن الأم حينما سمعت زوجة العم تقول لها يوما هذه العبارة : « سيكون من دواعي راحتك وحسن حظك اذا ماتت هذه المخلوقة الطاعنة في السن ، فقد شاخت وعميت وتكاثرت عليها الأمراض والأوجاع وازدادت خرفا وعنادا » — لم يكن منها الا أن أجابت بلهجتها الوادعة الرقيقة : « نعم لكن ما زال بها نفع كبير لنا . فهي تقوم بحراسة الدار . وأرجو أن تعيش حتى تكبر البنت ويشتد عودها » .

أجل .. لم يكن من طبع الأم أن تقسو على العجوز وتشتد في معاملتها . وكانت قد سمعت عن النساء اللائي يشهرن الحرب على أمهات أزواجهن ويضقن ذرعا بهن . لكن العجوز لم تكن في نظر هذه الأم الطيبة الشابة أكثر من طفل صغير ، وكثيرا ما كانت تحملها على ارتياد الروابي أو التـلال لجمع بعض الأعشاب التي تشتهيها . على انه حينما مرضت العجوز ذات يوم وأيقن الجميع من قرب موتها وجيء لها بنعش لنقل جثتها . كم كان فرح الأم اذ رأت العجوز تتشبث بالحياة وتغالب الموت فتغلبه . نعم ... لقد أفنت هذه العجوز كفنين ، لكن الأم كانت تفرح كل مرة بعودتها الى الحياة . وكان أهل المزرعة يتندرون بجلد العجوز ويتفكهون بمغالبتها للفناء . وكانت العجوز ترتدي الجلبـــاب الأحمر الذي صنعته الأم كفنا لها ، تحت جلباب آخر أزرق ، كما كانت العادة في تلك الجهات .. حتى اذا بليت أطرافه وتناثرت خيوطه صنعت لهـا الأم جلبابا ثانيا فلبسته العجـــوز فرحة به . وكلما سألها سائل : « الا تزالين أيتها العجوز على قيد الحياة ؟ » — أجابته في جذل : « نعم .. لا زلت أعيش ، وأرتدي كفني ، وسأبليه كما أبليت سابقه .. ولست أعلم كم سأبلي غيره ! » .

وهكذا كانت العجوز تضحك وتغرق في الضحك كلما رأت انها

ما زالت تستروح نسيم الحياة وتقصر عنها يد الموت والفناء .
القت الأم نظرة اخيرة خلفها باسمة حينما استعرضت هـذه الذكريات وسمعت العجوز تقـول لها : « اطمئنى يا ابنتى . أنا موجودة لحراسة الدار » .
أجل .. انها ستحرم من معاونة هذه العجوز اذا طواها الموت . لـكن الموت غالب لا يقهر . ولا سـبيل الى دفع عواديه اذا حم القضاء .
وهكذا مضت الأم فى طريقها هادئة النفس ساكنة الخاطر .

الفصل الثالث

ما كاد نبات الفـــول الذى غرست الأم بذوره ينمو ويزدهر ويمتلىء الهواء بشذاه حتى وضعت الأم طفلها الرابع . ولم تكن توجد قابلات فى هذه المزرعة كما هو الشأن فى المـدن والبلدان والقرى الكبيرة . لكن نساء المزرعة كن يتعاون فى مسائل الوضع، وكان بهـا جدات قادرات على التلقين والارشاد اذا وقع خطأ أو استعصى وليد او تحيرت أم فى الولادة . بيد أن الأم كانت حسنة التركيب لا عيب فى بنيانها . بل انهـــا لم تعان مشقة حتى حين اجهضت ، فقد وضعت فى يسر ولم تقاس شيئا من الألم الا ألم الحسرة على الوليد الذى لم يستكمل عدته ، وذهاب جهود الحمل فى غير طائل .
كانت الأم اذا حضرتها الولادة تستعين بزوجة العم ، كمـــا تستعين هذه بها اذا حانت ساعتها .
ففى يوم من ايام الربيع رق نسيمه وصفت سماؤه احست الأم بأن ساعة الوضع قد حانت . فاجتازت الحقل حتى اذا أشرفت على الدار تركت الفأس من يدها ونادت زوجة العم التى كانت تغسل ملابس ذويها عند حافة الترعة . فسارعت الى الأم وهى تجفف يديها .
كانت زوجة العم امراة طيبة القلب صافية السريرة ، ذات وجه مستدير أسمر وانف افطس وفم كبير احمر . وهى فوق هـذا ثرثارة بعكس زوجهـا الصموت . وما كادت تسمع النـداء حتى ركضت وهتفت ضاحكة :
ــ من حسن الحظ يا أختى اننـا لا نلد فى وقت واحد . انى

راقبتك زمنا وجعلت اتساءل من منا تسبق الاخرى فى الوضع . لكنى تأخرت فى الحمل هذه السنة عن مألوف عادتى ، وأنت على وشك الولادة فى الوقت الذى بدات انا احمل فيه .

فاهت زوجة العم بهذه الكلمات فى صوت مرتفع رنان كعادتها . فسمعتها نساء المزرعة ونادين من بيوتهن فرحات :

ـ جاءت ساعتك يا أختى ؟ . نتمنى لك حظا .. وولدا ..

وكان بين نساء المزرعة أرملة ثرثارة . فقالت من بيتها :

ـ نعم . استنفدى زوجك ما دام معك . فهانذا امراة صالحة للحمل والولادة ولا رجل عندى .

لكن الأم لم تجب . وانما ابتسمت ابتسامة يسيرة وقد بدا لونها شاحبا لما شابها من الغبار والعرق . ثم دلفت الى داخل الدار .

وتبعتها العجوز الى الداخل وهى تثرثر وتضحك سرورا بهذه المناسبة ، وقالت :

ـ كنت أقول كلما جاءت ساعتى ، وأنت تعلمين يا ابنتى انى وضعت تسعة أولاد كانوا جميعا أصحاء أقوياء حتى مماتهم .. كنت اقول دائما ..

لكن الأم لم تنصت اليها . بل تناولت مقعدا صغيرا جلست فوقه دون أن تتكلم ، وجعلت تسوى شعرها الأشعث بيديها اللتين غمرهما العرق ، لا عرق الحقل ، وانما عرق الألم . ثم تناولت طرف جلبابها ومسحت وجهها وفكت جدائل شعرها الطويل الكثيف وعقدته من جديد . وفجأة انتابها ألم حاد . فانحنت الى الأمام صامتة . وجعلت تنتظر .

وكانت العجوز مسترسلة فى الكلام بجانبها زوجة العم تضحك منها فلما رأت هذه انحناء الأم اسرعت الى الباب واغلقته ووقفت تنتظر . لكن سمع طرق الولد فجأة على الباب . فقد رأى الباب يوصد بالنهار وأمه فى الداخل ، فأخذه الخوف وصرخ وطلب أن يفتح الباب ، فقالت الأم أول الأمر « دعوه فى الخارج حتى أنتهى بسلام » . وتقدمت زوجة العم الى الباب وصاحت من فتحته : « انتظر مكانك حتى تنتهى أمك » واعقبتها العجوز قائلة « انتظر مكانك يا ولدى . وساعطيك ما تشترى به بعض الحلوى اذا بقيت تلعب ، وسترى ما تجيء به أمك بعد قليل ! » .

لكن الولد تملكه الخوف اذ رأى الباب يوصد فى النهار وصمم

على الدخول . وأخذت البنت تبكي كذلك كعادتها كلما رات اخاها يبكي وتقدمت تتحسس طريقها الى الباب واخذت تضربه بقبضتي يديها النحيلتين . فغضبت الأم آخر الأمر وزاد غضبها حينما اشتد بها الم المخاض . ونهضت من مكانها واندفعت الى الباب ولطمت الولد بشدة وصاحت في وجهه : « طول عمرك تعذبني ولا تسمع كلامي ! وهذا ولد آخر سيجيء مثلك ! » .

لكنها ما كادت تضرب الولد حتى لان قلبها وذهب غضبها وقالت في لهجة أرق : « لكن تعال ادخل اذا لم يكن بد من دخولك . ولن ترى شيئا غريبا » .. ثم استطردت تخاطب زوجة العم : « اتركى الباب مفتوحا قليلا فهم لم يعتادوا هذا » ..

ثم عادت الى الجلوس وامسكت راسها بيديها واستسلمت للألم صامتة . اما الولد فقد دخل ولما لم ير شيئا واحس بزوجة العم تحدجه بنظرات صارمة وكأنه ارتكب شيئا فقد خرج ثانية . لكن البنت دخلت وجلست على الأرض قرب أمها وظللت عينيها بيديها تخفيفا لألمها .

وهكذا جلسن جميعا منتظرات .. الأم صامتة متألمة .. والمرأتان الاخريان تتجاذبان اطراف الحديث عن شئون المزرعة واحوال أهليهما ، وتكلمت زوجة العم عن ذلك الرجل المقيم عند طرف المزرعة ، الذى انهمك فى المقامرة تاركا ارضه خواء ، وكيف انه تشاجر اليوم مشاجرة حامية مع زوجته واغتصب آخر ما يملكان من دراهم ، وغادر بيته للمقامرة ، فخرجت الزوجة البائسة الى باب الدار تندب حظها وتبث الجميع شكواها . وقالت زوجة العم :

ـ « وهذا الرجل لم يكسب مرة فى حياته . فهو يخسر دائما . وهذا ما يحزن زوجته ويزيد كربها » .

فلما سمعت العجوز هذا الكلام تنهدت وبصقت على الأرض وقالت :

ـ نعم . من المحزن أن يخسر الرجل دائما ولا يربح شيئا . لكنى اعرف رجالا كثيرين بهذا الوصف . على انى احمد الإلهة ان هذا بعيد عن بيتنا . فان ولدى يربح دائما فى المقامرة .

لكن العجوز ما كادت تتم كلامها حتى صرخت الأم واستدارت فى مكانها بعيدا عن الابنة وفكت حزامها وانحنت فوق المقعد . فأسرعت زوجة العم اليها وتناولت فى يدها المولود الذى ينتظرنه .. واذا هو ذكر ..

اما الام فقد ذهبت الى الفـــراش وتمددت فوقه تستريح من جهدها الشـــاق . وكم كانت الراحة عذبة على نفسها فى هـذا الوقت ، نامت نوما عميقا متصلا .

وعمدت زوجة العم الى المولود فغسلته ولفته ووضعته قرب الام النائمة التى لم يوقظها صراخه . ثم انصرفت زوجة العم عائدة الى دارها بعد ان أوصت العجوز ان تبعث بالولد فى طلبها عندما تستيقظ امه .

ثم جاءها الولد بعد ذلك صـــائحا : « هل تعرفين ان لى الآن أخا ؟ » فغادرت زوجة العم دارها على الأثر حاملة اناء به حساء ، وقالت للولد تعاكسه ضاحكة : « وكيف لا اعرف وقـد حملته بين يدى ؟ » .

فوقف الولد يفكر قليلا ، ولما أعلن اشفاقه وخوفه الا يبقى الوليد فى بيت والديه لم تتمـــالك زوجة العم أن ضحكت من سذاجته وشاركتها العجوز ضحكها .

وتناولت الأم الحساء الذى حملته اليهـــا زوجة العم ممتنة شاكرة ، وغمغمت قائلة : « هذا كرم منك يا أختى » .

لكن زوجة العم أجابتها قائلة :

ـ الست تفعلين مثل هذا لأجلى اذا جاءت ساعتى ؟ .

وهكذا شعرت المرأتان بهـذه الرابطة الوثيقة التى تجمع بينهما صديقتين متعاطفتين متساندتين ! رابطة الولادة . تلك التى تتجدد وتتكرر كل عام .

الفصل الرابع

ذلك كان شان الام .

اما الأب فكان له شان آخر . فقد كانت الحياة لا تتغير فى نظره ولا أمل أمامه فى جديد .

بل ان ولادة الأولاد التى كانت الام تجد فيها لذة وسعادة لم تكن بالجديدة فى عينيه . فقـــد كان الأولاد يولدون جميعا ســـواء متشابهين . لهم عليه واجب القوت والكسوة . واذا كبـروا وجب تزويجهم . ثم يولد لهم ابنـــاء بدورهم فيجيئون جميعـــا سواء متشابهين . وهكذا كانت الأيام تتعـاقب متماثلة . وكل يوم لا ياتى بجديد .

وهو نفسه قد ولد فى هذه المزرعة الصغيرة . ولم ير فى حيـاته

جديداً الا ما كان من ذهابه احيانا الى البلدة الصغيرة الكائنة وراء التل على ضفاف النهر . وهو اذا استيقظ فى الصباح صافح عينيه منظر التلال المنخفضة والسماء التى لا تتغير ولا تتبدل . ثم يذهب الى الحقل فيظل يكد ويكدح حتى يجن الليل . ثم يعود الى البيت الذى ولد فيه وينام فوق الفراش الذى نام فيه من قبل مع والديه حتى كبر واعدت له (مرتبة) خاصة .

اجل .. وها هو ذا الآن ينام فوق هذا الفراش مع زوجته واولاده وتنام امه العجـــوز فوق (المرتبة) . وهو هو نفس الفراش ونفس البيت . بل لم يكن من جديد فى هذا البيت سوى بعض الأدوات القلائل التى جيء بها عند زواجه . وهى اناء لغلى الشاي وغطاء أزرق فوق الفراش وشمعدان جديد واله جـديد من الورق نصب فوق الحائط . وكان هذا الاله يمثل رجلا كهلاً عليه مظاهر الغنى والمرح يرتدى ثوبا مؤلفا من الوان حمراء وزرقاء وصفراء متعانقة مؤتلفة . لـكنه رغم هذا المظهر الباذخ لم يجيء بالغنى المنشود الى هذه الدار . وطالما تطلع الرجل الى هذا الاله ولعنه فى ضميره لأنه كان يشرف فى مرح على هذه الغرفة الحقيرة التى كانت حقـــــارتها لا تتغير ولا تتبدل .

وكان احيانا يعود الى البيت من المدينة بعد يوم راحة ، أو عقب المقامرة فى يوم مطير مع بعض الـكسالى المتسـكعين فى الخـان . وما يكاد يبلغ هذا البيت الصغير الضيق ويعود الى هذه المراة الولود التى تضع له أولادا عليه ان يكدح لاطعامهم حتى يرى وقد ملك عليه الجزع والرعب شعاب نفسه انه لن يجد فى حياته ما عاش الا أن يستيقظ فى الصباح ويذهب الى هذه الأرض التى لا يملكون منهـــا الا قليلا والتى استأجروها من المالك الذى يحيا حياة الدعة والرفاهية فى احدى المدن القاصية ، والا أن يسلخ يومه فى هذه الأرض المأجور كما فعل أبوه من قبل ، والا أن يؤوب الى البيت ويطعم هذا القوت الجاف الخشن وهو أســـوأ ما تغل الأرض التى يكدح فيها ، أما الطيب فيباع لغيره لـكى يستمتعوا به ، والا أن يأوى الى فراشه ليلا ثم ينهض فى الصباح لكى يستأنف يومه على النحو الذى بدأ .

بل ان غلة الأرض لم تكن ملك يمينه . فقد كان مضطرا لاعطاء نصيب منها لمالك الأرض ، وآخر لوكيل المـالك المنوط به جبـــاية المحصول ، وكان اذا فكر فى هذا الوكيل لم يطق ذكراه . فقد كان رجلا من اهل المدن طالما تاقت نفسه أن يكون على غراره . اذ كان

يرفل فى الحرير وعليه مظاهر الدعة والرخاء التى تطبع أصحاب المدن ممن يؤدون عملا يسيرا ويطعمون طعاما طيبا كثيرا .

كان الرجل اذا ألحت عليه هذه الأفكار والخواطر يضيق صدره ويشتد تبرمه وسخطه ولا يخاطب المرأة بشيء الا لكي يسبها لبطئها فيما تقوم به من عمل . وشد ما كان يسره ، اذا استفز طبعها الحاد فانبرت له غاضبة ، أن يشتبك معها فى شجار حامي الوطيس . وكان يجد فى هذا ترفيها عن نفسه وشفاء لوجده ، وان كانت دائما تظفر عليه وتتم لها الغلبة فى النهاية اذ هى أحد منه طبعا واقوى شكيمة .

على أنه لم يكن يستطيع أن يصمد للغضب طويلا فقد كان يكل ويعمد الى شيء آخر يسرى به عن نفسه وينسى غضبه .

وكان غضبها يبدو فى اشد صوره وأعنف مظاهره اذا ضرب احد الطفلين أو صاح فيه منتهرا لبكائه . فهى لم تكن تطيق هذا منه . بل كانت تهتاج وتواجهه مواجهة عنيفة وتستنقذ الطفل منه ، فيخرج هو أبدا مهزوما ويجيء الحق دائما فى جانب الطفل . ولذلك كان يحنقه منها أن تفضل الأطفال عليه وتؤثرهم دونه . أو هذا ما كان يتصوره .

أجل كان اذا تحالفت عليه تلك الخواطر ، يضيق بكل شيء ولا يجد لذة فى شيء ، حتى فى أيام العطلة القلائل وأيام الأعياد وأيام الشتاء الطويل الذى لا يؤدى فيه عملا ، بل يلزم فراشه ، واذا لم يستطع الى النوم سبيلا قضى وقته فى المقامرة .

وكان فى المقامرة رجلا مجدودا موفقا . وطالما عاد الى بيته حاملا أضعاف ما خرج به ، وكم خيل اليه ان حياته تكون هانئة على هذا المنوال لو انه كان وحده . وكان يحب المقامرة وما تقترن به من لذة الانفعال والحماسة ، كما كان يستهويه أن يرى الرجال يحفون به وهم يبدون اعجابهم ببراعته وخفة أصابعه . والواقع أن الحظ كان يكمن فى أصابعه الرشيقة الخفيفة التى لم تتصلب بتأثير المحراث والفأس . فقد كان فتى فى ميعة الشباب ونضارة الصبا ، لا يجاوز الثامنة والعشرين من عمره ، ولم يشتغل يوما اكثر مما يجب .

لكن الأم لم تطلع يوما على قلب الأب ولم تقف على شيء مما يساوره . وكانت تعرف هيامه بالمقامرة . ولكن ماذا يضيرها من هذا وهو لا يخسر فى اللعب ؟ والحق أن براعته فى اللعب كانت موضع زهوها وفخارها . وحين كانت رفيقاتها من أهل المزرعة يندبن حظهن اذ يفقد ازواجهن على مائدة الخان ما يربحونه من الدراهم المعدودة

اثنـاء العمل فى الحقول ، كانت تبتسم راضية مسرورة من مقدرته على الربح ولا تنحى عليه باللائمة الا اذا أرادت أن تتخذ من هذا ذريعة لشجار جديد .

ولم تكن تشتد فى لومه اذا لم يواصل العمـــل فى الحقل ويثابر مثابرتها ، وان كان فى هذه المناسبات لا يسلم من لسانها اللاذع . فقد كانت تعلم ان الرجال لا يقوون على العمل كالنساء . وقد الفت أن تستمر فى عملها بينما يلقى زوجها فأسه ويتمدد فوق الحشائش النامية بين الحقول وينام ساعة أو ساعتين . لكنها اذا عاتبته مؤنبة بحكم العادة ، أجابها قائلا : « نعم . من حقى أن أنام . فقد اشتغلت ما يكفى لقوتى » .

وكانت تود فى مثل هذه المناسبات أن تقول له : « اليس لنا اذن اطفال ومن واجبنا ان نعمل كل ما فى وســـعنا لـكى نوفر القوت لهم ؟ » . لـكنها كانت تمسك عن مثل هذا الـكلام لأنه كان يبدو لها حقا ان الأطفال هم أطفالها وحدها ما دام زوجهـــا لا يعمل شيئا لأجلهم . وفوق هذا فلم يكن لها حضور بديهتة فى الجواب .

لـكنها كانت تغضب أحيانا وتشتد فى الغضب حين تراه يبتاع من المدينة بعض الحلى التافهة من النقود التى باع بها شيئا من غلة الأرض ، او حين يسكر فى غير ايام الأعياد .

كان غضبها يبلغ مداه فى مثل هذه المناسبات ، ويكتسب مرارة تنسيها انها تحبه فى اعماق قلبها . ويظل هذا الغضب يعمل فى نفسها ساعات طوالا حتى يعجز عن مجاراتها ويلتمس ما ينسيه غضبها .

ففى أحد ايام الخريف عاد اليها متحليا فى اصبعه بخاتم من ذهب، أو زعم انه من ذهب . وما كادت تراه حتى ثار غضبها وصاحت فيه مهتاجة حانقة :

ـ انت . . انت . . لا تحب أن تساهم بنصيبك فى بؤس حياتنا . . بل تذهب وتبذر مالنا القليل فى شراء خاتم تلبســه فى اصبعك ! . هل سمع احد أن رجلا فقيرا مسكينا يلبس خاتما فى اصبعه ؟ . ان الغنى هو الذى يحق له أن يفعل هذا ولا لوم عليه . لـكن اذا فعله رجل فقير ، فهل لذلك من معنى مشرف ؟ . ذهب ؟! . من سمع أن خاتما من ذهب يشترى بدراهم من نحاس ؟ .

وما كاد الرجل يسمع هذا الـكلام حتى صاح فيها وقد ثارت ثائرته وتمرد عليها .

ـ هو من ذهب كما قلت لك ! . ان الرجل الذى باعه أخبرنى انه

مسروق من بيت أحد الأغنياء ، وقـد ارانيه سرا فى الطريق أثنـاء سيرى وكان يخفيه تحت سترته ، وسمح لى أن أراه حينما كنت فى طريقى .
لـكنها قالت له ساخرة :
ـ نعم .. فقد رأى امامه مغفلا يسهل خداعه . واذا صح انه من ذهب فهل لم يخطر ببالك أنهم قد يرونه معك فى المدينة ويقبضون عليك ويزجون بك فى السجن بتهمة السرقة ؟ . فكيف اذن نعيد لك حريتك ، أو نطعمك فى السجن ؟ . أرنيه حتى أنظر ان كان حقا من ذهب .
لـكنه لم يرض أن يعطيها الخاتم ، وهز كتفيه متبرما كالطفل . فلم تطق هذا منه . وهجمت عليه وخمشت وجهه الأملس الوسيم وانهالت عليه بضرب عنيف حتى ارتاع منها ولم يسعه الا ان يخرج الخاتم من اصبعه ويلقيه اليهـا بازدراء ، ولـكن فى خوف ايضـا قائلا :
ـ خذيه ! أعرف أنك غاضبة لأنى اشتريته لنفسى ولم أشتره لك انت ! .
ساورها غضب جديد حين سمعت منه هذه الكلمات ، فقد كانت تعلم أنه يقـول الحقيقة ، وكانت تعانى فى نفسها ألمـا خفيا اذ تراه لا يبتاع لها حلية تضعها فى اذنيها أو فى أصابعها كما يفعل الأزواج لزوجاتهم ، وقد ساورها هذا الخاطر حين وقع نظرها على الخاتم . وجعلت تحدق فيه ، فقال لها فى صوت متهدج بالأسى لخطة السيىء وحياته القاسية :
ـ انت دائما تستكثرين على اتفه الأشياء . وتحبين ان يتحول كل شىء لهؤلاء الأطفال الذين تربينهم ! .
واخذ يبكى بكاء لا ريب فيـه وذهب الى الفراش فانطرح فوقه واستمر فى بكائه بصوت عال حتى يصل الى سمع زوجته . وكانت أمه قد سمعت هذا الشجار خائفة مشفقة . فأسرعت اليه تواسيه وتسرى عنه حتى لا يلم به مرض . ورمقت زوجته بنظرات عدائية وقد كانت تحبها دائما وتعطف عليها . وبكى الطفلان لبكاء ابيهما . ورايا فى امهما امراة قاسية غليظة القلب .
لكن الأم لم تهدأ ثائرتها بعد .. فتناولت الخاتم الذى القاه الرجل على الأرض ووضعته بين أسنانها وعضت عليه حتى ترى ان كان حقا من الذهب ليفيدوا منه فائدة محققة . فقـد كان المعروف ان

الادوات المسروقة تباع دائما بثمن بخس . على ان المعدن لم يلن تحت اسنانها كما كان يجب لو انه من ذهب حقـــا . وهتفت فى غضب متزايد :

ـ اذا كان من ذهب ، أفلم يكن يلين تحت اسنانى ؟ هو معدن صلب من نحاس .

وعضت عليه مرة ثانية ثم قالت وهى تبصق الطلاء الزائف الذى يعلوه :

ـ أنظر ! انه لم يكد يطلى حتى بماء الذهب ! .

لم تطق الأم ان ترى الرجل يغرر به على هذا النحو الصبيانى . فابتعدت عنه وخرجت الى الحقل لـكى تشتغل وقد قسا قلبهـا حتى لم تلق نظرة على الطفلين الباكيين ، ولم تستمع للعجوز التى راحت تقول فى صوت متهدج يشف عن القلق : .

ـ عندما كنت فىشبابى كنت اترك زوجى يلهو ويتمتع . يجب على الزوجة أن تترك زوجها يتمتع قليلا .

نعم . لم تستمع الزوجة لهـذا الـكلام . ولم تر فيه ما يهدىء غضبها ويخفف حنقها .

على أنها بعد أن عملت بعض الوقت فى الحقل ذهب غضبها دون أن تشعر بتأثير هواء الخريف العليل ، وسكنت نفسها قليلا ، وعادت اليها طيبتها . وفيمـــــا كانت يدها تنثر الحنطة الشتوية فى التربة المحروثة تسلل الهدوء الى نفسها وتذكرت أنها تحب هذا الرجل حبا جما وارتسمت أمام عينيها صورة محياه الضاحك فهزت من فؤادها وترا حساسا . وقالت لنفسها مؤنبة :

ـ سأصنع له فى الغداء لونا لذيذا . ومهما يكن فانى أسرفت فى الغضب بسبب دراهم يسيرة .

اشتدت بها اللهفة اذن وعادت الى البيت لاعداد الطعام اللذيذ لكى تبرهن له على أنها تبدلت وصفحت . لكنها الفتـه لم يزل فى الفراش غاضبا ، وقد تمدد موليا وجهه شطر الحائط ولم يشأ ان يقول كلمة واحدة . ولما اتمت اعداد الطعام الذى يحبه ونادته لم ينهض ولم يقبل ان يأكل . وقـال بصوت شـديد الخفـوت وكأنه مريض :

ـ لا يمكن ان آكل . انك قتلت شهيتى .

لم تجب بكلمة . بل وضعت الصحفة جانبا وذهبت لاستئناف عملها فى الحقل وقد زمت شـفتيها ، ولم تنضم الى العجوز وهى

تحاول ان تحمل ابنها على الأكل .
تذكرت الأم غضبها ورفضت أن تتقدم نحوه بالرجاء . وفيما هي تغادر الدار لحق بها الكلب وهو يهمهم جائعا مستعطفا . فعادت الى المطبخ حيث كانت الصحفة التى أعدتها للرجل ، ومدت يدها نحوها قائلة :
ــ لا بأس . سأقدمها للكلب .
لكنها لم تفعل . ومهما يكن فقد كان هذا الطعام لبني الانسان ، ولا يمكن اضاعته على حيوان . ولذلك أعادت الصحفة الى الكوة الصغيرة فى الحائط وجاءت بقليل من الأرز وقدمته للكلب .
على انها ما كادت تستلقى ليلا فى الفراش بجانب الطفلين من ناحية والرجل من ناحية أخرى حتى تلاشى غضبها . فى هذا الوقت بدا لها ان هذا الرجل لا يعدو أن يكون طفلا كذلك ، وانه يعتمد فى وجوده عليها مثل غيره من أفراد البيت .
ولما طلع النهار نهضت هادئة النفس وادعة الخاطر ، وبعد ان افطر الجميع الا زوجها ذهبت اليه واخذت تلح عليه لكى يقوم ويأكل . فلما بدا له ذلك منها نهض متباطئا كأنما يقوم من مرض وتناول قليلا من الصحفة التى أعدتها له ، ثم اتى عليها حتى آخرها اذ كانت من لون يحبه . وفيما كان يأكل راحت العجوز تنظر اليه فى محبة وهى تطرق مختلف الأحاديث .
لكنه لم يشأ أن يعمل فى هذا اليوم . وفيما كانت الأم تغادر البيت ذاهبة الى الحقل جلس فوق مقعد منخفض فى مدخل البيت تحت أشعة الشمس ، وهز راسه فى ضعف وقال :
ــ انى احس بفتور والم فى قلبى ، وسأستريح اليوم .
ورات الأم انها اخطأت فى حقه حينما اغلظت فى معاملته على ذلك النحو ، وندمت على ما بدر منها من الغضب ، وقالت له مواسية :
ــ لك أن تستريح اذن .
وذهبت الى الحقل .
على انها ما كادت تذهب حتى دب الملل الى نفسه وضاق ذرعا بثرثرة أمه . فان العجوز لذ لهما أن تنفرد بولدها طول اليوم واسترسلت فى الحديث . اما هو فقد تبرم بكلامها وسئم رؤية الطفلين يلعبان .
ولذلك نهض من مكانه وقال لامه انه يريد ان يتناول بعض الشاى حتى يستدفىء به ، ومضى فى الشارع الصغير الى الخان الذى يديره

عمه الخامس . وفى هذا الخان راىَ أناسا يشربون الشاىَ ويتجاذبون اطراف الاحاديث . والفى خوانات ممدودة تحت قماش مشدود فى عرض الطريق حيث يمر المســـافرون وينالون قسطا من الراحة والشراب . وكان يتاح للجلوس اذا مر احد هؤلاء المســـافرين أن يسمعوا بعض القصص الطريفة فى مختلف الشئون . كما يمر بالخان احد القصاص ويلقى ما عنده من القصص والسير . وهكذا كان الخان مكانا حافلا بالمسرة والنشاط .

على انه صادف فى طريقه عمه الصموت عائدا من الحقل لتناول الطعام بعد ان قام بقسط من العمل منذ الفجر . وساله العم قائلا :

ـ الى اين تذهب ؟ ولم لا تشتغل ؟ .

فاجاب الرجل بلهجة الضعف والشكوى :

ـ ان امراتى استنزلت على المرض لاختلافنا على مسالة لا اكاد اعرفها ولم استطع ارضاءها . ونتج عن هذا اصابتى بمرض جزعت منه هى نفسها حتى انها امرتنى أن استريح اليوم وان اذهب لشرب بعض الشاى تدفئة لمعدتى .

فما كاد العم يسمع هـذا الـكلام حتى بصق وسار فى طريقه دون أن يقول شيئا . فقد كان قليل الـكلام ، وكان بطبعه يحتفظ بآرائه القليلة لنفســه .

وهكذا كان الرجل متبرما بزوجتــــه . ولم يطق التفكير فى جمود حياته وسيرها على هذا النحو يوما بعد يوم وعاما بعد عام ، حتى يهرم ويموت . وشق عليه أن يسمع من المسافرين القلائل الذين كانوا يعرجون على الخان عن وجود أشياء عَجيبة مدهشة فيما وراء هذه الروابى والتلال وعند مصب النهر .

هنالك ، على حد قولهم ، كان النهر يلتقى بالبحر .. وهناك توجد مدينة عظيمة حاشدة بالناس من مختلف الأجناس والألوان . والمـال ميسور نيله بعد جهد قليل . ونوادى المقامرة منتشرة فى كل مكان . وفيها فتيات مغنيات حسان لا يحلم أصحاب هذه القرية برؤية مثلهن مدى الحياة .

وفى المدينة بعد ذلك مشاهد اخرى عجيبة .. ففيها الشــوارع الممهدة ، والمركبات المختلفة ، والدور الشاهقة كالجبال ، والحوانيت ذوات الواجهات الحافلة بصنوف السلع المجلوبة فى السـفن من وراء البحار . وقد يمضى الانسان حياته كلها فى التطلع الى هذه الواجهات دون أن يحيط بها . وفيها الطعام الجيد الموفور واللحوم والاسماك

المنوعة . واذا أكل الانسان انتقل الى ملاعب كبيرة تمثل فيها مختلف المشاهد الحية والمتحركة . فيهـــا ما يضحك الناظر حتى يتشقق بطنه . ومنها العجب المخيف المروع . ومنها المليء بالدهاء والشر . بل أعجب وأروع من هذا كله أن الليل في هذه المدينة العظيمة ساطع كالنهار ، تضاء فيه مصابيح لا توقد بالأيدى ولا باللهب ، بل بنور صاف يستمد من السماء .

وكان الرجل يلعب أحيانا مع احد هؤلاء المسافرين ، فلا يملك هذا الا أن يبدى عجبه ودهشته من وجود مثل هذا اللاعب الماهر فى مثل هذه المزرعة الصغيرة ، ويقول له ، « أنت تلعب ياصاحبى كأهل المدن ، وبامكانك أن تلعب فى أى ملهى فى المدن ! .. » .

فاذا سمع الرجل هذا الثناء ابتسم وقال بلهجة الجد : « هل تحسب انني استطيع ان افعل هذا حقا ؟ » . ثم يناجى نفسه فى ازدراء ولهفة بهذه الكلمات : « صحيح انه لا يوجد فى هذا المكان الكئيب من يجارينى فى اللعب ، انى أصمد فى البلدان الصغيرة لكل واحد من لاعبيها » .

كان كلما فكر فى هذا الشأن اشـــتدت لهفته لهجر هذه الحياة الريفية التى يمقتها ، وطالما ناجى نفسه وهو ينهال بفاسه على الارض بهذه الكلمات : « هأنذا شاب جميل فى أصابعى حظ وبراعة ، ولكنى محصور كالسمكة فى قاع بئر .. وكل ما أراه هو هــذه السماء المستديرة فوق رأسى ، فى صحوها ومطرها .. وهذه الزوجة التى تلد أطفالا متتابعين متشابهين يبكون ويصرخون ويطلبون القوت .. فما الذى يحملنى على افناء قوتى لاطعامهم وما الذى يضطرنى الا التمس لنفسى تسلية فى حياتى الخاصة ؟ » .

والواقع أنه لم يستطع أن يكتم تبرمه بزوجته وحنقه منها حين حملت ووضعت هذا المولود الأخير ، وما برم بها وحنق منها الا لانها كانت تحمل فى سرعة ويسر ، وان كان يعرف ان هذه طبيعة تحمد للمراة ولا توجب لومها ، وكان يوجد أساس لشكواه لو أنها كانت عاقرا ، لا ولودا تنجب له أبناء كل عام .

لكنه لم يكن يستمع لصوت الحكمة والعدل فى هذه الأيام . فقد كان فتى فى بعض اطواره ، وكان اصغر من زوجته بعامين كما هى العادة فى تلك الجهات حيث يستحب أن يكون الرجل أصــغر من زوجته سنا ، وكان فؤاده ينبض فى صدره بالحيــاة الدافقة والعاطفة الفائرة ، ولم يكن يعنيه فى شىء أن يكون أبا لأطفال بل كان يعنيه

اللهو والمرح والمشاهد الطريفة والمسرات التى يستطيع أن يلتمسها فى اية مدينة بعيدة .

والواقع أن تركيبه الجسدى كان يهيئه لهذا اللهو . فقد كان متناسق الجسم ، قوى البنية خفيف الحركات ، رشيق الايماءات . وكان صبوح الوجه بارق العينين بشوش المحيا . وهو يتقن الفناء ويجيد القاء العبارات التى تبدو بسيطة فى ظاهرها ، ولكنها مليئة بالدلالات الخفية التى يحبها أهل المدن . وكان بوسعه أن يضحك الناس بأغانيه ونكاته ، وكان القوم من أفراد الجنسين يحبونه ويستطيبون مجلسه ، وكان اذا سمعهم يضحكون رقص فؤاده طربا لقدرته وبراعته فاذا عاد الى بيته ورأى وجه زوجته الرزين الساكن وقوامها المتين خيل اليه أنها وحدها لا تعرف قدره فى الرجال ، اذ كانت لا تتوجه اليه بأى مدح أو ثناء . ومن المقرر انه لم يكن يمزح فى بيته وقلما كان يداعب أطفاله ، بل يؤثر الاجانب بدعاباته ونكاته .

وكانت المرأة تعرف فيه هذه الصفات ، فتغضبها هذه المعرفة حينا وتثير ألمها حينا آخر . اذ كانت رغم حبها له لا تظفر منه بهذا المرح الذى يختص به قوما غيرها .

ثم حدث بعد مولد الطفل الرابع فى مطلع فصل الصيف ان نشب بينهما شجار حاد ، بل لعله أسوأ واحد ما شجر بين زوجين .

حدث هذا فى الشهر السادس من العام . فى يوم صفت سماؤه واعتل نسيمه وغردت أطياره وتمايلت خمائله وافنانه وفاح شذاه عطرا يسكر النفوس ويبعث الأحلام العذبة والأخيلة الجميلة فى الرءوس .

فى هذا اليوم اشتدت حرارة الطقس فلم يستطع الرجل أن يذهب للعمل فى الحقل . بل لم يستطع أن ينام لفرط ما كان اليوم ينبض بالحياة والمرح .

وحوالى ظهر هذا اليوم المشرق مر بالقرية رجل يبيع اقمشة صيفية مختلفة الألوان والرسوم ، يحملها على كتفه ــ وكان ينادى فى طريقه عليها .

ولما جاء البائع الى هذا البيت حيث جلس الرجل والمرأة والعجوز والأطفال الصغار فى ظل شجرة الصفصاف يتناولون غداءهم ونادى :

ــ « هل اقف يا سيدتى وأريك اقمشتى ؟ » . .

لكن الام أجابته قائلة :

ــ لا نقود عندنا ، الا اذا كان عندك فضلة من قماش عادى رخيص

لهذا المولود الجديد . نحن فلاحون فقراء لا نملك شراء أقمشة جديدة الا ما كان ضروريا لستر أجسادنا .

ولم يكن بد من أن تضيف العجوز شيئا من عندها كشأنها أبدا فقالت في صوتها الراعش :

ـ نعم . ان زوجة ابنى قالت الحقيقة . والأقمشة في هذه الأيام أصبحت ضعيفة تبلى بعد غسلها مرة أو مرتين . وأذكر انى فى شبابى لبست جلبـــــاب جدتى ، وقـــد عاش حتى تزوجت وكان فى حالة صالحة ، ولم أغيره الا عملا بالمظاهر .

وما كاد البائع يسمع هذا الكلام حتى آنس فرجا ودنا من أهل الدار . وكان رجلا شديد اللباقة واسع الحيلة كأهل مهنته . فأجاب الأم والعجوز بكلمات طيبة . واستطرد :

ـ يا أمى . عندى قماش جيد كالأقمشة القديمة التى تتكلمين عنها ، وهو يصلح أيضا لحفيدك . وهـــذه يا (ست) فضلة بقيت من ثوب كبير اشترته منى سيدة غنية فى احدى القرى الكبيرة التى مررت بها . وقد ابتاعتها لولدها الوحيد . وقد أخذت منها ثمنا مناسبا لأنها كانت قطعة كاملة سليمة . ولكن ما دامت هذه الفضلة قد بقيت معى فانى امنحها لك أيتها الزوجة الطيبة اكراما لهذا الطفل الجميل الذى تحملينه فوق صدرك .

فاه الرجل بهذه الجملة فى نعومة وفى نفس واحد . ثم اخرج من بضاعته فضـــــلة جميلة خضراء اللون منقوشة بورود حمراء كبيرة .

وما كادت العجوز تراها حتى هتفت سرورا اذ استطاعت تمييز لونها فى يسر وفى غير عناء . كما أعجبت بها الأم . ثم القيت نظرة على الطفل الرضيع فوق صدرها وكان عاريا لا يكاد يستره سوى خرقة بالية حول وسطه . وكان حقا طفلا بضا جميلا ، بل كان أجمل أطفالها الثلاثة ، وهو اقربهم شبها بأبيه ، ولو أنه ليس هذا القماش المنقوش بالورد لبدا أكثر جمالا ..

دارت هذه الخواطر برأس الأم ، واحست بقلبها يلين ويستسلم ، وقالت مكرهة :

ـ ما هو ثمنها اذن ؟ .. لكنى مع ذلك لا أقدر على شرائهـــا لأننا لا نكاد نملك ما يكفى لاطعام هؤلاء الأطفال وهذه العجوز ودفع أقساط المالك . لا يمكننا شراء أقمشة طيبة كالتى تشتريها النساء الغنيات لأطفالهن الوحيدين .

بدت على العجوز دلائل الكآبة حينما سمعت هذا الكلام . وتسللت البنت من مكانها ودنت من البائع لالقاء نظرة على القطعة ، وجعلت تحدق فيها بنظرات الكليل عن كثب . واستمر الولد يأكل دون أن يحفل بشيء . أما الرجل فجلس في مكانه متكاسلا يغنى قليلا ولا يعنيه شيء من هذا الذى يدور لا لشيء الا لشراء قماش لوليد صغير .

ثم ادنى الرجل قطعة القماش من الطفل وقال يستحث المرأة بصوت خافت :

ــ قماش متين ! . بضاعة طيبة ! . لون جميل ! . ان يدى امسكت قماشا كثيرا . لكنى لم أحمل افضل من هذه القطعة . لو كان لي ولد لاحتفظت بها له . لكن زوجتى امرأة مسكينة عاقر . ولا يمكن أن افسد مثل هذه الفضلة باعطائها لها .

ما كادت العجوز تسمع قصة الزوجة العاقر حتى وجدت فيها مادة طيبة للكلام ، فهتفت ؟ .

ــ مسكين . وانت رجل طيب . ولكن لم لا تتزوج مرة ثانية وتجرب حظك من جديد ؟ .

لم تسمع الأم هذه الكلمات .. وجلست فى مكانها مترددة مفكرة وزاد قلبها ضعفا واستسلاما .. والقت نظرة ثانية على الطفل فاذا هو قد زاد جمالا حينما طرح البائع قطعة القماش فوق جلده الذهبى ووجنتيه الموردتين . واستسلمت آخر الأمر قائلة :

ــ ما هو أقل ثمن تطلبه اذن ، لأنى لا اقدر على دفع ثمن كبير .

حدد البائع ثمنا . ولم يكن كبيرا كما خافت ، فرقص قلبها فرحا . لكنها هزت رأسها وعرضت عليه نصف هذا الثمن كما كانت تقاليد المساومة فى هذه الجهات . ولكن هذا الثمن كان ضئيلا فلم يسع البائع الا ان يسترد القطعة ويعيدها الى بضاعته واستدار فى مكانه متظاهرا بالانصراف . ثم تذكرت الأم طفلها الجميل وعرضت عليه ثمنا وسطا وظلت المساومة سجالا بين البائع والشارية حتى القى الأول بضاعته ثانية واخرج منها الفضلة السالفة الذكر بعد أن قبل ثمنا ادنى قليلا مما حدده .. فنهضت الأم لاحضار النقود من الكوة الكائنة بالجدار .

حدث هذا كله والأب جالس فى مكانه متكاسلا يغنى تارة ويشرب الماء المغلى الذى اعتاد شربه بعد الأكل تارة اخرى ، دون أن يساهم بشيء فى هذه الصفقة .

لكن البائع كان رجلا بارعا قديرا على انتهاز الفرص . فبسط قطعة من الكتان الأزرق متظاهرا بعدم الاكتراث واختلس نظرة الى الرجل حتى يرى ان كان ملتفتا اليه ، وقال له ضاحكا :

ـ هل اشتريت جلبابا لنفسك هذا الصيف ؟ . اذا لم تكن فعندي جلباب لك . وأحلف أنه أرخص مما تشتريه فى أى حانوت فى المدينة .

لكن الرجل هز رأسه وظللت وجهه سحابة قاتمة وقال بمرارة :

ـ ليس عندى نقود فى هذا البيت اشترى بها شيئا . وليس لى الا أن أشتغل دون أن انال شيئا . وكل ما اربحه يذهب فى القوت .

كان البائع قد طاف كثيرا وتوفرت له خبرة بأحوال الرجال . ورأى بنظرة واحدة أن هذا الرجل يميل الى اللهو والسرور ، وانه مضطر أن يحيا حياة لا يميل اليها ، فقال له متظاهرا بالشفقة والرثاء :

ـ فى وسعي أن أرى انك رجل تعيش عيشة قاسية . لكن اذا اشتريت جلبابا جديدا فستراه كالدواء الشافى يدخل السرور على قلبك ، وليس كالرداء الصيفى يجلب السرور الى نفس الانسان . واذا جلوت هذا الخاتم وصففت شعرك بالزيت ولبست هذا الرداء فلن اجد فى المدن رجلا أجمل منك منظرا .

طرب الرجل حينما سمع هذا الكلام . وضحك عاليا فى شيء من الحياء . ثم تذكر نفسه وقال :

ـ ولم لا أشترى لنفسي رداء جديدا مرة فى حياتى ؟ لا يوجد أمامى الا الأطفال يولدون واحدا بعد الآخر . وهل كتب على أن البس الخرق البالية الى الأبد ؟ .

ومال الى الأمام بسرعة وجعل يتحسس القماش بأصابعه . وكانت العجوز قد سمعت كلامه وتحمست لرأيه . فهتفت :

ـ هذا قماش جميل يا ولدى . واذا كان لابد من رداء فليس اجمل من هذا الرداء الأزرق الذى هو اجمل ما رأيته فى حياتى . وأذكر أن اباك اشترى رداء مثله . وهل .

لكن الرجل قال فجأة بخشونة :

ـ كم ثمن الرداء من هذا القماش ؟ . .

وما كاد البائع ينطق بالثمن حتى عادت الأم ومعها النقود ، فهتفت فى جزع :

ـ لا يمكن ان ننفق أكثر من هذا ! .

فلما سمع الرجل صيحتها تصلب قلبه وقال باصرار :

ـ لكنى سآخذ رداء من هذه القطعة وأنا أفضلها ولابد ان أنالها

في الحال . ويوجد عندنا تلك القطع الفضية الثلاث التى اعرف اننا نملكها .

كانت هذه القطع ذات قيمة مالية طيبة وقد جاءت بها الام حين زواجها هدية من أمها . وهي لذلك كانت تقدرها وتعتز بها ولم تشأ يوما أن تفرط فيها . بل انها حين ابتاعت نعش العجوز وقد كان الظن انها توشك أن تموت اقترضت من هنا ومن هناك ولم تنفق شيئا من هذه القطع ، فقد كانت تعدها ثروة مدخرة لأيام الشدائد كالحروب والكوارث التى تنزع منهما ارضهما . وكانت مطمئنة الى انهم يستطيعون اذا نزلت بهم هذه الملمات أن يتقوا شر الجوع حينا من الزمن بفضل هذه القطع الفضية الثلاث . ولذلك لم تتمالك ان هتفت :

ـ لا يمكن ان ننفق هذه الفضة .

لكن الرجل وثب من مكانه بسرعة الصقر ومرق بجانبها فى عنف وذهب الى كوة الجدار وفتش عن الفضة حتى وجدها .. بيد أن الأم لحقت به واستوقفته وتشبثت به . لكنها لم تكن فى مثل خفته ونشاطه فقد دفعها جانبا فسقطت على الأرض وهى تحمل الطفل بين ذراعيها . وركض صائحا :

ـ اقطع اثنتى عشرة قدما من هذا القماش ولا تنس القدم الزائدة كالعادة ! .

أسرع البائع بتلبية هذه الرغبة وتناول النقود فى عجلة رغم انها كانت أقل مما طلب ، لكنه كان متلهفا للابتعاد وبيع القماش فى وقت واحد . ولما جاءت الأم كان البائع قد مضى فى طريقه ووقف الرجل فى ظل الشجرة حاملا الثوب الأزرق الزاهى الجديد بين يديه ، وقد ذهبت نقودها الفضية .

وجلست العجوز خائفة مشفقة ، ولما رات الأم تدنو سارعت بالكلام قائلة فى صوتها المتهدج :

ـ هذا جلباب جميل يا ولدى . وهو ليس غاليا . ولم تشتر رداء صيفيا منذ زمن طويل .

لكن الرجل رمى زوجته بنظرة صارمة وقد احتقن وجهه ، وصاح هادرا وقد جعل منه الغضب رجلا مستأسدا :

ـ هل تصنعينه اذن ، او أذهب به الى امراة أخرى وادفع لها اجرا واقول لها ان زوجتى رفضت صنعه ؟ .

لكن الأم لم تنبس بكلمة . بل جلست فوق مقعدها الصغير صامتة

شاحبة اللون مرضوضة بتأثير سـقطتها ، وكان الطفل يصرخ بين يديها مذعورا خائفا . فلم تهتم به وأجلسته على الأرض وتركته فى صراخه وعقدت شعرها المهدل . واخـذت تلهث قليلا وازدردت ريقها . ثم قالت اخيرا دون ان تنظر الى الرجل :

ـ هاته ! . سأصنعه ! .

فقد خجلت أن تصنع الثوب امرأة أخرى وتقف على تفصيلات المشاجرة اكثر مما عرفت سائر النسوة التى كن يرقبن من بيوتهن ما يجرى بعد أن سمعن صيحات الزوجين .

لكن الأم أسرت فى نفسها هذا الموقف لزوجها . ومع أنها أخذت تصنع الثوب ببراعة لأنها كانت بارعة فى ذلك ولأن القماش كان من نوع طيب ، فانها لم تجد أقل لذة فى هذا العمل ، ولزمت الصمت والصلابة ازاء الرجل طول الفترة التى استغرقها صنعه .

ونقم الرجل منها هذا المسلك وضاق بها ، فكف عن الغناء ، وكان اذا تناول طعامه يسرع الى الخان حيث يجلس مع الرجال ويشرب الشاى ويقامر الى وقت متاخر فى الليل ، وذلك لكى يستيقظ متأخرا فى اليوم التالى .

وكان اذا فعل ذلك فى الأيام العادية انحت عليه باللوم حتى يلعن ايثارا للسلم . أما الآن فقد كانت تتركه ينام وتذهب وحدها الى الحقل وقد امعنت فى صمتها وجفائها مهما بدا لها منه وان كانت تحس فى نفسها وحشة والمـا كلما قست عليه وجفته .

ولـما تم صنع الرداء أخيرا بعد أن استغرق وقتا طويلا لانهماكها فى زراعة الأرز لم تقل له رأيها فيه حينما لبسه . أما هو فقد جلا الخاتم بمسحوق الأحجار وصفف شـعره بزيت صبه من زجاجة المطبخ ، وخرج الى الشارع يسير متهاديا .

وقد جعل الناس يهتفون معجبين بزيه الجديد ممتدحين حسن هندامه ولكنه لم يطرب ولم يطب نفسا كما كان يجب .

أما هى فلم تقل له كلمة واحدة . ولما وقف متمسكا عنـد الباب قليلا استأنفت كنس الأرض حول البيت دون أن ترفع رأسها أو تسأله هل تناسب الرداء مع قوامه وهيكله ، كما كان شأنها حتى حين كانت تصنع له حذاء جديدا ولم يتمـالك آخر الأمر ان قال فى حياء :

ـ يبدو لى انك صنعت هذا الرداء أفضل من أى رداء غيره ، وهو يناسبنى كأنه رداء أحد أهل المدن .

لكنها مع ذلك لم تتطلع اليه بل وضعت المكنسة القصيرة في أحد الأركان وجاءت بقدر من الصوف المنقوش وجعلت تفزله خيوطا بعد ان استنفدت ما كان عندها من الخيط في صنع الثوب الأزرق .
واخيرا قالت بمرارة :
ـ بل يجب ان يبدو كرداء الامبراطور، بعد أن كلفني هذا الثمن .
على انها مع ذلك لم تنظر اليه . بل لم تنظر اليه حتى حين سار في الشارع . ولم تختلس نظرة واحدة خلفه بعد أن ادار لها ظهره وذهب .
فقد احست في نفسها بمرارة اليمة منه ، وان كانت تعترف بأن الرداء كان متسقا فوق جسده .

الفصل الخامس

جعلت الأم طوال هذا اليوم تترقب عودة الرجل الى البيت . وكان يوما يستطيع الانسان فيه ان يترك في الحقول رءوس النبت الصغير الغض تتمايل في الهواء اليسير تحت أشعة الشمس الدافئة. ولم يكن بالزراع من حاجة للذهاب الى الحقول في يوم كهذا .
وهكذا جلست الأم في ظل شجرة الصفصاف تغزل خيط الصوف، وجاءت العجوز فجلست قربها وقد لذ لها أن تجد من يستمع لها . وفيما كانت تسترسل في الحديث فكت ثوبها وبسطت ذراعيها النحيلتين المغضنتين تحت أشعة الشمس وجعلت تستشعر حرارتها الطيبة في عظامها . وجعل الطفلان يتراكضان عاريين في أشعة الشمس كذلك . لكن الأم لزمت الصمت وأغرقت في صمتها . وجعلت تغزل خيوط الصوف بيد مدربة قديرة . وكلما غزلت منه قدرا لفته حول عود من الخيزران اعدته لهذا الفرض . وكانت الخيوط قوية متينة .
ولما توسطت الشمس كبد السماء تركت الغزل ونهضت قائلة بلهجة جافة :
ـ سيعود الى البيت بعد قليل وقد اشتد جوعه رغم ثوبه الأزرق .
وقالت العجوز وهي تضحك ضحكتها الضعيفة :
ـ نعم . ان الذى فوق بطن الرجل يختلف عن الذى في داخله .
قامت الأم اذن وملأت كيلا من الأرز من سلة تخزنه فيها ، وسوت

سطح الارز بيدها الثانية حتى لا يسقط منه شيء ، وافرغت الأرز فى سلة أخرى مصنوعة من الخيزران الدقيق المشقوق ، ثم قصدت الى حافة الترعة وصوبت نظرها فى الشارع وهى فى طريقها . لكنها لم تلمح اثرا لثوب أزرق جديد .

انحدرت الام محاذرة فوق شاطىء الترعة واخذت تغسل الأرز . فدست السلة فى المـــاء وجعلت تفرك حبات الأرز بيدها السمراء القوية ، وكررت هــذه العملية مرات حتى بدا الأرز ناصع البياض كاللؤلؤ .

وفى طريقها الى الدار انحنت وانتزعت رأسا من الكرنب النامى ، وألقت بعض الحشائش الى الجاموسة المقيدة الى احد الاشجار ، ثم عادت الى البيت .

ثم جاء الولد من الشـــارع يقـود أخته من يدها ، فسألته الام بهـدوء :

ـ هل رايت اباك فى الشارع ، أو فى الخان ، أو عند بيت من البيوت ؟ .

فأجاب الولد :

ـ انه جلس قليلا في الصباح يشرب الشاى فى الخـان . وأنا رايت ثوبه جديدا وازرق ولامعا . ولما رآه عمى وعرف ثمنه قال انه كلف أبى كثيرا .

فقالت الأم وقد اكتسب صوتها فجأة رنة الصلابة :

ـ نعم ! وأيم الحق قد كلفه كثيرا ! .

وقالت الابنة تردد كلام اخيها :

ـ تماما . كان ثوبه ازرق . وأنا ايضا رايت انه كان ازرق .

لكن الام لم تزد شيئا عما قالت . فقد كان الطفل الوليد نائمـا فى سلة مضفورة واستيقظ واخـــذ يبكى . فانحنت الأم وفتحت ردائها وحملته الى صدرها وجعلت ترضعه بينما ذهبت لطهى الطعام . لكنها قالت أولا للعجوز :

ـ اقعدى مكانك يا امى وراقبى الشـــــارع . واذا رايت لون ردائه الأزرق نبهينى حتى أضع له الأكل فوق الخوان .

فقالت العجوز راضية مسرورة :

ـ حسنا يا ابنتى .

لكن الارز تم نضجه ولم يأت الرجل بعد . ثم نضجت الـكرنبة وصبت الأم فوقها بعض الصلصة كما يحب الرجل . لـكنه مع ذلك

لم يرجع الى البيت .

انتظر الجميع قليلا ودب الجوع فى احشاء العجوز ونفذت رائحة الطعام الى خياشيمها فكاد يغمى عليها ، وهتفت غاضبة لفرط جوعها .

ـ لا تنتظرى هذا الابن أكثر من ذلك . ان اللعاب يسيل من فمى وبطني خاوية كالطبل ، وهو لم يأت بعد .

وهكذا قدمت الأم العجوز صفحتها واطعمت الطفلين كذلك وقدمت لهم جميعا جانبا من الكرنبة لكنها استبقت قلبها للرجل . ثم اكلت بدورها ، وان لم تصب من الطعام سوى قدر يسير اذ احست بازورار هذا اليوم . هكذا بقى للرجل نصيب وافر من الأرز ، وشطر كبير من الكرنبة . ثم أرضعت الطفل فنهل حتى ارتوى ونام فى أشعة الشمس الحامية قوى البنية ممتلىء الجسم موفور الصحة مورد الوجه . وتمدد الولد والابنة فى ظل شجرة الصفصاف واستسلما للنوم وأغفت العجوز فوق مقعدها . وخيم فوق المزرعة الصغيرة سكون القيلولة وهداة الظهيرة . بل حتى الدواب جمدت فى مرابطها مدلاة الرءوس خدرا .

لكن الأم وحدها لم تنم . فقد تناولت مغزلها وجلست فى ظل شجرة الصفصاف واستأنفت الغزل ولف الخيط . لكنها لم تستطع ان تواصل الغزل بعد قليل . فقد كانت تفعل هذا فى ضحوة النهار فى يسر وسهولة لكنها لم تستطع الآن ان تلزم السكون . فقد خيل اليها ان قلقا غريبا يستقر فى نفسها . وهى لم تعهد من الرجل قط ابطاء فى العودة لتناول طعامه . وغمغمت قائلة لابد انه ذهب الى البلدة للمقامرة أو لأى شىء آخر .

لم تكن قد فكرت فى هذا الشأن من قبل . لكنها كلما فكرت فيه الآن خيل اليها انها تزيد اقتناعا . ثم خرج العم من داره ذاهبا الى الحقل . وبعد قليل أفاقت زوجته من نومها حيث تمددت قرب احدى الأشجار وسألتها :

ـ هل ذهب زوجك الى مكان ما ؟ .

فأجابت الأم ببساطة :

ـ نعم . ذهب الى البلدة لبعض شأنه .

وقال العم وهو يفتش بين فئوسه ومجارفه :

ـ نعم . وأنا رأيته مسرورا بثوبه الأزرق الجديد ذاهبا الى البلدة .

سري عن الأم قليلا بعد هذا الحديث . وانشأت تفزل اوفر نشاطا وأكثر انبعاثا . فقد رآه العم يمضي الى البلدة . ولا ريب انه ذهب يلتمس بعض اللهو والمرح انتقاما لنفسه منها . وهذا ما يمكن أن يفعله بعد أن لبس الرداء الجديد الأزرق وجلا الخاتم النحـــاسي وصفف شعره بالزيت . وقد حاولت ان تغضب قليلا ازاء هـــذا الخاطر . لكن غضبها كان قد خمد . ولم يكن بوسعها أن تحييه من جديد ، فقد شابها قلق غريب رغم كلمات العم .

واخذ النهار ينصرم متثاقلا مشحونا بالحـــرارة . واستيقظت العجوز وهي تهتف شاكية من جفاف حلقها ، فنهضت الأم وجاءتها بقليل من الشاى واستيقظ الطفلان وأخذا يتمرغان في التراب قليلا ثم نهض اخيرا وانشأ يلعبان . واستيقظ الطفل وتمدد ، طروبا في سلته سعيدا بنومه .

لكن الأم لم تذق طعم الراحة والسكون . ولو استطاعت لعالجت النوم . ولو كان يوما غير هذا لأخذتها سنة من النوم حتى وهى تفزل فقد كانت سليمة البنية موفورة الصحة وكان النوم يلم بها عميقا هنيئا دون أن تلتمسه . لكنها اليوم كانت تحس لذعا في قلبها جعلها دائمة اليقظة والاصفاء لـكل صوت .

ثم نهضت أخيرا متبرمة من طول الانتظـار متضجرة من اقفـار الشارع الذى بدا مقفرا في نظرها مذ كانت لا ترى فيه من تترقبه . فحملت الطفل ووضعته خلف ظهرها وتناولت الفـأس قاصدة الى الحقل ، وقالت العجوز :

ــ سأذهب لتنقية القمح عند التل الجنوبي .

وفيما هي تمضي في طريقها رات انه أيسر لها الا تبقى في الدار وان الساعات تمر سراعا اذا تشاغلت بعمل شاق مضن .

وهكذا أمضت ساعات العصر تشتغل في حقل القمح ، وحجبت وجهها بمنديل ازرق من القطن دفعا لحرارة الشمس . وجعلت ترفع وتهوى بفأسها بين سنابل القمح الخضراء اليانعة . ولم يكن هـــذا الحقل سوى منطقة صغيرة محدودة . اما الأرض فقد زرعت ارزا لأن الأرز طعام أقوم وأجلب للربح .

وكانت أشعة الشمس تنصب فوق سطح التل المكشوف وتغمرها . وسرعان ما ابتل رداؤها بالعرق . لكنها لم تشأ ان تستريح الا بعد أن بكى الطفل . فافترشت الأرض وأرضعته وجففت وجهها الملتهب وسرحت طرفها في أرجاء الحقول المشرقة ، فلم تر شيئا .

ولما شبع الطفل وضعته ثانية على الارض ونهضت واستانفت عملها وظلت تكدح حتى دب الألم الى جسدها وكلت قواها . واخيرا استقرت الشمس عند حافة الأفق . وخيم الظل فوق الوادى فجأة . واذ ذاك استقامت فى مكانها ومسحت وجهها بردائها وغمغمت بصوت عال :

ــ لابد انه الآن ينتظر فى البيت . ويجب أن أعود لاعداد طعامه .

وحملت الطفل وعادت به الى البيت .

لكن الرجل لم يعد .

لما وصلت الى الدار لم تجده . ورات العجوز تحدق فى قلق شطر الحقول . وجلس الطفلان فوق عتبة الباب ينتظران فى اعياء واستقبلاها بالصياح حينما وقع نظرهما عليها . فقالت فى حيرة :

ــ أبوكم . ألم يأت بعد ؟ .

فهتف الولد :

ــ كلا . وانا جوعان .

ورددت الابنة كلام أخيها فى صوتها المتقطع ، وجلست مطبقة الجفنين فى اشعة الشمس الغاربة . ونهضت العجوز وسارت متمايلة ونادت العم الى بيته قائلة :

ــ هل رايت ولدى فى اى مكان ؟

لكن الأم هتفت فجأة متبرمة :

ــ كفى يا أمى .

فقالت العجوز وهى تحدق فى اضطراب :

ــ حسنا . لكنه لم يعد .

لكن الأم لم تقل شيئا . بل قدمت للطفلين ارزا باردا . ودفأت بعض الماء وصبته فوق الأرز وقدمته للعجوز ، والقت للكلب ببعض الفضلات . وتركتهم جميعا يأكلون وخرجت الى الشارع حاملة طفلها فوق ذراعها وقصدت الى الخان .

لم تجد فى الخان سوى اشخاص قلائل . وصادفت فى الطريق رجلا أو اثنين عائدين الى القرية المجاورة فقد انتهى عمل النهار وآذنت الساعة بالاياب الى البيوت . وقد خطر لها أنه قد يكون جالسا الى خوان قريب من الشارع حتى يرى ويسمع ما يجرى ، أو جالسا الى خوان مع أحد الأشخاص لأنه لم يكن يتأخر فى العودة ما استطاع ، أو ربما كان مشتركا فى بعض اللعب الدائر .

ولكن لما وصلت الى الخان وادارت النظر لم تلمح اثرا لرداء

أزرق ولم تسمع صوت لعب دائر . فدخلت الخان ونظرت فيه ، بيد أنها لم تجده في الداخل . وانما وجدت صاحب الخان واقفـــا يستريح بعد انتهاء العشاء مستندا الى الحائط قرب الفرن . وكان وجهه أسود اللون بالدخان والشحم المتراكم أياما ، فقــد رأى من العبث في مثل هذه المهنة ان يغسل وجهه ، اذ يعود سيرته الأولى من السواد بعد قليل .

وقالت له الأم :

ــ هل رأيت أبا أولادى ؟ .

لــكن الرجل جعل يقضم أظفاره السوداء وقال متكاسلا :

ــ انه جلس هنا فترة فى الصباح بردائه الأزرق الجديد ، ثم ذهب الى جهة البلدة .

ولمــا آنس فى هذا الشأن مادة للحديث والتعليق هتف فجأة :

ــ هل حدث شيء ؟ .

فأجابت الأم مسرعة :

ــ لا شيء . لا شيء . انه انشغل فى البلدة وتأخر . ولا شك . ولربما بات الليلة فى الخارج وعاد الى البيت غدا .

فقال صاحب الخان وقد استفزه الفضول فجأة :

ــ وما الذى شغله ؟ .

فأجابته قائلة :

ــ وكيف أعرف ، ولست الا امرأة ؟ .

عادت الأم الى البيت . وفى طريقها اليه كانت تجيب سائليهـــا بطرف اللسان وتفكر فى شأن آخر . ولما وصلت الى الدار قصدت الى كوة الحائط وفتشت فيها . فاذا هى خاوية .

كانت تعلم أن فيها مبلغا لا بأس به من العملة النحاسية وقدرا يسيرا من النقود الفضية أيضا . فقد باع قش الأرز بثمن طيب منذ نحو يومين اذ هو بارع فى مثل هــذه الصفقات ، وعاد الى البيت بقسط كبير من هذه النقود . وهى قد أخذتها منه ووضعتها فى الكوة وكان يجب أن تبقى حيث كانت . لــكن لم يكن لها الآن أثر .

اذ ذاك أيقنت وهى فى ذهول انه ذهب حقــا . فجلست فوق الأرض الطينية وأمسكت الطفل بين ســـاعديها وجعلت تهتز الى الخلف والى الأمام فى صمت وتؤدة .

اذن فقد ذهب حقا ! .

وبقيت وحدها مع العجوز والأطفال الثلاثة .

وفجأة اخذ الطفل يتململ ويتبرم ، فأخرجت له ثديها دون ان تفكر فيما تفعل . وجاء الطفلان الى الداخل . وكانت البنت تبكي بحرب حافت وتفرك عينيها . وجاءت العجوز ايضا متكئة على عصاها وهي لا تفتأ تبدىء وتعيد :

— ترى أين ولدي ؟ . هل قال ابني الى اين ذهب يا ابنتي ؟ . عجيب اين ذهب ابني ؟ .

فما كادت الأم تسمع هذا الكلام حتى نهضت وقالت :

— سيعود غدا ولا شك يا امي . فارقدي الآن ونامي. سيعود غدا.

اصغت اليها العجوز ورددت قولها وقد سرى عنها :

— نعم . سيعود غدا ولا ريب .

ثم ذهبت الى فراشها تتحسس الطريق في الغرفة المظلمة .

اما الأم فقد ذهبت بالطفلين الى الفناء لكي تغسلهما كما كانت عادتها في ليالي الصيف قبل النوم . فصبت اناء من الماء فوق كل منهما . وجعلت تدلك جسديهما الأسمرين الأملسين براحة يدها . لكنها لم تلتفت الى ما قال كلاهما ، ولم تعبأ بأنين البنت وشكواها من عينيها .

ولما ذهبوا للنوم في الفراش دهش الولد لغياب ابيه ، وهتف :

— اذن أين سينام أبي ؟ .

وفي هذه اللحظة فقط أفاقت الأم من ذهولها ، وأجابت :

— سينام في البلدة بغير شك . ويرجع غدا أو بعد يومين .

ثم أردفت وقد انتابها الغضب فجأة :

— سيعود ولا ريب بعد أن تنفذ منه تلك النقود .

واستطردت في لهجة مريرة :

— وبعد أن يتسخ رداؤه الجديد ولا يبقى بد من غسله .

وداخلها السرور الى حد ما اذ رأت أنها استطاعت أن تغضب منه وتحنق عليه ، وتشبثت بهذا الغضب وهذا الحنق ، فقد بدا لها أنه أقرب اليها كذلك . واستمسكت بهذا الاحساس المبتسر وهي تؤوي الدواب وتوصد الباب .. وغمغمت :

— لا ريب اني سأكون سابحة في النوم حينما يعود في الليل ويطرق الباب .

لكن سرعان ما فارقها الغضب وانتابها الخوف في جنح الظلام وفي هداة الليل الحار وفي سكون الغرفة الموصدة .

ترى ماذا تفعل اذا لم يعد ، وهي امراة وحيدة شابة ؟ .

بدا لها الفراش في خوائه رحبا ممتدا . ولم تربها من حاجة

الى التضييق على نفســـــها . فقد كان يمكنها أن تبسط ذراعيها وساقيها كما شاءت .

وفجاة هبط عليها حنين حار وتلهف شديد الى رجلها . فقد تمددت بجانبه طوال هذه الأعوام الستة الأخيرة . ومهما غضبت منه في النهار فقد كانت تنسى قربه في الليـــل عبثه وصبيانياته . وتذكرت في هذه اللحظة جماله ووسامته ، فلم يكن خشن الفم كريه الأنفاس كأغلب الرجال ، بل كان شابا لطيف الصورة ، ناصع بياض الأسنان .

وهكذا تمددت في مكانها يهفو بهـــا الحنين اليه ، وتلاشى من صدرها كل أثر للغضب .

ولما طلع النهار نهضت متعبة مسهدة ، واستطاعت ان تعود الى الصلابة . ولما زايلت الفراش ولم يأت بعد وأخرجت الدواب وأطعمت الأطفال والعجوز ، تزايدت صلابتها وغمغمت بصوت مسموع :

ــ سيعود بعد أن تنفد منه النقود . عند ذلك فقط سيعود الى البيت .

ولما حدق الولد في الفراش الخاوى قال في دهشة وعجب :

ــ اين والدى ؟ .

فأجابته فجأة في صوت مرتفع :

ــ قلت انه غائب يوما او اثنين . وان سألك أحد في الشارع فقل انه غائب يوما أو اثنين .

ثم ذهب الطفلان للعب والعبث هنا وهناك ، لكنها في هذا اليوم لم تذهب الى الحقول . بل جلست فوق مقعدها الصغير مستقبلة شارع القرية الوحيد حتى ترى من يأتى من بعيد . وفيما كانت تجيب على لغو العجوز قالت لنفسـها ان الرداء الأزرق ذو لون واضـح تسهل رؤيته عن بعد ، وجعلت تغزل الصوف وهي تختلس النظر بين حين وآخر الى الشارع . وراحت تحصى في خيالها النقود التى أخذها وتقدر كم تكفيه من الأيام ، فبدا لها انها لن تدوم معه سوى ستة أو سبعة أيام ، الا اذا قامر بأصابعه الرشيقة وربح قدرا آخر من النقود ، فيستطيع أن يطيل الغياب . وخيل اليها أحيانا أنها لن تصطبر على سماع لغو العجوز وثرثرتها ، بيد انها وطنت نفسها على الاحتمال طمعا في رؤية الرجل عائدا الى البيت .

ولما عاد الطفلان وقت الظهر جائعين ورأى الولد صفحة الكرنب المهيأة لأبيه وطلب شطرا منها ، لم تجبه الأم الى ما طلب . ولمـا

الح فى الطلب لطمته بشدة ، وقالت بصوت مرتفع :
ــ لا . انها لأبيك . فهو حين يرجع فى الليل سيكون جائعــا ولا شك انه سيأكلها كلها .
وتعاقبت ساعات بعد الظهر الطويلة ولم يأت بعــد . وغربت الشمس كدابها ، متثاقلة تفيض بالأشعة الذهبية ، وتغمر الوادي فى ضوئها حينا من الزمن ، ثم جن الليل وانتشر الظلام ، واذ ذاك لم تستطع أن ترفض . فقدمت الصحفة للطفلين قائلة :
ــ كلوا كفايتكم . لئلا تفسد لو بقيت يوما آخر . ومن يدرى .
وقدمت الى العجوز قلب الكرنبة المغموس فى الصلصلة قائلة :
ــ كليها . وسأطهو له غيرها اذا عاد غدا .
فقالت العجوز :
ــ وهل سيعود غدا اذن ؟ .
فاجابت الأم فى كآبة :
ــ نعم : ربما عاد غدا .
وفى هذه الليلة تمددت فوق الفراش محـــزونة النفس شديدة الخوف والجـــزع . وكاشفت نفسها فى غير مواربة بارتيابها فى احتمال عودته حقا .
غير انها مع ذلك جعلت تعلل النفس بنفاد النقود منه بعد انصرام الأيام السبعة .

***

ثم تتابعت هذه الأيام يوما بعد يوم . وكان يبدو لها لفرط الانتظار كلما أقبل يوم جديد منها انه سيعود حقا .
ولم يكن من دابها أن تنطلق فى القرية تقتل الوقت باللغـــو مع نسـائها . لـكن نساء القرية جئن اليها واحــدة بعد الأخرى ورحن يسألنها :
ــ نحن جميعا بيت واحد فى هذه القرية وتجمع بيننا وبينه صلة نسب .
واخيرا دفعتها الكبرياء الى اختلاق قصة ، فقالت لهن بجراة :
ــ ان له صديقا فى مدينة بعيدة . وقد اخبره هذا الصـــديق بوجود مكان يعمل فيه ويربح أجرا طيبا فــلا نحتاج الى اجهـــاد أنفسنا بالعمل فى الحقـــول . واذا لم يناسبه هذا العمل فسيعود سريعا . اما اذا طابق هواه فلن يعود حتى يمنحه سيده عطلة .
فاهت الأم بهذه الكلمات فى هدوء وكأنها تقرر حقيقة ، حتى لقد

ذهلت العجوز وهتفت :
ـ ولم لم يخبرني بهذه القصة الطيبة ، وانا امه ؟ .
فانتحلت الأم قصة اخرى واجابت :
ـ طلب مني يا امي الا اخبرك بهـــا لأنه يعرف لسانك المحلول ويخاف أن يعرف أهل القرية اكثر مما يجب ، ولأنه يريد ان يعرفوا شيئا اذا لم يستطب هذا العمل .
فقالت العجوز وهي تنحني فوق عصاها وتحدق في زوجة ابنها وقد آلمها هذا القول :
ـ هل قال هذا حقا ؟ صحيح يابنتي انني كثيرة الكلام ، لـكن لساني غير محلول .
وجعلت الأم تكرر هذه القصة لـكل من يسألها . وكانت كلمـا اعادتها أضافت اليها ما يكسبها رنة الحقيقة التي لا يداخلها كذب ولا زور .
وكان بالقرية ارملة تعيش في بيت اخيها ، ولم يكن لهـــا عمل تؤديه سوى قضـــــاء اليوم في نقش أزهار فوق حذاء تصنعه لنفسها . وكانت تبدىء وتعيد في كل خاطر غريب يمر ببالها . وذات يوم طاف براسها خاطر فأسرعت ركضا الى الأم وقالت لها :
ـ لكن لم يصل الى هذه القرية منذ زمن اية رسالة ، ولم اسمع عن رسالة وردت من زوجك ! .
وذهبت الأرملة سرا الى رجل في القـــرية يتولى تحرير وقراءة الرسائل القليلة المتبادلة فيها ، فسألته :
ـ جاءت رسالة باسم (لي) الأول بن (لي) الثالث في الجيل الأخير؟.
فلما اجاب الرجل بالنفي هتفت الأرملة الثرثارة .
ـ لـكن زوجته قالت ان رسالة وردت منه منذ ايام قليلة ! .
واذ ذاك ثار الحسد في نفس الرجل خيفة أن تكون الأم ذهبت بالرسالة الى كاتب آخر من أهل القرى المجاورة ، فنفى هذه الحقيقة وشدد في النفي ، وقال لها :
ـ أعرف تماما انه لم ترد رسالة ما ، ولم يأت أحد لقراءة أو تحرير اية رسالة أو لشراء طابع لوضعه فوق رسالة . وانا وحدي اقتني مثل هذه الطوابع . ولم يجيء الى هنا رسول منذ عشرين يوما أو اكثر .
فلما سمعت الأرملة هذا الكلام توسمت في الأمر سرا غريبا وذهبت تهمس في كل مكان ان زوجة (لي) الأول كذبت وانه لم

تردها رسالة ما . وانزوجها قد هجرها بلا ريب وابتعد عنها . الم تنشب بين الزوجين معركة حامية بشأن الرداء الجديد وقد سمعهما أهل القرية يتبادلان السباب واللعنات ثم الم يقل الطفل أنه قد القاها على الأرض قبل ضربها ؟ .

على أن هذا الكلام حينما تسرب الى الأم قررت بلهجة التوكيد انها قالت الحقيقة وانها صنعت له الرداء الجديد خصيصا لمناسبة ذهابه الى المدينة البعيدة وان ما شجر بينهما من خلاف كان لشأن آخر . اما الرسالة فهي لم ترد وانما تلقت الأم هذه الأنباء على لسان بائع متنقل جاء من جهة الساحل .

وهكذا جعلت الأم تـكذب وتمعن فى الـكذب والاختلاق وتحبك اطراف كذبها حتى تسبغ عليه طابع الحقيقة . وصدقت العجوز . هذا الكلام وآمنت به وأنشأت تتحدث عما سيصيب ولدها من الغنى واحتفظت الأم بالهدوء والسكينة ولم تبك قط كغيرها من النساء حين يهجرهن أزواجهن ويجلبن عليهن العار والشماتة . واخيرا بدت القصـــة صـــحيحة فى أعين الجميع واضطرت الأرملة الثرثارة الى السكوت ، غير انها كانت تقول كلما خلت الى نفسها :

ــ سنرى على مر الأيام اذا جاءتها رسالة أو نقود ، أو اذا عاد اليها حقا .

وهكذا سكنت القصة وانصرف أهل القرية الى غيرها من الشئون ونسوا الأم وقصتها .

ثم استقبلت الأم حياتها فى ثبات ومثابرة . ومضت مدة طويلة بعد انقضاء الأيام السبعة ولم يأت الرجل بعد . وتفتح الأرز فى ابان ذلك وحل موسم الحصاد ولم يأت الرجل أيضا . فأنشأت الأم تحصده وحدها الا يوما أو يومين حين أقبل العم لمعـــاونتها بعد أن حصد أرزه وجمعه فى حزم كبيرة . وقد سرت الأم بهذه المعـــاونة وان توجست من الرجل خيفة كذلك . فقد كان رجلا صادقا قليل الكلام ، وكان يتحرى البساطة فى أسئلته ويصعب التمويه عليه . لكنه جعل يعمل صامتا ولم يفاتحها فى شيء ، ولم يقل الا ما قضت الضرورة بقوله حتى حل موعد انصرافه ، فقال لها :

ــ اذا لم يعد وقت اقتسام الحبوب مع المالك فانى سأساعدك . لأن الوكيل الجديد رجل ماكر ذكى ومن طراز يصعب على المرأة أن تعامله وحدها .

فشكرته الأم بهدوء وقد سرتها هذه المعاونة ، فانها لم تعرف هذا

الوكيل الا لماما ، اذ كان غريبا عن هذه الجهات فى السنوات الاخيرة وكان رجلا مخاتلا من أهل المدن .

وهكذا توالت الأيام وكانت الأم تنهض كل يوم قبيل الفجر فتترك الأطفال والعجوز نياما وتعد لهم طعام الافطـــار حتى يتناولوه حين يستيقظون . ثم تحمل الطفل الرضيع فوق ساعدها وتأخذ المنجل القصير المقوس بيدها الثانية لكى تستخدمه فى الحصد وتمضى الى الحقول .

وقد نما الطفل وأصبح يستطيع الجلوس وحده فكانت تقعده فوق الأرض وتتركه يلعب ويعبث ما شـــاء له اللعب والعبث . فيحفن التراب بيديه ويضعه فى فمه ويأكل منه ثم يبصقه منكرا مبغضا . ولا يلبث أن ينسى ويأكل منه ثانية حتى يتلطخ بالوحل والطين . لكن الأم لم تكن تستطيع ان تفعل نحوه شيئا مهما بدر منه . فقد كان يجب أن تؤدى عمل اثنين ، وقد اضطلعت بهذا الواجب ، واذا بكى الطفل فليبك ما شاء حتى تكل من فرط الجهد فتجلس للراحة وتقدم ثديها لفمه الملطخ بالوحل ينهل منه ويرتوى ، وكان يبلغ منها التعب والاعياء حدا لا تحفل معه بالبقع التى يتركها فوق ثديها .

وكانت الأم تحصد سنابل الأرز حفنة حفنة وهى تنحنى كل مرة ، ثم تجمعها فى حزم صغيرة . وكانت اذا حام حولهــــا المتسقطون لالتقاط ما يتساقط من الحبوب شأن المتسولين فى موسم الحصاد انبرت لهم متجهمة الوجه لفرط ما تعــانى من مرارة العمل الشاق المضنى وقد ارهقها العرق والغبار . وتروح تستمطر اللعنات عليهم وتصيح فيهم قائلة :

ـ هل تلتقطون الحب من امرأة وحيدة لا معين لها ؟ انا اتعس منكم أيها المتسولون ! أيها اللصوص الملعونون ! .

وكانت تستنزل اللعنات بمرارة عليهم وعلى أمهاتهم وعلى أبنائهم فيخلون لها الحقول أخيرا خوفا من عنف لعناتها .

ثم حملت حزم الأرز حزمة حزمة الى الجرن لدرسه . فقيدت الجاموسة الى الجرن الحجرى وجعلت تسوقها فى أبان أيام الخريف الحارة الساكنة وتسوغ نفسها معها أيضا . ولما تم درس الحب جمعت القش الفارغ وكومته واخذت تذرى الحب بمساعدة الهواء .

وقد اضطرت أخيرا الى حمل الغلام على العمل أيضا . فاذا تكاسل أو حن الى اللعب كانت تلطمه لفرط ما تعانى من الاعيـــاء والاجهاد واليأس .

لكنها لم تستطع ان تجمع القش فى الحزم الكبيرة المعهودة . فقد كان هذا من عمل الرجل الذى الف أن يتقنه ويبرع فيه اذ كان احب اليه من اعمال اخرى . ولذلك التمست من العم أن يعلمها كيف تقوم بهذا العمل مرة حتى يتسنى لها ان تقــوم به مع الغلام فى الاعوام القادمة اذا غاب الرجل اكثر من عام . فجاء العم وعلمها . فنهضت للعمل وجعلت تبسط الحشائش وتناولها له وهو معتل سطح الحزم الكبيرة ، فيكسو هذه الحزم بالحشائش ويسويها بالطين .

وهكذا انتهى حصاد الأرز .

غير أنها هزلت من فرط الجهد وذهب لحمها ، واسمرت بشرتها فيما عدا وجنتيها وشفتيها التى احتفظت بحمرتها . ولم يبق لهــا ســوى اللبن فى ثديهـــــــا غزيرا موفــورا . ومن النساء من يستحيل غذاؤها سمنة ولا يبقى منه لغــذاء الطفل . لــكن هــذه المراة خلقت للأطفال . وكانت أمومتها تسلب جسدها بلا رحمة كل غذاء تصيبه اذا كان لها طفل تربيه .

ثم جاء يوم اقتسام الحب واخراج نصيب مالك الأرض منه . وكان مالك هذه القرية والحقول المحيطة بها لا يأتى بنفسه لأخــذ نصيبه من المحصول . فقد كان يعيش عيشة الدعة والترف فى احدى المدن البعيدة بعد ان ورث هذه الأرض عن آبائه . وكان ينيب عنه وكيلا لأخذ هذا النصيب . وفى هذا العام جاء وكيل جديد اذ تركه وكيله القديم فى العام الماضى بعد أن جمع من المال فى العشرين عاما الماضية ما جعله يعتزل العمل .

فلما جاء هذا الوكيل الجــديد جعل يطوف بيوت الفلاحين بيتا بيتا . وانتظرت الأم حضوره عند باب بيتها بعد ان كومت الحب فى الجرن .

كان الوكيل من أهل المدن من قمة رأسه الى اخمص قدميه . وكان رجلا طويل القامة ناعم البشرة يرتدى جلبابا حريريا وحذاء من جلد وله يد كبيرة ملساء كان يرفعها الى شفته الحليقة ، واذا تحرك انبعثت منه رائحة عطرية .

وحين جاء الى الام تراجعت قليلا فسألها :

ــ اين الفلاح ؟ .

فلزمت الام الصمت وتركت العجوز تجيبه قائلة :

ــ ان ابنى يشتغل الآن فى المدينة . ونحن وحدنا فى الأرض .

وأوفدت الام غلامها الى العم وانتظرت صامتة . ثم تقدمت نحوه

وقدمت له الشاى دون أن تخاطبه بغير عبارات الترحيب المألوفة ، غير انها احست بنظراته الحادة التى جعل يصوبها الى وجهها والى قدميها العاريتين .

ووقفت الأم جانبا بينما جاء العم يكيل الحب ويخرج منه نصيب المالك ، وكانت مطمئنة الى نزاهة العم وأمانته فلم تربها من حاجة الى الاقتراب منه والتحقق من الـكيل . لكن شق عليها كما كان يشق على سائر الفلاحين أن تمنح المالك نصيبا من ثمار كدها . لـكنهم كانوا ينزلون عنه صاغرين . فحذت حذوهم . فقد كانت تعلم أن من لا يفعل يتعرض للأذى والعنت . وكان الوكيل نفسه ينال اجرا له دجاجة سمينة او كيلا من الأرز أو عددا من البيض او بعض النقود الذهبية .

وفوق هذا كله كان على القرية فى مجموعها بعد تمام الكيل أن تولم وليمة للوكيل يساهم فيها كل بيت بنصيب .

ورغم هذا العام الذى بقيت فيه الأم وحدها فقد ذبحت دجاجة لـكى تساهم بها فى الوليمة وانضجتها طويلا فوق نار رقيقة حتى استحال لحمها مريئا طريا . وكانت رائحة الدجاجة بعد انضاجها اكثر مما يستطيع الطفلان احتماله . فجعلا يحومان حول المطبخ ولم يتمالك الغلام ان هتف :

ــ يا ليتها كانت لنا .

لكن نفس الأم كانت تفيض مرارة لفرط أعيائها ، وقالت :

ــ ومن يستطيع أن يحصل على لحم كهذا الا الرجل الغنى ؟ .

غير أنها ذهبت الى المـائدة بعد انتهاء الوليمة التى اختلطت فيها الوان الطعام وتناولت عظمة بقيت من دجاجتها تخلفت بها قطعة من الجلد ومزقه من اللحم ، فأعطتها لكى يمتصها وقالت له :

ــ خذ هذه . وعندما تكبر تستطيع أن تجلس بجانب الرجال على المائدة وتنال نصيبك كاملا .

فقال الغلام بسذاجة :

ــ وهل يرضى أبى بجلوسى الى جوارهم على المائدة ؟ .

فأجابت الأم بمرارة :

ــ ثق انه سوف يرضى . وان لم يكن موجودا فستحل محله .

***

ثم انصرمت شهور العام وأوشك الخريف على نهايته . ولم يكد الطفلان يذكران أنه كان بالفراش غيرهما وغير امهما . بل ان العجوز

ما كانت تتكلم عن ابنهـــا الا لماما . فقد سرت برودة الطقس الى عظامها وأحيت آلامها . وكان لها ما يشغلها في التمـــاس الأماكن الدافئة البعيدة عن لفح الهـواء تحت أشعة الشمس .. وجعلت تشكو وتواصل الشكوى لأن الرياح كانت تتغير ولأن الشمس بدت لها وقد تناقصت حرارتها هذا العام عما كانت فى سابقه .

واخذت الغلام يشتغل الآن كل يوم ويؤدى نصيبه من العمل . واذا لم يكن له ما يعمله قاد الجاموسة الى الروابى وتركهـا ترعى الـكلأ القصير وهو ممتط ظهرها طوال النهار . أو يثبت عنهـــا ليجلس فوق أحد القبور حيث يتصيد الجداجد ويصنع لهـا اقفاصا صغيرة من سيقان الحشائش . فاذا عاد الى البيت علق على الاقفاص بالباب فتأخذ الجـــداجد فى الصفير ويطرب الطفل والبنت من صفيرها .

ولـكن سرعان ما حال لون الحشائش فوق التلال لقدوم الشتاء وحان الوقت لقطعها اذ يتخذ منهـا وقود الشتاء .. فذهب الغلام مع أمه التى كانت تقضى النهـــار فى قطع الحشائش الجـافة بمنجلها القصير ، فيضفرها الغلام ويصنع منها حزما صغيرة . وكان الناظر يرى على سفح الجبال أينما ولى بصره بقعا زرقاء اللون هى أناس مثل الأم وابنها راحوا يقطعون الحشائش ويجعلون منها حزما لوقود الشتاء . فاذا اقبل المساء وغربت الشمس وهب هواء الليل قارسا من قمم الروابى هبط الناس منحـدرين الى الممرات الضيقة يحمل كل منهم حزمتين كبيرتين مدلاتين من قضيب فوق الـكتف . وعلى هذا النحو كانت تفعل الأم ، كمـــا كان الغلام يحمل بدوره حزمتين صغيرتين .

واذا عاد الى البيت مضت الأم أول ما تمضى الى الطفل ترضعه ثدييها ، فينهل منهما ظامئا متلهفا اذ كان يطعم فى النهار دقيق الأرز معجونا .

وكانت العجوز فى مطلع هذه الأيام الباردة تدلف الى فراشها التماسا للدفء حالما تغرب الشمس . وكانت البنت تســعى الى الباب وهى تتحسس طريقها وتغمض عينيها قليلا حتى فى هذا الضوء الشاحب الأفل ، وتجلس فى مدخل البيت لـكى تستقبل اخاها طروبة اذ كانت تفتقده نهارا وهو يعمل فى الحقول .

ولى الخريف اذن . وحان وقت حرث الأرض لبذر القمح . ولقنت الأم غلامها كيف ينثر الحب بمساعدة الريح وكيف يتقن تجميعها

في بقعة دون اخرى . ثم أقبل الشتاء وقد بسقت سنابل القمح قليلا وتقلصت الحقول وانكمشت التربة بقدوم الشتاء والبرد . وفي هذا الوقت اخرجت الأم ملابس الشتاء من تحت الفـــراش حيث كانت تحفظها ، فبسطتها في الشمس حينا واخذت تعدها للبس . لكن عمل الحقول الشاق في ابان الصيف والخريف قد شقق يديها حتى كان القماش القطني الخشن يعلق بشقوقهما كما تصلبت أصابعهـــا ويبست .

غير انها لم تكل عن العمل . بل جلست في مدخل البيت في الشمس وجعلت تصلح اولا ثياب العجوز التي اشتدت عليها وطأة البرد . فأمرتها أن تبقى في الفراش يوما أو يومين وتنزع الكفن الأحمر الذي كانت تلبسه . ودست الحشو القطني الذي كانت نزعته في الصيف بين سطح الجلباب والبطانة . بينما جلست العجوز راضية قريرة العين وجعلت تثرثر مسرورة قائلة :

ــ هل ترين يا ابنتي أني سأفنى هذا الـكفن ؟ اني اعتقد هذا في الصيف أما في الشتاء فلا ، لأن طعامي لا يدفئني كما كان في المـــاضي .

فأجابتها الأم وهي غائبة الذهن :

ــ ستعيشين يا أمي . ولم أر معمرة مثلك تعيش بينمـــا ذهب غيرها .

فطربت العجوز من هذا الكلام وقالت وهي تضحك وتسعل :

ــ نعم . انا مخلوقة معمرة .

ولزمت مكانها راضية النفس في انتظار اعداد ردائها .

وتأهبت الأم لاصلاح ملابس الأطفال . فأصلحت للطفل الرضيع ملابس البنت ، ولهذه ملابس اخيها ، اذ كانوا لا ينالون في العام اكثر من ثلاثة أثواب .

وجعلت تتساءل بعد ذلك ماذا تلبس الغلام حتى يتقى شر البرد . فوجدت امامها سترة الرجل المرقعة والسراويل التي لبسها ثلاثة أعوام كاملة حتى تمزقت واصلحتها اكثر من مرة . ولكنها لم تقو على أن تجعل منها كسوة للغلام . واخذت تديرها بين يديها في ألم ، وغمغمت أخيرا :

ــ وماذا يكون اذا جاء ؟ لن أفعل هذا الآن .

لـكن الغلام لم يظفر بكسوة الشتاء وكان يرتعد من البرد في الصباح وفي المساء . فحـــزمت أمرها اخيرا وجعلت منها ملابس

للغلام واخذت تهون على نفسها قائلة :
ـ اذا عاد يمكننا أن نبيع بعض الأرز ونشترى ملابس جديدة .
واذا جاء فى أول العام الجـــديد كان من حظه ان يرتدى ملابس جديدة .
وهكذا مضى فصل الشتاء وبدا للأم ان الاب راجع حتما فى مستهل العام الجديد ، ففى هذه المناسبة يعود كل انسان الى بيته اذا كان على قيد الحياة ولم يكن من الهائمين المتسولين . وكانت اذا سئلت فى هذا الشأن تقول لسائليها :
ـ سيعود لمناسبة وليمة السنة الجديدة .
وجعلت العجوز تردد هذا القول عشرات المرات . وكان الأطفال بدورهم يرتقبون هذا الوعد ويتطلعون .
وكانت الأرملة الثرثارة تبتسم ابتسامتها المليئة بالخبث والشماتة وتقول للأم :
ـ عجيب انه لم ترد رسالة من زوجك . وانا اعلم انه لم ترد رسالة .
فكانت الأم تجيب فى اتم مظاهر الهدوء :
ـ لكنى عرفت أخباره مرارا على لسان رجل مسافر . ولم نالف عادة التراسل وانفاق المال فى هذا السبيل . وان الكتاب ينسون تدوين أمور كثيرة . وأن ما يكتبونه ويقرونه يذيع بين الناس وتلوكه كافة الألسن . ولذلك فانا مسرورة لأنه لا يبعث الى برسائل .
بهذه الكلمات أسكتت الأم الأرملة الحاسدة . وبلغ من تــكرار توكيدها لعودته فى مطلع العام الجديد ان بدا لها أنه لأبد عائد حقا .
وحان الوقت وانهمك اهل القرية جميعا فى اعداد معدات وليمة العيد ولم يكن بد من أن تنهمك الأم كذلك فى صنع احذية جديدة للأطفال وغسل ملابسهم القديمة وصنع قلنسوة للطفل الرضيع .
بل لم يكن بد من أن تنهمك فى الاستعداد لاستقبال الرجل أيضا .
فملأت سلتين كبيرتين أرزا كانت أدخرته وحملتهمــــا الى البلدة وباعتهما بثمن ان كان أقل مما ألف الرجل أن يبيع به ، فقد كان فى ذاته طيبا لأنها امراة تقوم وحدها بمساومة الرجال . وابتاعت بجانب من النقود شمعتين حمراوين وبخــــورا لحرقه أمام الاله وكتابات حمراء تجلب الحظ لــكى تلصقها فوق المحراث وســـائر أدوات الزراعة التى كانت تستخدمها . كمــــا ابتاعت قليلا من الشحم والسكر لصنع فطائر العيد . وقصدت الى أحد الحوانيت

فابتاعت بما تبقى معها عشرين قدما من قماش قطنى ازرق ، والى حانوت ثان واشترت خمسة أرطال من حشو مقوى مصنوع من القطن المخلوط بالصوف .

أجل .. كانت موقنة تمام اليقين من عودته حتى لقد أعملت المقص فى القماش وأخذت تفصله بعناية وصبر وصنعت له أزرارا من فضلات القماش ضمتها بعضها الى بعض وخاطتها كثيرا . ولما تم لهــا ذلك تركت الملابس فى انتظار مجىء الرجل . وخيل للجميع أن هذه الملابس جعلت قدومه أمرا محققا .

لكن بزغ فجر العيد ولم يأت الرجل بعد . وجلس الجميع طوال النهار فى ملابسهم الجديدة . فأما الطفلان فلهما مظهر نظيف وقد أشفقا أن تتلوث ثيابهما . وأما العجوز فكانت حذرة يقظة حتى لا تريق الطعام فى حجرها . واعتصمت الأم بالجلد والثبات وجعلت تبتسم طوال النهار وتقول لهم :

ــ لم يزل الوقت نهارا بعد ، وقد يأتى فى أى وقت .

وجاء الى الدار خلان زوجها لكى يحيوه تحية العيد اذا كان قد عاد الى بيته . فقدمت لهم الشاى وبعض الفطائر الصغيرة ، وقالت لهم حينما استفسروها عن الرجل :

ــ قد يأتى اليوم حقا . لكن يحتمل الا يأذن له سيده بالعودة هذه المسافة الطويلة ، وقد سمعت أن سيده يحبــه كثيرا ويعتمد عليــه .

ولما زارتها النسـاء فى اليوم التالى كررت لهن هذا الكلام وكانت تبتسم وتبدو مطمئنة النفس مستريحة الخاطر ، وقالت لهن :

ــ ما دام لم يأت ، فلابد أن يرد منه نبأ قريبا .

وحولت دفة الحديث الى نواح أخرى .

وهكذا كانت الأيام تمضى والأم تتـكلم فى يسر وفى غير تكلف فتصدقها العجوز ويصدقها الطفلان ويؤمنون بما تقول .

لكنها كانت اذا ادلهم الليل تبكى فى سكون ومرارة .

كانت تبكى لأنه ذهب وهجرها لأنها أصبحت تستهدف للعــار والفضيحة . ولأنها امرأة وحيدة فقد بدت لها الحياة شديدة القسوة وهى تعول أربع أنفس يعتمدون عليها .

وذات يوم وهى تفكر فى بكائها خطر لهــا انها تستطيع أن توفر على نفسها كل هذا العار . أجل .. فحين فكرت فى النقود التى انفقتها لشراء ملابس جديدة دون أن يعود ، وفى الفطائر التى صنعتها وفى

البخور الذى أحرقته فى صلاتها وابتهالها لأجل عودته ، وحين فكرت فى نظرات الأرملة الخبيثة وفى الهمســـــات الخفية والنظرات المستريبة التى كانت تبدو لها من الجميع حتى من العم الطيب ـ حين فكرت فى هذا كله ورات ان الأيام تمر دون أن يعود هذا الرجل ، بدا لها اذ ذاك أن توفر على نفسها هذا العار وأن تضع حدا لهذه الفضيحة .

فكفكفت الأم دموعهـــا وأسرت فى نفسها أمرا .. فجمعت كل ما ادخرته من الأرز وما كان يجب أن تدخره من قش الأرز وذهبت الى البلدة حيث باعت هذا وذاك . ولما جمعت النقود الفضية فى يدها طلبت من البائع ابدالها بورق نقدى . ثم قصدت الى كاتب الرسائل وهو رجل غريب لا تعرفه فى هذه البلدة . وكان يجلس فى كشك صغير قرب معبـد (كونفوشيوس) . فقعـــدت فوق المقعد الصغير المجاور له وقالت :

ـ اريد أن اكتب رسالة بلسان أخ لى يشتغل ولا يمكنه ان يعود الى بيته ، فاكتب ما أقول لك . وهو مريض طريح الفراش ، ولذلك فاني أكتب بلسانه .

فأخرج الرجل عويناته وكف عن التطلع الى جمهور المـارة وتناول رقعة من ورق جديد وغمس فرشاته فى المداد ونظر اليها قائلا :

ـ تكلمى اذن . لكن اخبرينى أولا عن اسم زوجة أخيك وعن بيتها وعن اسمك ايضا . فقالت له الأم :

ـ ان أخى سألنى أن أكتب بلسانه رسالة لزوجته . وهو يقيم فى مدينة جئت الآن منها ، وليس لاسمى اهمية .

وذكرت الأم اسم زوجها باعتباره اسم الأخ ، وذكرت اسم مدينة بعيدة كانت تعرف قربها لمسقط راسها . ثم ذكرت اسمها هى باعتباره اسم زوجة الأخ التى ستوجه الرسالة اليها ، كما ذكرت اسم قريتها لكى يبعث بالرسالة اليها ، وقالت له :

ـ اسمع ما يريد أخى ان يقول لزوجته : « انى اشتغل شــــغلا متواصلا ولى مركز طيب والأكل متوفر لى وسيدى رجل كريم ، وكل ما أؤديه من العمل هو اعداد الشاى لسيدى وتقديم قصبة التدخين له وحمل رسائله الى أصحابه . وانى اتناول طعامى عنده وانال ثلاث قطع من النقود الفضية فى الشهر ، وقد اقتصدت من أجرتى عشر قطع فضية حولتها ورقا ماليـــــا له قيمة الفضة فى هذه الأيام ، فانفقيها على أمى وعلى نفسك وعلى الأولاد » .

وبعد ان أملت الأم هذا الكلام . جلست وانتظرت ، فأخذ الكاتب الكهل يحرر الرسالة ببطء واستغرق فيها وقتا طويلا ، ثم قال اخيرا : أهذا كل شيء ؟ .

فأجابت الأم :

ـ لا . قل هذا ايضا : « ولم اتمكن من الحضور في عيد السنة الجديدة لأن سيدي يحبني كثيرا ولم يتيسر له ان يستغني عني . لكني سأحضر في السنة القادمة اذا تمكنت ، واذا لم أتمكن فسأرسل اليك كل ما أدخره من اجرتي مرة في السنة » .

واخذ الكاتب الكهل يدون مرة أخرى . ثم قالت له بعد أن فكرت قليلا :

ـ قل هذا ايضا .. « اخبري أمي العجوز اني سأحضر لها عند رجوعي قماشا احمر لصنع كفنها الثالث ، وسيكون من أجود الاصناف » .

وهكذا تمت الرسالة وذيلها الكاتب الكهل بالتوقيع وختمها بالشمع وجعل العنوان فوقها وبلل بريقه طابعا الصقه عليها ، وقرر لها انه سيصدرها في مكان يعرفه . فنقدته الأم اجره وعادت الى بيتها . وكانت هذه الفكرة هي ما اسرته الأم في نفسها حينما كفكفت دموعها .

الفصل السادس

بعد مضي سبعة ايام أو نحوها جاء الى القرية رجل يحمل رسائل في حقيبة فوق كتفه . وكانت هذه ظاهرة جيدة في العصر الحديث لم يكن مثلها في سالف الأيام ، وبدا لأهل القرية أن مجيء الرسائل على هذا النحو هو لون من السحر .

ثم تناول الرجل رسالة من حقيبته وامسكها في يده ونظر الى الأم طويلا وسألها :

ـ هل انت زوجة الملقب باسم (لي) ؟ .

فأدركت الأم أن رسالتها جاءت واجابته قائلة :

ـ انا هي .

فقال لها الرجل :

ـ اذن فهذه الرسالة لك وهي من زوجك . لأن اسمه مكتوب فوقها .

واعطاها الرسالة .
عند ذلك تكلفت الأم الهتاف والفرح وصرخت تقول للعجوز :
ـ جاءت رسالة من ابنك .
والتفتت الى ولديها قائلة :
ـ هو ذا خطاب من ابيكما .
ولم يكد الجميع يصبرون حتى تريهم لهم الرسالة . وذهبت الام تغتسل وارتدت ثوبا نظيفا ومشطت شعرها بعناية . وفيما كانت تفعل سمعت العجوز تخاطب زوجة العم بأعلا صوتها قائلة :
ـ جاءت رسالة من ولدى !.
وما كادت تقول هذا الكلام حتى جعلت تسعل وتضحك حتى انزعجت زوجة العم واسرعت اليها واخذت تدلك ظهرها وتقول بصوتها الرقيق :
ـ رفقا يا امى والا قتلت نفسك .
ـ ان هذه العجوز الفانية تكاد تختنق لأن رسالة جاءت ! .
فابتسمت الأم وقالت :
ـ هذا صحيح . وهذه هى الرسالة .
وابرزت الرسالة لكى تراها زوجة العم .
ولما خرجت الى الشارع تقاطر الجميع فى أثرها . فان الغلام تبعها وجعل يقول لكل من يسأله أن رسالة وردت من ابيه ، وسارت البنت خلفه متعلقة بجلبابه . واذ كان الوقت شتاء والعمل قليلا فقد تبعها جمع من الرجال والنساء المتبلطين وزحفوا جميعا الى بيت الكاتب الذى دهش من حضور هذا العدد العديد على هذا النحو الفجائى . على أنه حينما فهم ما يراد منه تناول الرسالة وتأملها قليلا وأدارها على وجهيها وجعل يتمعن فيها ، ثم قال اخيرا برزانة :
ـ هذه الرسالة من زوجك .
فقالت الأم :
ـ انا خمنت هذا .
وصاحت الأرملة التى كانت بين الجميع قائلة :
ـ وممن تكون غير زوجها يا رجل يا طيب ؟ .
فضج الجميع بالضحك من هذه الكلمات .
ثم أخذ الكاتب يتلو الرسالة فى تؤدة ، فخيم السكون على الجميع وانصت الولدان وانصت الجمهور . وكان الكاتب يتوقف بعد كل كلمة يتلوها لكى يفسر معناها لأن الكلام المكتوب غير الكلام

المنطوق من ناحية ، ولأن الكاتب أراد من ناحية أخرى ان يبين مبلغ علمه ومدى اطلاعه .

وكانت الأم تنصت وكأنها لم تسمع كلمة من هذه الرسالة من قبل ، وجعلت تومىء براسها بعد كل كلمة . ولما وصل الرجل الى الكلام المنبىء عن ارسال النقود رفع صوته عاليا واضح النبرات تنويها بهذا الحادث الخطير . ومن الناس هن فغر فاه وهتف :

ــ لكن هل كان فى الرسالة نقود ؟ .

فأومأت الأم براسها ايجابا وبسطت كفها وكشفت عن الورقة المالية التى استبدلت بها نقودها الفضية ، وقدمتها للكاتب لكى يفحصها ، فقال فى لهجة خاشعة رزينة :

ــ أرى حقا رقم (عشرة) .. ولابد انها تساوى عشر قطع فضية .

عند ذلك طلب الجميع أن ينظروا الى الورقة المالية وأصروا على الطلب . فراوا صورة قائد بدين ذى شاربين مرسومة على الورق . ولم تتمالك الأرملة الثرثارة ان هتفت منزعجة حينما راتها ! .

ــ كم تغير زوجك يا أختى .

فقد حسبت أنها صورة الرجل نفسه ، وشاركها الجميع هذا الاعتقاد الا فيما عدا الزوجة نفسها ، وقد قالت لهم :

ــ ليست هذه صورة زوجى . فأنا أعرف هذا .

ولاذ الكاتب بخياله وقال :

ــ هى من غير شك صورة سيده .

وجعل الجميع يتفرسون فيها ويعجبون من مظاهر الفنى والامتلاء البادية على صاحبها .

ثم لزموا الصمت وقد ساورهم العجب والحسد ، وأخذوا يراقبون الأم وهى تطوى الورقةالمالية الثمينة وتطبق عليها يدها فى حرص وحذر .

ولما اتم الكاتب تلاوة الرسالة طواها ووضعها فى غلافها وقال برزانة :

ــ انت زوجة موفقة كل التوفيق . فليس كل النساء يوفق ازواجهن فى الذهاب الى المدن الكبيرة وايجاد مثل هذا العمل الطيب ، وليس كل من يوفق الى هذا منهم يرسل الى زوجته أجره على هذا النحو . فان فى المدن أماكن كثيرة لانفاق المال كما سمعت .

فما كاد الناس يسمعون هذا الكلام حتى تراجعوا أمامها فى تجلة

واحترام . فسارت الى بيتها فخورة مزهوة ، وتبعها الطفـــلان يشاطرانهـا هذا المجـد . ولمـا بلغت الدار قصت على العجوز كل شيء . فضحكت العجوز سرورا وطربت على الأخص مما قاله ولدها عن الـكفن الثالث وهتفت في صوتها الراعش المتهدج وهى تضرب على ركبتيها سرورا :
ــ أما ولدى هذا ! احلف انه لا يوجد ولد مثله ! ولا شك أن قماش المدن من أجود أنواع الأقمشة .
ثم بدت عليها دلائل الرزانة وقالت مشفقة :
ــ نعم يا ابنتى . اذا كان هذا القماش من النوع الطيب الذى أشار اليه . فانى أشك فى أنى سأبليه قبل موتى . ويحتمل أن هذا الثوب سيكون كفنى الأخير .
وبدت على وجه الغلام دلائل الرزانة حين رأى جدته كذلك ، وهتف مخلصا :
ــ لا يا جدتى . لن يكون كفنك الأخير . لأنك أبليت ثوبين ومحال أن يكون هذا الثوب أمتن من الاثنين معا .
فلما سمعت العجوز هذا الكلام عاد لهـــــا انتعاشها وضحكت مسرورة من ذكاء الغلام وقالت للأم :
ــ جميل منك يا ابنتى انك تذكرت كل ما قاله . وكأنك كنت نفسك تقرئين كلامه .
فقالت الأم بهدوء :
ــ نعم . انى تذكرت كل كلامه .
ودخلت وحدها الى الدار ووقفت خلف الباب وجعلت تبـكى فى صمت وسكون ، ولم تكن الرسالة ولا الورقة المالية التى لهـا قيمة الفضة سوى هباء أو كالهباء بالقياس الى كرامتها المجروحة .
كانت الرسالة والورقة المالية شيئا تافها زهيدا فى نظرها ، ولم يكن لهما أدنى قيمة ولا أقل مغزى .
غير ان هذا التدبير كان له قيمته ولم يعد احد من أهل القرية يتهكم منها أو يعيرها بأنها امرأة هجرها زوجها . بل لقـد كان من شأن هذه المناسبة أن تشعرها بالصلابة ازاء أهل القرية . فما كادوا يعرفون أنها تملك ورقة مالية وانها ستتلقى مثلها فى العام القـادم حتى سعى بعضهم سرا للاقتراض منها ، وكان فى طليعتهم كاتب القرية وبعض الرجال المتبطلين الذين ارسلوا زوجاتهم للحصول على هذا القرض . فشق على المرأة أن ترفض لأن أهل القرية جميعا كانوا

من ذوي القربى وكانوا جميعا يلقبون باسم (لي) . لكنها جعلت تنتحل الأعذار وقررت أنها انفقت الورقة المالية في وفاء دين عليها .
وكانت الأرملة كلما رأتها سائرة في الطريق تقول بلهجة ذات مغزى ان القماش أصبح غالي الثمن في هذه الأيام وحتى الابر عز ثمنها وان ثمن الخيوط الملونة التي تصنع منها الأزهار فوق الأحذية قد تضاعف .
وكانت اذا وقفت ببابها هتف الجميع قائلين لها :
ـ من حسن حظك انك لا تفكرين مرات في كل درهم تنفقينه ، فان زوجك يربح الفضة ويرسلها اليك .
وكان بعض الرجال يقول لبعض :
ـ اني أشك فيما اذا كان من الخير وجود مثل هذه المرأة الغنية في قريتنا فتجذب اللصوص اليها . نعم . ان اللصوص يحومون حيث يكون الغنى ، كما يحوم الذباب حول العسل .
وبدا للأم اخيرا ان هذه الورقة المالية ستكون مصدر قلقها الدائم ونغصها المستمر ، لا بسبب ما كان الناس يلوكونه بشأنه فحسب ، ومنهم من كان يجيء اليها لـكي ينظر الورقة عن كثب ، بل لأن الأم فوق هذا لم تألف حيازة نقود من الورق . وقد بدات تمقتها اذ خافت أن يطيح الهواء بها أو تعمل الفيران اسنانها فيها أو يمسكها الأولاد وهم يلعبون ويمزقونها ظنا بانها لا شيء . وقد اضطرت كل ليلة ان تتحقق من وجودها في سلة الأرز حيث أخفتها ، اذ خافت أن هي وضعتها في الجدار الطيني أن تلصق به وتفسد .
ولما ثقلت على نفسها وطأة هذه الافكار اسرعت الى العم يوما حينما رأته يهم بالذهاب الى البلدة وهمست في أذنه :
ـ اعمل معروفا وابدل هذه الورقة بفضة صلبة لـكي أشعر بهـا في يدي . فان هذه الورقة لا تبدو شيئا كلما امسكت بها .
وهكذا أخذ العم الورقة المالية . واذ كان بطبعه رجلا عفا امينا فقد أبدلها بفضة طيبة صحيحة ، ولما عاد الى الأم جعل يرن القطع بعضها ببعض لـكي يبين لها جودتها وسلامتها . فأعربت له الأم عن امتنانها وقالت له ـ ولو انها في الحق قالت مكرهة الى حد ما ـ لولا أنها لم ترد أن تبدو في مظهر الشح والجمود :
ـ خذ قطعة منها يا عمي جزاء تعبك وجزاء مســـاعدتك لي في حصاد الأرز ، فاني اعلم انك محتاج اليها . وان زوجتك حبلى .
ورغم أن الرجل حدق في قطعة النقود واستنشق بلهفة دون أن

يفطن لنفسه وجعل يغمض ويفتح عينيه متلهفا ؟ رغم هذا كله فانه لم يأخذ القطعة ، وقال بسرعة قبل أن يغالبه تلهفه ، فقد كان حقا رجلا طيبا عفا :

ــ لا يا زوجة العم . انت امراة وحيدة وانا رجل قادر على العمل .

فقالت الأم :

ــ لا بأس . لك أن تقترض اذا احتجب .

وسارعت باخفاء قطعة النقود . فقد كانت تعلم ان الانسان مهما كان موفور الطيبة لا يقوى على اغواء المال وانما يضعف دونه .

وفى تلك الليلة نهضت الأم بعد أن نام الأولاد والعجوز فأضاءت شمعة وحفرت حفرة بفأسها فى تربة الأرض الصلبة ثم أخفت فيها قطع النقود العشر بعد أن لفتها بخرقة صونا لها من رطوبة الأرض . وقد ادارت الجاموسة رأسها وحدقت فيها بعينيها الواسعتين المتبلدتين . واستيقظ الدجاج المحبوس تحت الفراش وجعل ينظر اليها بهذه العين ثم بتلك وهو ينق نقيقا خافتا وقد ادهشه هذا الحادث الغريب فى الليل . لكن الأم ردمت الحفرة وداست فوقها مرات حتى تسويها بسطح الأرض ثم عادت الى الفراش وانطرحت فوقه فى الظلام .

ومن عجب أنها وقد تمددت فى مكانها بين اليقظة والحلم نسيت أو كادت تنسى ان هذا الذى دسته تحت الأرض هو فضتها ، الفضة التى جنتها من بيع المحصول الذى حصدته بيديها وكانت تنحنى وقد بلغ الاعياء منها مبلغه كلما جمعت حبوبه حفنة حفنة . اجل . نسيت الأم هذا كله . وخيل أو كاد يخيل اليها ان الرجل قد أرسله اليها حقا وانه شيء أوفر واقوم مما كانت تملك ، وغمغمت من قلبها : « هذه الفضة هي مكان الفضة التى اخذها وانفقها فى شراء الرداء الأزرق . بل هي أفضل . فهي أكثر » . وصفحت عنه واغتفرت له ما صنع . ثم استغرقت فى النوم .

وكانت اذا سألها سائل أن تريه الورقة المالية تجيبه بهدوء :

ــ انى أبدلتها بفضة عادية وانفقتها .

ولما سمعت الأرملة الثرثارة هذا الكلام هتفت وقد تدلى فكها :

ــ لكن هل انفقتها كلها ؟ .

فأجابت الأم فى يسر وسهولة وهي تبتسم :

ــ نعم انفقتها فى شراء ما كنت احتاج اليه من الأوانى والأقمشة .

ولم لا انفقها وسأنال اكثر منها ؟ .

ودخلت الدار وجاءت بالملابس الجديدة التى كانت صنعتها للرجل وقالت : هذا مثال من الأقمشة التى اشتريتها .

فجعلت النساء الواقفات يحدقن فى القماش ويجسسنه باصابعهن ويبدين اعجابهن بجودته ومتانته . وقالت الأرملة برغمها :

ــ احلف انك امراة طيبة لأنك تنفقين بعض المال فى شراء ملابس له ولا تنفقينه كله على نفسك وعلى أولادك .

فقالت الأم على الفور :

ــ لكنى وزوجى على تمام الوفاق . وقد انفقت بعض النقود على نفسى . فانى اعطيت جانبا لصائغ وطلبت منه ان يصنع لى قرطا واساور لأن زوجى كثيرا ما كان يقول انه يجب ان تكون لى مثل هذه الحلى اذا توفر لنا بعض المال الزائد .

وقد انصتت العجوز الى هذا الكلام كله ، ثم هتفت أخيرا :

ــ احلف ان ابنى هو كما وصفته زوجته . وهو سيشترى لى كفنى الثالث وسيكون من اجود الاقمشة التى تباع فى المدن . وهو ابن طيب يا جيرانى . وأنا اتمنى لكل منكم ولدا مثله ، ولا سيما لك يا زوجة العم ، فانى ارى بطنك منتفخة كالبطيخة الناضجة .

فلما سمعت النساء هذا الكلام ضحكن وتفرقن واحدة بعد الأخرى اذا أقبل المساء . لكن الأم أخذت تتوجع فى نفسها بعد انصرافهن من جسامة هذه القصة التى قالتها . واخذت تؤنب نفسها وتقول فى ضميرها : « ما الذى جعلنى أقول هذا الكلام الجسيم . ولا اقنع بما قلته حتى الآن ؟ اين أجد النقود لشراء هذه الحلى ؟ . ولكن يجب أن افعل هذا على اى وجه حتى لا أفضح نفسى » .

ولم تتمالك ان تنهدت حينما فكرت فى ضخامة العبء الذى حملته نفسها .

الفصل السابع

كانت هذه المرأة منذ بدء شبابها مخلوقة ذات مشاعر متأصلة واحساسات عميقة ولكنها ساكنة صامتة . ولم تكن مثل بعض بنات جنسها ، تسارع بتوزيع نظراتها على هذا الرجل أو ذاك وتطنب فى امتداح اى رجل تراه وتعجب به . كلا . بل كانت امراة عميقة

العزاد ، موفورة الحياء . ولم يحدث قبل زواجها وحين كانت فتاة عذراء ان اتجهت بخواطرها الى الرجال من حيث هم رجال . وكانت اذا هزتها المشاعر العنيفة والأشواق الغريبة عن نفسها لا تتطلع قط الى الرجال لترى كنههم بل كانت تطـــوى الضلوع على حنينها وأشواقها وتحتملها فى صبر وسكون وانتظار . فلما تزوجت وأدركت كنه الرجل سطع امام عينيها قدر يسير من ذلك الحنين الصامت الذى كان يجيش فى نفسها ، وعرفت حتى حين كانت تؤنب هذا الرجل أحيانا وتغضب منه انها لا تستطيع الحيـاة بدون وجـوده معها .

على ان الرجل وحده لم يكن يكفى . بل كان ينبغى ان تحمل منه وأن تستشعر الطفل يتكون فى أحشائها وتدب فيه الحياة . وبهذا تتم الزوجية . وفى الوقت الذى يتحرك فيه الطفل وينمو كانت تغمرها موجة من السعادة بتحقيق مطمحها ومشتهاها . اجل . وحتى حين كانت تسخط على أطفالها اذ يبكون ويشتكون ويتشبثون بعناد الطفولة الغريزى ــ حتى حين يحدث هذا كانت اذا طالعتها علائم حمل جديد ساورها احساس رضـــاء جسدى مستعذب وكأنها شبعت وارتوت ونامت ولم يعد ينقصها شيء من مطالب الجسد المادية .

وكذلك كان حبها للطفل امرا مقررا لا ريب فيه . بل كذلك كان شأنها فى الأيام الخالية حين كانت فتاة عذراء فى دار أبيها فى قرية بين الروابى لا تزيد عن هذه القرية الا قليلا . فقد كانت هذه الدار حاشدة بالأطفال وكانت كبراهم وكانت بمثابة الأم لهم . لكنها ما كانت قط تستشعر لهم غير المحبة حتى وهى منهوكة الجسم تعبا من تأثير العمل المتصل المضنى وهم يتراكضون حولهـــا ويضايقونها بلهوهم وعبثهم ولعبهم . فقد كانت ترى فى طفـولتهم وضآلتهم ما يرقق قلبها ، ويلين نفسها . وطالما كانت تحمل صغارهم سواء من بيت ابنها أو من بيوت جيرانها فتضمهم الى صدرها وتدللهم ما شاء لها احساسها ، اذا كان قرب الطفل الى نفسها يثير فى صدرها سرورا حارا ولذة عنيفة ، وان لم تكن تدرى مصدر هذا السرور ومبعث هذه اللذة .

وكذلك كان كل ما هو صـــغير غض محببا الى نفسها قريبـــا الى وجدانها .

كانت فى الربيع تحب الأفراخ وصغار البط وهى تنحـــدر من اغشيتها . وكانت اذا هجرت دجاجة عشها لسبب ما وتركت صغارها

في ابان التفريخ عمدت هي الى البيض فجعلته في كيس وضمته الي جسدها الدافيء ، وتظل تروح وتغدو به في رفق ولين حتى يتم التفريخ ويخرج الصغار الى نور الحياة .

ولما خرج اطفال بيتها الصغار عن دور الطفولة واشرفت هي على سن الزواج وقع لها حادث نبهها وأثار كامن عاطفتها . فقد كان بين أطفال جيرانها طفل صغير لا يكاد يقوى على السير ، وكان بضا مستدير الوجه تحمله اخته في ذلك الصيف عاري الجسد مشدودا فوق ظهرها بقطعة من القماش . فكانت تعمد الى هذا القماش فتفكه وتحمل الطفل عن ظهر اخته التي تتخلى عنه مسرورة بخلاصها منه وتذهب للعب والمرح مع اترابها .

وتكرر هذا الحادث كل يوم . وجعلت الأم ، وهي فتاة في ذلك العهد ، تترقب رؤية هذا الطفل البض المستدير الوجه كالبدر حتى أصبح مصدر سرورها وصار اثيرا لديهـا ومحببا عندها ، وكانت تمسكه وتشمم راحتي يديه البضتين وتستطيب وجنتيه المستديرتين وشفتيه الصغيرتين الورديتين . وكانت تحمله معها في غدوها ورواحها واذا انكرت امها ذلك منها وعجبت من تشبثها بهذا الطفل ولديهـا العديد من اخوتها الأطفال كانت تجيبها ضاحكة : « انا لا أمل الأطفال ولا اشبع منهم ! » .

وسرعان ما أثار هذا الطفل في نفسها حنينا لم تكن تشعر به من قبل دون أن تفطن الى ذلك . فقد كانت تريد أن يكون لها ابناء شأن النساء جميعا ، وكانت ترى من حقها أن تظفر بهؤلاء الأبناء يوما بعد زواجها . لكن هذا الطفل الهاديء الموفور الصحة أثار في نفسها أكثر من مجرد الشوق الى الأبناء . وقد تطور ما كان أول الأمر عبثا بالطفل تطورا أعمق واستحال الى عاطفة عميقة غامضة وحنينا لشيء لا تدرك كنهه او تحديده .

وجعلت كلما أصبح الطفل بين يديها والكل منشغلون عنها بالعمل في الحقول أو في المطبخ واخته منصرفة عنه الى لعبهـا ، جعلت تنتحل الأعذار للانفراد بهذا الطفل وتضمه الى صـدرها . وكانت تناجيه بالألفاظ الرقيقة وتدلله بين سـاعديها وتستشعر جسده الصغير البض الى جسدها . وكانت تمضغ له بعض الأرز وتدسه في فمه والطفل دهش من أمرها ، فتضحك وان لم تكن تدري سبب هذا الضحك ، فهي لم تكن تحس مرحا ولا جذلا ، وانما كان ينتابها حنين جائش لا تدري كيف تسكنه .

وذات يوم قبيل زواجها كانت وحدها مع هذا الطفل واقبل الظهر دون ان تأتى اخته لحمله الى امه كي تطعمه ، واخذ الطفل يتقلب متبرما متضجرا ولم يشأ أن يلزم السكون . فلما رأت جوعه على هذا النحو ذهبت به الى غرفتها يحفزها احساس غامض عنيف لم تفهمه ولكنها شعرت به يغلى فى دمها ، فأغلقت الباب وكشفت عن صدرها بيدين مرتعشتين واسلمت للطفل ثديها فجعل يرضع ويمصه بشدة. وفى ذلك الحين احست وهى تحدق فى وجه الطفل بتفاعل شديد فى دمها لم تكن تعهده من قبل وانحدرت الدموع فى عينيها وجرت على شفتيها غمغمة متقطعة غامضة ليست كالكلمات وامسكت بالطفل تضمه الى صدرها دون أن تهتدى الى تفسير لهذا الاحساس الذى ألم بها . هذا الاحساس الذى كان لونا من الحنين الحاد واللهفة البالغة ، والذى كان اسمى وأعظم من الطفل نفسه ، بل كان اسمى وأعظم من شخصها .

ثم انتهت هذه اللحظة . فقد كان ثديها جافا وبكى الطفل مخيبا ، فضمت رداءها ثانية وساورها حياء من مسلكها وخرجت من غرفتها فجاءت اخت الطفل مسرعة وحملته وذهبت به الى أمها .

لكن هذه اللحظة كانت بادرة اليقظة وكانت أكثر من الزوج . فقد كان الزوج رغم تعلقها به وكونه كل شيء فى نظرها يمثل جزءا من الامومة ، ولم تكن تحبه لذاته فقط ومن حيث هو زوج ورجل .

***

ذلك كان شأنها فى عذريتها وشبابها . والآن وقد نضج جسدها والمت بكل شيء اذا هى تصبح وحيدة فى ابان نضوجها وعنفوان حياتها . وكان الأطفال يترعرعون كل يوم ويشبون وكلما ترعرعوا وشبوا بعد العهد بينهم بين الطفولة وبدوا اغرابا . كالأغراب عنها .

فقد فرع الغلام واستطال عوده وبدا نحيلا . وكان يلوذ بالصمت ويستنفد جهده فى اداء أعماله الشاقة وواجباته الثقيلة . وكانت الام اذا ارادت حمل المحراث الخشبى الجافى الصنع آخر اليوم لكى تعود به الى الدار امسك الفتى به وحمله فوق كتفيه الضئيلتين وسار يترنح ويتمايل به فوق التربة المتشققة ، ولما كان التعب يبلغ منها غايته أحيانا كانت تتركه يفعل ولا تعترض رغبته . وقد أخذ الفتى على عاتقه الآن رفع الماء من البئر واطعام الجاموسة ، وجعل يكافح للقيام بنصيبه وبأكثر من نصيبه فى عمل الحقل وكأنه هو رب البيت وعميد الأسرة .

غير انه برغم هذا كله كان هناك شيء غامض يبعده عن هذه المرأة ويقصيه عنها وهى امه . وكانت تراه رغم اضطلاعه بهذا العمل عن طيبة خاطر واقبال أيضا ، كانت تراه ينأى عنها على وجه لم تستطع له تفسيرا ولا فهما ، ولم يكن يميل الى القرب منها وانما كان يقف بعيدا عنها ، وكأنما تنبعث منهـــا رائحة لا يطيق احتمالها . وكانا أحيانا يختلفان ويتشاحنان على شأن من شئون هذا العمل المشترك كأن تطلب منه أن يمسك الفأس على نحو معين فيرفض الاذعان وان كان فى طريقته عنت وارهاق له . غير أن كليهما كان يعلم ان العمل ليس هو مصدر هذا الخلاف ايضا ، وانما الباعث عليه سبب اكثر عمقا لا يدرى احدهما تحديده وتفسيره .

ولم تكن البنت بدورها مصدر فرح لها وهى كليلة البصر نصف عمياء . غير ان هذه البنت كانت تقوم بعملها صابرة باذلة فيه أقصى الجهد ، ولم تعد تشكو او تتذمر كما كان شأنها من قبل . ولما ترعرع الطفل الأصغر واستطاع ان يسير وان يجرى واستطاب الركض فى الشارع واللعب والصياح مع أترابه ، كانت البنت تتركه وتنضم الى امها واخيها حيث يكدان فى الحقول . لكنها حتى فى هذا الشأن كانت مثار تعب لا مصدر عون لهمـــا ، لا سيما فى الحقول ذوات النباتات الغضة والمزروعات الصغيرة . فقد كانت من كفاف البصر بحيث اذا عالجت نزع الطفيليات لم تنظر مواقعها جيدا وتنتزع النبت الغض مكانها ، فكان الفتى يصرخ فيها غاضبا :

ــ خير لك أن تذهبى الى البيت . فلا فائدة منك . روحى اقعدى عند جدتك العجوز .

فاذا نهضت البنت من مكانها وهى تبتسم ابتسامة يسيرة ازاء هذه الكلمات التى كانت تحز فى نفسها حزا أليما راح الفتى يصرخ فيها ثانية قائلا بخشونة :

ــ افتحى عينيك جيدا وانظرى اى طريق تسلكين . انك تسيرين فوق المزروعات .

وهكذا كانت البنت تسرع فى الابتعاد عن الحقل تدفعها كرامتها المجروحة الى مفارقة هذا المكان . وكان قلب الأم نهبا مقسما بين هذين الاثنين . بين ابنها وبين ابنتها الكفيفة . وكانت تستشعر ما يساور قلبيهما . فقلب الفتى يفيض مرارة وأعياء من هذا العمل الشاق الذى يجاوز سنه . والم البنت يغلب صبرها . وتروح تقول لها متنهدة وهى تقفل راجعة الى البيت :

ـ صحيح يا ابنتى ان الفائدة منك قليلة وانك لا تقدرين حتى على الخياطة وعيناك بهذه الحالة السيئة . لكن اذهبى الى البيت واكنسى الأرض وجهزى الاكل واوقدى النار . لأن كل اولئك هو انسب الأعمال التى تستطيعين القيام بها على وجه مرض . وهناك تستطيعين ايضا الاشراف على أخيك الصغير والسهر عليه لئلا يقع فى الترعة . وتصنعين لجدتك قدحا من الشاى . هذه كلها هى واجباتك ولما افرغ من عملى أذهب خصيصا لأحضر لعينيك مرهما .

بمثل هذا الـكلام كانت الأم تهون على ابنتها ما تلقى وهى نفسها فى حاجة الى ما يهون عليهـا ما ترى من هذه البنت التى تجلس الساعات الطوال ساكنة صامتة تكفكف ماء عينيها المنحدر واجفانها الملتهبة وتبتسم ابتسامتها المنبئة عن الصبر والتسليم .

وكانت الأم اذا نظرت اليها احيانا وسمعت انحاء أخيها وتحامله عليها ورات تعلق الطفـــل الأصغر باللعب وغرامه بالابتعاد عنها ، لا تتمالك ان تسائل نفسها في مرارة كيف كانوا وهم صغار يفيضون جمالا وبهجة فى عينيها وهم الآن أبعد ما يكونون عن تسكين خاطرها وتطييب نفسها .

أجل .. كانت هذه الأم احيانا تتطلع فى المساء شطر بيت العم وهى تفيض الما وحسدا . فقد كانت ترى فيه الزوج الطيب الأمين وذلك الفلاح الساذج . وهو وان لم يكن فى نظافة زوجها هى ووسامته فقد كان برغم هذا لا بأس به . وكان يثابر على اداء واجبه اليومى ويعود الى البيت لـكى يأكل وينام كمـــا ينبغى ان يأكل الرجال وينامو . وكانت ترى الى جانبه أطفاله الذين ينجبهم بانتظام وزوجته التى تجلس طروبة مرحة راضية قريرة العين بطفلها الأخير الذى تحمله فوق ركبتيها ، واذ كان لسانها لا يكاد يستقر فى حلقها وكانت مخلوقة سطحية فهى رغم هذا طيبة القلب وجارة كريمة . وكانت احيانا تجىء اليها وتقاسمها نصيبا من اللحم تصيبه أو تهدى اطفال الأم بعض الفاكهة أو تدفع الى البنت الكفيفة بوردة صناعية لـكى تضمها فى شعرها .

فقد كانت تخيم على هذا البيت اذن علائم الرضا والقنـــاعة وكانت الأم تحسد أصحابه . وكان حنينها يزيد فى نفسها عمقـا ويكتسب طابع الضيق والتبرم وعدم الرضا .

الفصل الثامن

لو كان بوسع الأم أن تنسى الرجل وتقضي على ذكراه في نفسها ؛ ولو كان في عداد الموتى وراته بعينيها موسدا فى التراب جثة هامدة فارقتها الحياة الى الأبد ، ولو صارت ارملة وايقنت من انتهاء عهد الزوجية ـ اذن لهان على نفسها ما تلقى .

ولو عرفتها القرية أرملة وتسنى لها ان تحتفظ بهذا الترمل نقيا لا تشوبه أدنى شائبة ، ولو أتيح لها أن تسير فى الطريق فتسمع الناس يقولون عنها : « هذه زوجة (لى) الذى مات وقد بقيت من بعده ارملة وفية طيبة وهو الآن راقد في التراب وهي تحيا من بعده عفيفة وفية لذكراه » ـ لو أتيح لها أن تسمع مثل هذا الكلام لكان مشددا لنفسها ومسكنا لخاطرها ، ولعاشت كما ينبغي أن تعيش مثلها .

لكنها لم تكن ارملة . وينبغى لها أن تجيب سائليها عن حال زوجها وأن تكذب وتمعن فى الكذب والاختلاق وأن تذكره ابدا كلما عمدت الى هذا الكذب وهذا الاختلاق .

وكانوا يسألونها كلما سارت فى الطريق حاملة فوق كتفها شيئا تبيعه في السوق أو عائدة الى البيت بالسلال الفارغة : « هل تلقيت اخيرا رسالة من زوجك او نبأ شفويا يخبرك عن احواله وشئونه ؟ » ـ فتجيب وقد نال منها الجهد المميت والاعياء القاتل : « نعم . سمعت على لسان الرسل انه على خير ما يرام ، لكنه لا يكتب الا مرة واحدة فى السنة » .

لكنها كانت اذا استقرت فى البيت تتمزق قلبا بهذا الكذب المتصل وكانت أحيانا تغمرها الوحدة ويطغى عليها الحزن فتهتف من أعماق قلبها : « ما أتعسني وأشد وحشتي . أنا التى أخلق لنفسي رجلا من عالم الكذب والأوهام ! » .

وكانت تجلس أحيانا أخرى وتحدق فى الطريق وتناجى نفسها بهذه الكلمات .

ـ اذا خطر له ان يجيء فان رداءه الأزرق يبدو من مسافة بعيدة فهو صاف شديد الزرقة .

وكانت حقا اذا رات جلبابا ازرق عن بعد يثب قلبها فرحا . وكانت اذا مر امامها عن بعد رجل لابسا جلبابا ازرق أمسكت عما هى آخذة فيه وكتمت أنفاسها حتى ترى اى طريق يسلك واى

وجهة يتجه . فاذا كانت فى الحقول القت الفاس وظللت عينيها بيديها وجعلت ترقب صاحب الجلبـاب الأزرق لترى اذا جاء الى ناحيتها أو واصل سيره بعيدا عنهـــا . وكان صاحب الجلباب يتجاوزها أبدا . فان الجلباب الأزرق لباس شائع يرتديه كل الناس اذا كانوا من العامة والفقراء .

لـكنها كانت احيـــانا اخرى تغضب من هذا الرجل لفرط ما يحملها عليه من الـكذب وتقرر لنفسها انه لا يستحق هـذا كله ، وانه اذا جاء حقا فستصب عليه جام غضبها وتستمطر على راسه اللعنات . وكان هـذا الغضب يدوم أياما فينتابها التبرم والضيق وتتنكر للأطفال والعجوز وتدفع عنها الكلب بالفاس فى خشونة ، وان كانت اذا فعلت هذا تزيد من حزنها وتضـــاعف من شجنها وكربها .

وجاء أوان قسمة محصول الأرز وهى فريسة هذا التاثير . فقد اخذت تكد وتكافح مرة ثانية وحدها الا ما كان الفتى يقـــدمه من من المساعدة والا يوما أو يومين اسدى فيهما العم الطيب اليهـــا معونته ، حتى تم الحصاد أخيرا وحان وقت اقتسام المحصول . وقد خيل للأم فى هذا اليوم أن الحنين والغضب قد جعلا من قلبها كتلة جريحة . فكان كل ما تراه يقع من قلبها موقعا أليما . ورات فى هذا العام ما لم تكن ترى فى الايام السالفة .

وفيما هى تحت سلطان هذا الحنين وقد وقفت فى الجرن قرب المحصول المكوم ، وجاء وكيل المالك وكان طويل القامة يرتدى ثوبا من حرير رمادى ويبدو وجهه مستديرا ممتلئا وسيما . وقد رات فيه هيئته الانفة التى عرفتها ، هيئة الأدب المتكلف . لكن عينيه كانتا ممتلئتين ثقيلة الأجفان نصف مطبقة فوقهما . وفهمت المراة من كيفية نظره اليها بهاتين العينين الســـالف وصفهما انه سمع قصتها وعلم ان زوجها قد ذهب الى جهة أخرى ولم يعد أبدا .

أجل . لقد كان قلبها اليوم طافحا بما جعلها تفهم من مظهره معرفته لأمرها . والحق يقال انه كان رجلا من طراز هؤلاء الرجال الذين اذا رأوا امراة مهجورة فطنوا فى أعماق نفوسهم الى حالهـــا وعرفوا تكوين قلبها وتحديد جسدها .

وكان هذا الرجل يتكلف فى كلامه الاخلاص والصراحة ، لـكنه كان رغم هـذا الأدب المتـكلف ورغم كلامه المعســول مكروها من أهل القرية الذين يخافون بأسه بسبب طبعه الحاد وتهديده من يختلف

معه بيديه اللتين كان يضمهما ويركزهما فى خاصرتيه . وفى هـذه المناسبات يرفع جفنيه فتبـدو عيناه مخيفتين لامعتين سوداوين تطل منهما القسـوة . غير انهم كانوا مع ذلك يضحكون من كلامه ايضا . فقد كان اذا أعطوه ما يريد بغير مخاصمة القى عليهم بعض النكات التى تضحكهم ، وان كان ضحكهم لا يخلو من تحفظ وحذر .

وهكذا جعل الرجل حينما جاء الى بيت الأم يتكلف المرح وخفة الروح . وكان يعلم انها تعيش وحدها بغير رجل . فقال للفتى الذى كان واقفا :

ــ ارى أن أمك فى غير حاجة الى أبيك وانت موجود هنـا للاشراف على الحقول .

فبدت على هيئة الفتى علائم الزهو والحيـاء معا اذ أرضاه هذا الثناء وقال :

ــ صحيح انا اقوم بنصيبى .

وبصق الفتى كما رأى الرجال يفعلون . ووضع ذراعيه خلف ظهره واحس بأنه قد شب وصار رجلا .

فضحك الوكيل ونظر الى الأم كأنه يريد ان تشاركه هذا الضحك الرقيق بشأن فتاها ، ولم تتمالك الأم من الابتسام ، وقدمت له قدحا من الشاى فى ادب ومجاملة كما تفعل لكل ضيف عابر . ولم تتمالك وهى قريبة من عينيه الضاحكتين الا أن تنظر فيهما . واذ ذاك انعكس فى عينيها قلبها الظـامىء الجائع المنهوم دون أن تفطن لذلك . وحدق الرجل فيها وأحس عاطفتها الحارة القوية ، فجرى دمه حارا وبدت عليه دلائل الرزانة . ولما تناول منها قدح الشاى لمس يدها وكأنه لا يعلم موقعها لكن المرأة شعرت بلمسه وفطنت الى مغزاه وكان له وقع النار فى دمائها .

ثم تحولت عنه فى خجل ولم تستمع لصوت قلبها . بل تشاغلت بالمحصول وتسلط عليها الخوف من نفسها فجـأة وقالت للفتى فى صوت خافت :

ــ اسرع الى عمك وقل له أن يحضر لمساعدتى .

ثم ناجت نفسها محاولة تسكين ثوران قلبها :

ــ اذا جاء هنا . اذا جاء العم الطيب هنا .

لكن الفتى كان مزهوا بنفسه وقد لزم العناد وقال يجادل أمه :

ـ « انا هنا يا أمى . وساساعدك . من غيرى تريدين ؟ انظرى . انا هنا » .

فضحك الوكيل عاليا وضرب على عجزه وانتهز فرصة سذاجة الفتى وهتف :

ـ صحيح أنت موجود يا ابنى . وصحيح أن امك لا تحتاج الى رجل آخر .

فتشجع الفتى بهذا الكلام وتحمس ، وقالت له الأم بلهجة ضعيفة :

ـ يكون أفضل اذا جاء عمك الى هنا .

فانتهز الفتى هذا الضعف وهتف :

ـ لا . لن أناديه يا أمى . انا رجل فيه الكفاية .

ثم تقدم فى زهوه الى الحب لكى يكيل المحصول ، فضحكت الأم فى قلق وتركته يفعل . والحق انها كانت تحس فى نفسها شيئا دفعها الى تركه يتولى هذا العمل .

ولما تم الكيل وكالت الأم نصيبا آخر لكى تقدمه للوكيل خاصة رده هذا عنه فى اباء وترفع ومطط شفته العليا الملساء وصوب الى المرأة نظرة ملتهبة ، فلم يكن امامه سوى هؤلاء الأحداث وهذه العجوز التى كانت تميل براسها كلما غالبها النوم . وقال للأم :

ـ لا ، لن أقبل هذا ، انت الآن امرأة وحيدة وقد ذهب زوجك عن البيت وكل هذا المحصول من عملك الخاص.ولن آخذمن المحصول سوى نصيب المالك . ولن آخذ أى أجر منك أيتها الزوجة الطيبة .

وفى ابان هذه الفورة العاطفية العذبة المقرونة بالاشمئزاز التى استولت عليها ، انتابها خوف فجائى واضطربت والحت على الوكيل فى قبول أجره ، لكنه لم يقبل . بل دفع الكيل عنه وهو يلمس يدها بيده . ولما زادت الحاحا تناول الكيل وافرغ ما فيه فى السلة التى كانت تدخر فيها الحب . ولم يرض أن يأخذ منها شيئا .

ولم تأنس الأم من نفسها قدرة على الالحاح عليه بعد . فقد احست خلف هذا الوجه الأملس وهذه النعومة المتكلفة قوة غامضة غريبة خفية تنصب منه وتستحوذ عليها وتلذعها لذع النار الآكلة . ولم تتمالك أن لزمت الصمت واطرقت براسها كما تفعل فتاة عذراء ، ولما أفرغ الرجل الحب مكانه فى السلة وانحنى أمامها

وذهب ضاحكا لم تســـــتطع ان تنبس بكلمة . بل وقفت مكانها صامتة . واخذت يدها تعبث بطرف ردائها القطني .

ولما ذهب الرجل رفعت رأسها وألقت نظرة خلفه . وفي نفس هذه اللحظة أدار الرجل رأسه وقابل نظرتها وانحنى وضحك مرة أخرى ثم واصل طريقه .

وكم ودت المرأة لو أنها لم تنظر خلفه على نحو ما فعلت ، لكن لم يكن حيلة في ذلك . ثم هتف الغلام مغتبطا :

ــ ما اطيب هذا الرجل الذي لم يقبل أن يأخذ اجرته يا أمي . انا لم اسمع في حياتي أن وكيلا لم يقبل أن يأخذ اجرته .

فلما ذهبت الى المطبخ دون ان تجيب بكلمة وهي في شبه حلم بعد الذي حدث ، تبعها الغلام هاتفا :

ــ اليس هو رجلا طيبا يا أمي بعد أن لم يقبل شيئا لنفسه ؟ .

فلما لزمت الأم صمتها صاح الفتى مستاء متبرما :

ــ أمي . أمي .

هنالك انتفضت الأم فجاة واجابت بسرعة غير معهودة :

ــ آه . نعم يا ابني .

واستمر الغلام في لغوه قائلا :

ــ هو طيب جدا يا أمي . فهو لم يقبل أن يأخذ منك شيئا بعد ان عرف مقدار فقرك بسبب غياب أبي .

لـكن المرأة وقفت جامدة فجأة وقد رفعت غطاء القدر في يدها ، وتفرست في الغلام وألقت على نفسها هذا السؤال وهي تشعر شعورا هو مزيج من الخجل والانفعال العذب المقرون بالاشمئزاز : « هل لم يكن يريد شيئا مني ؟ » وان كانت مع ذلك لم تقل شيئا للغـلام .

وأما وكيل المالك فلم يســــتطع ان ينسى عاطفة المرأة القوية المحتدمة وجعل يتردد على القرية منتحلا مختلف المعاذير . فتارة لمراجعة حساب بدأ له انه اخطأ في تقديره ، وطورا للشكوى من نقص الـكيل الذي كاله أحـد الفـلاحين وتعرضه لمؤاخذة المالك وغضبه . وكان اكثر ما يتردد على دار العم القريبة من دار الأم يتحدث في هذا الشأن وذاك ، وجاء مرة بنوع جديد من بذور القطن ينتج تيلة دقيقة ، وأخرى برفقـة عامل يحمل قـدرا من السماد لاخصاب التربة واكسابها القوة . والعم في كل هذا ذاهل مشدوه

لكثرة تردده واختلافه الى داره وقد توجس العم اول الأمر وخاف أن يكون فى الأمر شيء وان الوكيل يبيت له شرا . ولما لم يسفر هذا الأمر عن شيء زاد قلق العم وقال مرة لزوجته :

ـ لابد أن هذا الرجل يدبر شرا عظيما .

وجعل يراقبه في نفس الوقت دون أن يقصر فى أداء واجب المجاملة والترحيب به فيتعرض لشره وأذاه .

لكن لا العم ولا زوجته فطنا الى نظرات الوكيل شطر بيت الأم ، ولا كيف كان يقصر أمد الزيارة اذا لم يجد الأم عند باب بيتها . أما اذا رآها فكان يجلس ويطيل الجلوس مقبلا عليها بوجهه . وكان يهتف فى صوت مرتفع وطيبة متكلفة :

ـ لا يا صاحبى الطيب . لا غرض لى سوى هذا وأنا رجل عادى احب الجلوس فى حوش رجل أمين واتلقى حرارة شمس الخريف .

لكنه كان يقضى وقته فى التطلع الى الأم وهى جالسة تغزل او تخيط ملابس أهلها .

وفى هذا الحين كانت التربة الزراعية تستقبل فصل الراحة الذى يسبق الشتاء . وقد وضعت بذور القمح فى التربة الجافة انتظارا لنزول المطر الذى يرويه ويعجل بنمائه . وجعلت الأم تستريح حينا وكانت تجلس فى مدخل الدار تصلح ملابس الشتاء وتصنع احذية جديده . فان كفاف نظر البنت لا ييسر لها اداء هذا العمل ولن ييسره لها .

كانت الأم تجلس اذن فى الشمس التماسا للدفء والحرارة فتنصت لكلام العجوز وكلام أبنائها . وكانت تبدو حالمة او كالحالمة ، تلوح عليها علائم الهدوء وتعلو بشرتها سمرة ذهبية من لفح الشمس ويبدو شعرها أسود لامعا ممشطا بعد أن توفر لها الآن من الفراغ ما يمكنها من تمشيطه يوميا . ومع انها لم تجاوز الخامسة والثلاثين من عمرها فقد كانت تبدو أقل من هذه السن كثيرا .

وكانت تعلم حق العلم ان الوكيل يجلس على قيد خطوات منها فى الجانب الآخر من الطريق ، لكنها لم تكن ترفع رأسها وتتطلع اليه . فاذا احست بنظراته تلح عليها وتكاد تلتهمها نهضت ودخلت الدار وبقيت فيها فلا تخرج حتى ينصرف ويذهب لشأنه . لكنها فهمت الغرض من قدومه وأدركت أنه ينظر اليها لغرض خاص ولم تستطع أن تنساه أو تنتزع صورته من ذهنها .

والواقع أنها لم تستطع الى نسيانه سبيلا طوال فصل الشتاء . ثم اشتد البرد أخيرا وحال دون قـــدومه حتى فى سبيل الغرض الذى يضمره فى نفسه . ولما تساقط الثلج وهبت رياح الشمال الغربى قارسة لاذعة كان يمكن أن تنساه ولكنها لم توفق الى هذا النسيان .

ثم أقبل العام الجديد وذهبت الى البلدة كما كانت تفعل فى الأعوام السابقة ، فباعت قدرا من الحب وابدلت العملة الفضية بورقة مالية والتمست كاتبا آخر استكتبته رســـالة جديدة تبدو للناس صادرة من زوجهـــا . وعلم أهل القرية مرة أخرى بنبأ الرسالة التى تلقتها والنقود التى بعث الرجل بها اليها .

لـكن حسدهم لها هذه المرة وحديثهم عنها ورفعهم من شأنهـــا لم يغمر قلبها الخاوى . بل ان الـكبرياء لم تهون عليهما ولم ترفه عن نفسها . فقد انصتت الى تلاوة الرسالة فى هدوء وبرود ، ولمـا اقبل الليل دفعتها فى الفرن بين الحشائش الموقدة . ثم ذهبت الى خوان فيه درج ففتحته وبعد تردد تناولت منه الرسائل الثلاث التى كانت به بعد أن طال الأمد على غياب الرجل وحملتها الى النار والقتها طعاما لها . وقد رآها الفتى وهى تفعل هذا فهتف مشدوها :

ـ هل تحرقين رسائل ابى اذن ؟

فأجابت الأم فى برود تام وهى تدمن النظر فى السنة اللهب :

ـ نعم .

فقال الفتى وهو يكاد يصرخ :

ـ ولكن كيف نعرف اذن مكانه ؟ .

فأجابت الأم :

ـ أنا أعرف . هل تظن انى انسى هذا .

وهكذا أصبح قلبها خاويا .

ولـكن كيف يبقى القلب خاويا ؟ .

فبعد أيام قليلة ذهبت الى البلدة وحدها لأبدال الورقة المالية بنقـــود فضية ، اذ الفت أن تكون وحدها ولم تشأ أن تثقلَ على العم فى انجاز شئونها . ولما استقرت القطـــع الفضية فى يدها وانثنت لـكى تعود أدراجها اذا هى ترى رجلا بالباب وقف باسما يمطط شفته الملساء . وعرفت فيه وكيل المالك .

ولم يكن هذا الرجل قد رآها منذ الخريف عن كثب . ولم يكن بقربهما أحد يعرفهما .

وهكذا تغرس فيها الآن مجترئا باسما وقال لها :
ـ ماذا تفعلين هنا ايتها الزوجة الطيبة ؟ .
ـ كنت ابدل بعض النقود .
وكفت عن اتمام جملتها اذ همت ان تقول ان هذه النقود وردتها من زوجها . لكن الـكلمات وقفت فى حلقها ولم تنبس بها .
فقال الرجل وقد رفع جفنيه وهو يكاد يلتهمها بنظره :
ـ وماذا تفعلين بعد هذا ؟ .
فنكست المراة راسها وحاولت ان تتكلم بلهجة عادية واجابت :
ـ كنت انوى ان اذهب لشراء مشبك فضى او مطلى بالفضـــة لشعرى فان المشبك الذى كان عندى بلى وانكسر امس .
والحق ان هذا المشبك قد انكسر على النحو الذى بينته وقـد قررت الحقيقة قبل ان تفكر فيها . ثم تحولت لاستئناف سيرها وقد استحيت ان يراها الناس الذين لا يعرفونها تتحدث الى رجل فى احد شوارع البلدة . وكان رجلا تبدو عليه علائم الوجاهة الى حد ما وهو اطول من غيره من الرجال وقد ظهرت على وجهه المستدير امارات الشحوب حتى جعل الناس يتطلعون اليهمـــا بفضول وهم يسيرون فى طريقهم .
لكن الرجل سار خلفها . وقد عرف وهى تسير فى رزانة وتواضع انه يتبعها . واشفقت الا تفعل ما قررته امامه ، وهكذا قصدت الى حانوت صائغ كانت تعـــرفه ووقفت امام خوانه وطلبت ان ترى مشابك الشعر النحاسية المطلية بالفضة . وفيما كانت تنتظر جعلت تعبث باقراط من الفضة كانت فى متناول يدها . وفجاة وصل الوكيل الى الحانوت وتظاهر بانه لا يعرفها وقال للصائغ :
ـ كم ثمن هذا القرط ؟ .
فاجاب الصائغ :
ـ سازنه لتقدير ما فيه من الفضة ثم ابيعك اياه بالامانة وبقدر وزنه .
واعرض الصائغ عن بيع المشبك بعد ان راى امامه رجلا مكسوا بالحرير وتوسم فيه شاريا افضل من هـــذه الريفية ذات الرداء القطنى الازرق . ولم يسع المراة الا ان تنتظر واشاحت براسها عن العينين اللتين تختلسان النظر اليهـــا فى جراة . ووقف الرجل متكاسلا بينما وضع الصائغ القرط فى كفتى الميزان الدقيق . ثم قال فى صوت مرتفع :

ـ اوقيتان ونصف .

ثم استطرد يستحث الرجل فى صوت خافت :

ـ لكن اذا كنت تشترى هذا القرط لزوجتك الفاضلة فلم لا تضيف اليه زوجا من الأساور ؟ . هذا زوج يلائم القرط وسيكون هدية جميلة تحبها اى امرأة .

فابتسم الرجل حين سمع هذا الكلام وقال بغير مبالاة :

ـ ضمه اذن .

ثم استطرد ضاحكا :

ـ لكن ليست هذه الهدية لزوجتى . فانها ماتت منذ ستة اشهر .

وسارع الصائغ بوضع الاسورتين على القرط راضيا بهذه الصفقة ، وقال للرجل :

ـ اذن فلتكن هذه الهدية للزوجة الجديدة .

لكن الرجل لم يقل شيئا بل وقف مكانه وجعل ينظر أمامه ويمطط شفته . ولم يتظاهر مرة بأنه يعرف هذه الفلاحة أو يشعر بوجودها . ثم حمل ما اشتراه وخرج من الحانوت . وما كاد يدير ظهره حتى تنهدت الأم وتبعته بنظرات تشف عن حسدها لتلك التى ابتاع الحلى لها ، وكانت من لون محبب الى نفسها وطالما تاقت فى صباها الى نيل مثلها . والواقع أن هذه الحلى كانت عين ما زعمت أن زوجها اوصاها بشرائه . وكثيرا ما جعلت الأرملة الثرثارة تسألها عنها وتطلب ان تراها ، فكانت الأم تشعر بالحرج وتقول لها الأرملة فى خبث وشماتة عظيمتين :

ـ هل لن تلبسى أبدا تلك الحلى ؟ .

فأجابتها الأم قائلة :

ـ لست أجد ميلا لهذا . وسألبسها يوم يعود زوجى .

فلما ابتاعت الآن المشبك ودسته فى شعرها قفلت راجعة الى البيت وهى تفكر فى هذه الحلى الجميلة التى راتها . وتنهدت ولم تأنس من نفسها قدرة على انفاق النقود التى تكسبها بعرق الجبين فى شراء ما تتحلى به بعد أن بات مظهرها لا يعنى الآن احدا وليس أمامها الا أن تسير على هذه الوتيرة الحالية .

وخرجت المراة من باب المدينة وهى تدير فى راسها هذه الخواطر الموحشة وسارت فى الطريق القروى المؤدى الى قريتها وذهب بها الفكر الى بيتها والى طعامها وهو العزاء الوحيد الذى بقى بها .

وفجأة رات الرجل يقف امامها فى ظلال الشفق . رأته يقف فجأة كالشبح وامسك بمعصمها فى يده الكبيرة اللينة ولم يكن أحد قريبا منهما فى هذه اللحظة . فقد كان الهواء باردا مشبعا بوحشة الليل وقد آوى القــرويون الى بيوتهم ولم يتخلف الا من قضت الظروف ببقائه فى الخارج .

أمسك الرجــل اذن بمعصمها واحست بيده ووقفت جامدة مأخوذة بهذه المفاجأة .

ثم تناول الرجل لفافة الحلى الفضية التى كانت فى يده الثانية ودسها يدها التى امسك بها وأطبق أصابعها فوقها قائلا :

ـ انني اشتريت هذه لك وحدك . اشتريتها لك وحدك . وهى ملكك .

ثم ذهب وابتعد عنها وذاب فى ظل سور المدينة وبقيت وحدها تحمل الحلى فى يدها .

وفجأة ثابت اليها نفسها واسرعت خلفه راكضة هاتفة :

ـ لا يمكنني . لا يمكنني .

لــكنه ذهب .

ومع أنها اندفعت الى باب المدينة وجعلت تحدق بنظرها من خلال الأنوار المتراقصة المنبعثة من الحوانيت المفتوحة فانها لم تر له أثرا . واستحيت أن تدخل البلدة وان تنظر فى وجه هذا الرجل وذاك فى الضوء اليسير . وهكذا وقفت مكانها مترددة خجلى حتى ضاق بها الجنود المنوطون بالباب وقالوا لها :

ـ اذا كنت تنوين الخروج من الباب هذه الليلة فاخرجى لأن الوقت حان لاغلاقه حذرا من الشيوعيين . هؤلاء اللصوص الجدد الذين نكبتا بهم فى هذه الأيام .

فلم تملك الا أن تعود أدراجها وأن تواصل سيرها واجتــازت المرتفع الصغير وانحدرت منه الى الوادى . وبعد قليل دفعت الحلى فى صدرها .

وبزغ القمر منبسطا فاترا بارقا ولما وصلت الى الدار الفت الأطفال والعجوز نياما الا الفتى الذى بقى يقظان وما كاد يراها حتى هتف : انى خفت عليك يا أمى . وكنت أريد أن أخرج للبحث عنك لولا خوفى من ترك الأولاد وجدتى .

لكنها لم تستطع أن تبتسم حينما رأته ينعت أخويه بالأولاد كأنما هو رجل حقا ، وقالت له :

ـ نعم . أنا رجعت أخيرا وأشعر بتعب شديد .

ثم ذهبت والتمست بعض الطعام فتناولته ولم تزل الحلى في صدرها .

ولما فرغت من الأكل تطلعت الى الفراش فى ضوء الشمعة فرأت الفتى قد نام أيضا . فمدت الستار وجلست الى الخوان واخرجت لفافة الحلى من صدرها وبسطت الورق الناعم الذى لفت به .

رأت زوج الأساور لامعا ناصعا . وبدا القرط جميلا فى عينيها . ورأت فى كل قرط ثلاث سلاسل دقيقة تتدلى منها صور منوعة . فتناولته بأصابعها وجعلت تنظر اليه عن كثب . فرأت سمكة ضئيلة مدلاة من احدى السلاسل ، ومن الثانية جرسا صغيرا ومن الثالثة نجمة دقيقة . وكانت جميعا جميلة الصنع دقيقة الشكل تستهوى قلب المرأة . ولم يتح لهـا من قبل أن تحمل فى يدها الخشنة السمراء مثل هذه الحلى . وجلست مكانها تدمن النظر اليهـا ثم تنهدت ولفتها ثانية فى الورقة الرقيقة وهى لا تدرى ماذا تصنع بها ولا كيف تردها الى ذلك الرجـل . على انها حينما تسللت تحت الغطاء بجانب الأولاد لم تستطع الى النوم سبيلا . وبقيت وقتا طويلا ساهرة مسهدة ، ولما دب النوم الى عينيها ألم بها يسيرا متقطعا . وكانت ترى فى نومها حينا أشياء غريبة بارقة وتشعر حينا آخر بيد الرجل الحارة فوق يدها .

الفصل التاسع

لم تر الرجل بعد طوال فصل الربيع ، وان بقيت ذكراه فى نفسها .. ثم رأته بعد ذلك ذات يوم فى أوائل الصيف حين بدأ القمح يتلون بلون ذهبى يسير وبسقت سنابل الأرز خضراء يانعة . وكان قلب المرأة فى هذه الأثناء يتدفق حرارة ويفيض عاطفة .

وجاء يوم فى مطلع هذا الصيف سكن هواؤه وسادت حرارته . وأخذت الشمس تسكب حرارتها فى بطن الوادى كالخمر الصافية الحارة . وفى أمواج الحـــرارة المنبسطة فى أرجاء شارع القرية الوحيد اخذ الأطفـال يتراكضون ويلعبـون عراة تلمع اجسـادهم الملساء عرقا .

وقفت الأم فى مدخل الدار فى هذا الهواء الساكن وخيل اليها انها لم تر من قبل مثل هذه الحرارة الفجائية فى فصل الصيف .

وركض طفلها الأصفر الى حافة الترعة . ومضى الفتى الى حقل القمح الفض وقد خلع سترته وشمر سرواله ووضع على راسه قبعة رحبة عتيقة من الخيزران كانت لأبيه من قبل . وجلست البنت في ظلام البيت تتنهد ووصلت زفراتهـــا الى سمع الأم . وبقيت العجوز وحدها متعلقة بهذه الحرارة فقد جلست فى اشعة الشمس ونزعت رداءها عن هيكلها المهدم الفـانى التماسا لحرارة الشمس التى نفذت الى عظامها العتيقة وثدييها الضئيلين البـــارزين من صدرها كأنهما قطعتان من جلد جاف مغضن . ولما رات زوجة ابنها قالت لها :

ــ انا لا اخاف الموت فى الصيف يا ابنتى . ان الشمس لمن كانت عجوزا جافة مثلى كالدم الجديد .

لكن الأم لم تحتمل هذه الحرارة الخارجية . فقد كانت تحس فى نفسها حرارة تماثلها .. وخيل اليهـــا ان الدم يتدفق اليوم فى عروقها حارا . فتركت الدار وقالت للعجوز :

ــ لابد أن اذهب لرى الأرز بعض الوقت . فان الشمس اليوم تجفف كل شىء يا أمى .

وحملت فأسها ودلويها وسارت فى الطريق الضيق الى قناة اخرى صغيرة تمتد عالية عن مستوى حقـــول الأرز . وسرى عنها حين آنست الهواء فى الطـــريق اخف حدة وحرارة من هواء الشارع المحبوس .

وتابعت سيرها دون ان تصادف احدا فى الطريق . فقد كانت ساعة القيلولة حين يأوى الرجال الى بيوتهم التماسا للراحة . وكان اذا خرج رجل الى حقله عمد الى الظل اتقاء الحرارة الشديدة التى يتعذر فيها العمل فيتمدد نائما تحت شجرة ويغطى وجهــه بقبعتهدفعا للذباب . بينا تقف دابة قربه وقد تدلى راسها وتخدر جسدها بتأثير الفتور والحرارة . لكن الأم استطاعت احتمال هــذه الحرارة لأنهــا آتية من السماء وليست محبوسة بين جدران او ليست منبعثة من شرايينها .

واخذت تعمل بعض الوقت فى حقول الارز . فصنعت ثغرة فى احد الحقول واحتفرت مجرى صغيرا مؤديا الى القناة . ثم حملت دلويها المثبتين الى المحور الخشبى ودستهما فى ماء القنـــاة واحدا بعد آخر وسارت بهما الى المجـــرى الذى احتفرته فصبت فيه ماءهما وكررت هذه العملية مرات وجعلت تراقب التربة وهى تتشبع

بالماء وخيل اليها انها تغذى كائنا حيا وتمده بالحياة .
وفيما كانت تقوم بهذه المهمة بسطت قامتها مرة وتركت الدلوين وذهبت الى حافة القناة المخضرة وجلست قليلا التماسا للراحة . وبينما هى جالسة صوبت نظرها الى ناحية القرية فرأت رجلا يقف ويسأل العجوز ثم شاهدته يتحول ويقصد الى حيث كانت جالسة عند حافة القناة .
تفرست المرأة فى الرجل وهو آت الى ناحيتها وما لبثت أن عرفته .
كان وكيل المالك . وفيما كان يدنو منها تذكرت أن حليه ما زالت فى حوزتها واطرقت براسها ولم تدر كيف تحدثه عنها دون أن تردها اليه . ولم تجرؤ على العودة الى الدار والتماس الحلى لردها الى الرجل فى ريعان النهار وهى معرضة لكل انسان يراها وللعجوز المستيقظة التى لن يفوتها ذلك .
ثم وصل الرجل اليها . فنهضت الأم متباطئة لأنها أدنى منه مستوى ولأنها امرأة أمام رجل . لكنه قال لها فى يسر وفى غير كلفة :
ـ انى ما جئت أيتها الزوجة الطيبة الا لالقاء نظرة على زراعة القمح هذه السنة وتقدير كمية المحصول فى الحقول ..
على انه فيما كان يخاطبها راحت عينه تتمشى فى جسدها وهى لا ترتدى بسبب الحر سوى سترة واحدة وسروال من قماش أزرق أنحله طول الارتداء والتصق بجسدها ، واستقرت نظراته أخيرا عند قدميها . ولما تملكها الخوف من نفسها غمغمت بخشونة :
ـ الحقول هناك . فانظر اذن . وقدر .
فألقى الرجل نظرة على الحقول من مكانه وقال بلهجته المرحة :
ـ هذه حقول طيبة أيتها الزوجة الفاضلة وسيكون محصول العام افضل من الأعوام السابقة .
وتناول كراسة صغيرة مطوية بسطها وكتب فيها شيئا بقلم يشبه العصا الدقيقة لم تر له نظيرا من قبل ، اذ لم يغمسه الرجل فى مداد كما كان يفعل كاتب القرية ، بل كان مداده يجرى أسود من تلقاء نفسه . وجعلت الأم تراقبه وهو يكتب وقد خامرها بعض الفضول وسرت فى نفسها روح الانفعال والزهو لأن رجلا مثقفا فاضلا مثل هذا الرجل قد نظر الى مثلها حتى ولو لم يكن ينبغى له أن ينظر ، وقررت الا تتكلم عن موضوع الحلى هذه المرة .

ولما فرغ الرجل من كتابته قال لها باسما وهو يمطط شفته :
ـ اذا كان عندك وقت فأريني حقل الشعير لأني انسى دائما اين حقلك واين هو حقل عمك .
فقالت له مكرهة :
ـ حقلي هناك حول التل .
وغضت بصرها وتكلفت النظر الى الفأس كأنما تهم بحملة ثانية .
فقال الرجل مرددا كلماتها :
ـ حول التل .
ثم رقق صوته وجرى بيده الكبيرة اللينة فوق شفته وقال لها باسما :
ـ لكن أريني هذا الحقل أيتها الزوجة الطيبة .
وجعل يدمن النظر اليها بصراحة وكان لنظراته قوة جعلتها تتحرك الى حد ما ، فألقت الفأس من يدها وسارت تتبعه شأن النساء أن يمشين مع الرجال .
وكانت الشمس ترسل عليهما أشعتها الحارة والأرض تحت اقدامهما دافئة خضراء يكسوها العشب الرطيب .
وفيما هي تسير أحست فجأة بالدم يجري في عروقها عذبا رفيقا بتأثير الحرارة . وداخلتها دون أن تدرك السبب غبطة عميقة وهي تتطلع الى هذا الرجل الذي يسير امامها وتنظر الى عنقه القوي الشاحب الذي يلمع العرق فوقه والى قوامه المتثني في رداء الصيف الرقيق الناعم والى قدميه المكسوتين بجوارب بيضاء نظيفة وحذاء من قماش أسود .
وقد جعلت تسير صامتة فوق قدميها العاريتين ودنت منه في سيرها ونفذت الى انفها رائحته التي هي مزيج من دم الرجل ولحمه وعرقه . وما كادت هذه الرائحة تنفذ الى خياشيمها حتى هفا بها الحنين وهزها الشوق كل الشوق حتى لقد ذعرت من نفسها ومما قد تندفع اليه . وهتفت في صوت خافت وقد وقفت فوق الطريق المغطى بالحشائش :
ـ اني نسيت شيئا لحماتي .
ولما استدار ونظر اليها قالت ثانية في صوت متهافت أجش وقد فاض جسدها فجأة حرارة ورخاوة :
ـ نسيت شيئا كان يجب أن افعله .

ودارت على عقبيهـا وسارت مسرعة وتركته فى مكانه يحـدق خلفها . ولما وصلت الى الدار تسللت الى مدخلها دون أن يفطن اليها أحد . فقد كان الجميع نياما . واشتدت الحرارة بمضي الساعات. وجلست زوجة العم فى مكانها نائمة فاغرة الفم وقد نام طفلهـا الرضيع فوق صدرها . وكانت العجوز نائمة كذلك مدلاة الرأس مكشوفة الصدر كما تركتها . وخرجت البنت من الغرفة الخانقة وتمددت متوسدة حجرا رطبا ونامت بدورها . كما انطرح الفتى عاريا تحت شجرة الصفصاف ونام كذلك .

وقد تغير الطقس كذلك عما كان . فقد اشتد القيظ وشحب الضوء المنتشر وتجمعت فى السماء من ناحية الروابى سحب عظيمة سوداء . لكنها كانت مضيئة الحوافى كأنمـا ينيرها ضوء داخلي غريب . كما خمدت أصوات الطيور والحشرات وخيم السكون فوق جميع الكائنات .

لـكن الأم كانت أبعـد ما تـكون عن النوم . وذهبت بخفة الى الغرفة الداخلية المظللة الساكنة وجلست فوق الفراش وقد جعل الدم يتدفق فى أذنيها غزيرا . ذلك الدم المتولد فى جسدها القوى المنهوم الجائع .

وقد فطنت الآن الى ما كان يساورها ويثقل على نفسها . ولم تحاول فى هذه اللحظة انتوهم نفسها كما تفعل امرأة من أهل المدن فى مكانها فتزعم أنها مريضة معتلة . كلا . كانت أوفر بساطة وأبعد عن التجاهل وهى تعلم علم اليقين ما بها . واستولى عليهـا ذعر شديد لم تحس مثله فى حياتها . فقد أدركت أن هذا النهم الذى يساورها الآن سيزيد استعارا وضراما اذا لم . .

وهى لم تحلم بأنها ستقوى على الرفض والتمنع وهى تعلم الآن أن هذا النهم الذى بها هو نفس النهم الذى به . وجعلت تئن أنينا عاليا وتناجى نفسها قائلة :

ـ من الخير الا ينالنى . أواه . . كم أود الا ينالنى . وأن أنجو .

على أنها نهضت عن الفراش حتى وهى ترسل هذا الأنين وغادرت القرية النائمة وعادت الى الحقول .

جعلت تسير تحت السحب السوداء العظيمة المنيرة الحوافى تحوطها الروابى مشربة بالخضرة فى هذه الظلال .

ذهبت تحت هذه السماء فى الطريق الضيق الملتوى الى حيث

كان ينعطف حول معبد صغير مهجور ، حيث وقف الرجل عند بابه ينتظرها .
ولم تستطع ان تجاوزوه .. كلا .. فقد دخل المعبد وانتظر .. فتبعته الى الباب وارسلت نظـــرها . فاذا هو واقف فى الداخل يترقب وقد لمعت عيناه فى المكان الظليل كعينى الحيوان الوحشى . فدخلت .
وقفا مخلوقين احدهما الى الآخر فى الضوء الكليل .
كانا مخلوقين غارقين فى حلم .. مستيئسين .. لا توقفهما قوى الدنيا فى هذه اللحظة .. وتأهب كلاهما للأمر المحتوم .
غير ان المراة امسكت لحظة . فقد أفاقت من حلمها ورات آلهة المعبد الثلاثة .. كبيرهم كهل وقور يحدق امامه ، والى جانبيه تابعان اقل شأنا .. وهم جميعا ارباب طيبون اقيمت انصابهم فى جانب الطريق للمسافرين ممن يتعبــدون أو يلتمسون الاعتصــام بالمعبد .
فتناولت الرداء الذى وضعته جانبا وذهبت الى الآلهة فطرحته فوق رءوسها وحجبت اعينها الناظرة المحدقة .

الفصل العاشر

فى نفس هذه الليلة هبت الريح فجـــأة هوجاء عاتية من ناحية الروابى النائية ، واكتسحت امامهـــا سحب السماء الـكثيفة المطيرة . وانهمرت الأمطار غزيرة فبددت حرارة النهار . ولما انقشعت الغيـوم بزغ الفجـــر ساكنا مشرقا وبدت صفحة سماء صــافية الاديم .
وقد أتت هذه العاصفة فيما جاءت به بنهاية العجوز . فقد نامت فى مكانها طويلا وقت القيلولة . ولما غربت الشمس تعرض جسمها العارى لهبوب الريح . حتى اذا عادت الام الى الدار فى الأصيل صامتة وكأنها عائدة من الحقـــول ومن العمل الشريف . لفت العجوز فى فراشها ترتعد بردا وقد آلمت بها الأوجاع والآلام .. وهتفت حينما راتها :
ـ ان ريحا شديدة حلت بى يا ابنتى . وريحا خبيثة أصابتنى !.
وجعلت تتوجع ومدت يدها المغضنة ، فتناولتها الام واحست بها يابسـة ملتهبة .

والحق ان الأم قد طابت نفسها بهذا الذى وجدته . والحق انها طربت حين آنست هذا التطور الذى يشغل ذهنها ويستغرق تفكيرها وينسيها ذلك الفعل العـــذب الخبيث الذى اقترفته هذا اليوم . وغمضت قائلة للعجوز :

ـ ان السماء متجهمة ، وكدت أعود لـكى ارى اذا كنت جالسة تحت هذه السماء الغاضبة . لـكنى قـدرت انك ستنظرين لونها وتحتجبين عنها .

فقالت العجوز مولولة :

ـ انى نمت طويلا . وأخذنا النوم جميعا .. ولما استيقظت رايت الشمس ذهبت وأحسست ببرد الموت فى جسدى .

عند ذلك أسرعت الأم ودفأت بعض الماء ووضعت فيه زنجبيلا وأعشابا وشربت العجوز منه ، غير ان وطأة الحمى اشتدت عليها فى الليل وجعلت تشكو ضيق التنفس وتقول ان عفريتا جالس فـوق صدرها يدس سكينة فى رئتيها . وما هى الا دقائق حتى كفت عن الكلام واخذت تتنفس بجهد من رئتيها المطبقتين .

وقد سرت الأم ان وجدت فى هذه المناسبة ما يحول دون نومها . ولم يفارقهـا هـذا السرور وهى جالسة طول الليل الى جانب العجوز تسهر عليها وتقدم لها الماء كلما توجعت وتطرح الغطاء فوقها اذا دفعته عنها شاكية وطأة الحرارة وهى ترتعد فى نفس الوقت .

وأما فى الخارج فقد تكاثف الليل وانصبت أمطار غزيرة تخللت السقف المصنوع من القش وانسابت الى ركن العجوز الذى اقيم فيه فراشها . فأزاحته الأم من مكانه وطرحت حصيرا فوق فراش الاولاد حتى تدفع عنهم الماء المتسرب من السقف . وبرغم هذا كله فقد طابت نفسا اذ وجد ماتفعله وما يستغرق تفكيرها طوال الليل .

ولما طلع النهار زادت حال العجوز سوءا ، فأرسلت الأم فتاها لاستدعاء العم الذى جاء مع زوجته وجاء بعـده بعض الجيران . ووقفوا جميعا يتطلعون الى العجوز التى تمددت فى مكانها وهى لا تكاد تعى ما حولها وقد اذهلتها الحمى والألم الذى كانت تحسه كلما تنفست . وجعل كل واحد منهم يصف الدواء الذى يراه علاجا لحالة العجوز . وأخذت الأم تروح وتغدو مهرولة لـكى تجرب هذه الوصفات جميعا . ثم أفاقت العجوز ورأت الجمع الذى يحف بها . فقالت وهى تلهث من صدر مثقل : هنــــا عفريت يجثم فوقى ويسمرنى .. ساعتى .. ساعتى .

فاسرعت الأم الى جانبها ورات أنها تريد ان تقول كلاما تعجز عن نطقه . وكانت العجوز تشد بيد مرتعشة أطراف الكفن الذى حفل بالرقع ، وقد كانت تضحك كلما أضيفت اليه رقعة وتقول انهـــا ستعيش حتى تبليه . غير أنهـــا جعلت الآن تشده بيدها فأحنت الأم رأسها وسمعتها تلهث قائلة :

ــ هذا الكفن .. كله رقع .. ابنى .

وجعل الحضور يتفرسون فيها عاجبين متسائلين .. غير أن الفتى قال من فوره :

ــ عرفت ما تريده جدتى يا أمى . هى تريد ان تلبس الآن كفنها الثالث . الكفن الذى قال ابى انه سيرسله اليها . وكثيرا ما قالت انها ستعيش حتى تبلى الذى تلبسه فى الوقت الحالى .

فلما قال الفتى هذا الـكلام اشرق وجه العجوز قليلا وهتف الجميع قائلين : ما أقدر هذه العجوز وأبسل قلبها ! ها هى ذى تريد كفنها الثالث .وسيتحقق لها ما كانت تتمنى .

وانبسطت قليلا أســارير وجه العجوز الغــائر وقالت لاهثــة الانفاس :

ــ لن اموت حتى يصنع الكفن والبسه .

وبادرت الأم لتحقيق هذه الرغبة . فعهدت الى العم بشراء الكفن وقالت له :

ــ اشتر القماش من اجود الأنواع . وسأرد لك الثمن غدا اذا كان الآن فى متناول يدك .

فلما استقر راى الأم على ان تهيىء للعجوز افضل الاقمشة ، ولما ساد السكون ليلا حفرت الأم أرض الغرفة وتناولت النقود الفضية التى اخفتها واخذت منها القدر اللازم حتى تمضى العجوز الى نهايتها قريرة العين راضية .

والحق ان ذكرى هذا العمل الذى أتته وكانت تجتهد فى نسيانه وتغييبه فى أعمق اعماق ذاكرتها وتتشاغل دونه راضية بهذا التشاغل ــ هذه الذكرى المقيمة الدائمة قد رققت قلبها وحفزتها الى التفانى فى مرضاة هؤلاء الذين يتصلون بها . وكان يسكن نفسها ويخفف من وقع هذه الذكرى الخفية أن تتوفر على اسداء كل ما يتسع له ذرعها من الاحسان والمعروف والخير . وقضت ليلتين لم تذق فيهما طعم النوم وهى تجهد نفسها راضية لا تضيق بالأولاد ولا تنقم منهم وتتجه الى العجوز المائتة بقلب يسيل رقة ، ونفس تذوب عذوبة

وحنانا . ولما جاء العم بالقماش امسكته أمام عينى العجوز وهتفت فى سمعها بصوت مرتفع اذ كلما مرت الساعة زادت العجوز صمما وعمى :

ـ تشجعى يا أمى وتشددى حتى أصنعه .

فقالت العجوز فى جلد نادر :

ـ نعم لن أموت .

وان كانت فى الواقع قد زادت سوءا حتى أصبحت لا تقوى على الكلام بله التنفس ، وكلما تنفست خرجت منها حشرجة اليمة تثير الرثاء والأسى .

وبادرت الأم بصنع الرداء وكان من قماش احمر اللون كثوب العروس . وجعلت العجوز تراقبها وهى تصنع وتدمن النظر اليه .

ولم تعد العجوز تقوى على ازدراء طعام أو شراب . بل عجزت حتى عن شرب اللبن الدافىء الذى اعتصرته امرأة طيبة من ثدييها لما يقال من أن هذا اللبن البشرى يدفع الموت احيانا عن الكهول المحتضرين .. وكانت العجوز تتعلق بالحياة منتظرة لا يمسكها سوى هذا الهواء اليسير الضئيل الذى تتنفسه .

وجعلت الأم تخيط الثوب بلا توقف والجيران يأتون لها بما تحتاج اليه من طعام حتى لا تنقطع عن الخياطة . وتم صنع الثوب فى نهار وشطر من الليل . وكان العم وزوجته وبعض الجيران واقفين عن كثب يرقبون صنع الثوب . بل لقد كانت القرية كلها يقظة تتساءل ان كان يقدر للأم أن تفوز فى هذه المساجلة بين الموت والحياة أو يغلبها الموت على امرها .

لكن تم أخيرا صنع الكفن الأحمر . ورفع العم العجوز بينا جعلت الأم وزوجة العم تضمان الثوب الجديد فوق الجسد المهدم الفانى الذى حال لونه ويبست أطرافه كأنه أفرع عتيقة من شجرة ميتة . بيد ان العجوز وعت لبس الثوب . ولم تعد تقوى على الكلام الآن . بل تمددت وجعلت تحشرج وفتحت عينيها واسعتين وابتسمت عن فم لا اسنان له وقد أدركت أنها عاشت وغالبت الموت حتى لبست كفنها الثالث وهو كل ما كانت تتمناه فى حياتها . وهكذا ماتت قريرة العين مظفرة .

***

على ان الأم ما فتئت تتشاغل وتنهمك فى كل شىء رغم الفراغ من دفن العجوز وانتهاء حاجتها الى العمل .

وقد دأبت على العمل فى الحقول على نحو غير معهود ، واذا أخذ الفتى فى اتمام عمل بذاته هى هتفت فيه بخشونة :

ــ دعنى أفعل هذا . انى شديدة الحزن لذهاب العجوز ، وكم الوم نفسى لأنى لم أعد الى البيت فى ذلك اليوم حتى ارى انها فى مأمن من العاصفة .

وجعلت أهل القرية يفهمون انها شديدة الحزن لذهاب العجوز وانها تلوم نفسها حتى امتدح كثيرون مسلكها واثنوا عليها وكانوا يقولون :

ــ ما اطيب هذه المرأة وأشد وفائها .

وكانوا يهونون عليها ويطيبون خاطرها ويقولون لها :

ــ لا تحزنى أيها الزوجة . كانت عجوزا وجاء أجلها . وماذا ينفع الحزن اذا جاء أجل الانسان ؟ . كفاك عزاء ان زوجك على قيد الحياة وأولادك أحياء . تشجعى أيتها الزوجة الطيبة .

لكنها كانت فى حاجة الى هذه المعاذير لاخفاء خوفها وانقباضها . فقد كان لها أن تخاف وان تنقبض حقا . وحآن الوقت لـكى تنبش قلبها حتى وهى تعمل فى الحقل وتستخرج منه هذا الخوف الذى بقى كامنا فيه منذ ساعة العاصفة . وقـد طابت نفسها كل هذه الأيام بل طابت نفسا بموت العجوز وكانت تناجى نفسها محزونة بهذه الـكلمات : « من الخير أن العجوز ماتت حتى لا تعرف ما يقع ، ان كان لابد من وقوعه » .

ومضى شهر وهى خائفة . ومضى شهران وثلاثة وجاء أوان الحصاد وتم جنى المحصول . فاذا ما كان يساورها من المخاوف كل يوم قد استحال الآن يقينا وحقيقة واقعة . ولم يعد يجديها الشك وأدركت ان أسوأ ما خافته قد وقع وأن السهم قد نفذ ، وهى ام لأولاد وزوجة طيبة مبجلة فى قريتها . وجعلت تلعن يوم العـاصفة وتلعن شهوتها العمياء . وقد كان ينبغى لها أن تعلم علما لا ريب فيه أن تلك اللحظة ستثمر وتنتج أثرها وقد كان جسدها فائرا متفتحا مترقبا وان عقلهـــا كانت تصهره نار آكلة ونفسها تذوب جوعا ونهمـــا . وهل كانت تحلم بغير هذه النتيجة وقد كان الرجل كذلك قوى البنية موفور الحيوية ؟ .

ها هنـــا اذن لون غريب من الأمومة قضى عليــه أن يلوذ بالسرية والـكتمان وان تحصى أعراضـــه مقرونة بالجزع والذعر فى وحشة الليل والأولاد نيام . ومهما انتابها من أسباب الاشمئزاز فلم تكن تقوى

على أن تكشف عما يساورها . ومن عجب انها لم تأنس ابدا هــذا الاشمئزاز وهذا التقزز حين حملت اطفالها الشرعيين . فأما الآن فقد كانت تفشي بالطعام وتلفظه قبل أن يستقر في جوفها . وخيل اليها كأن هذه البذرة التي تنبت في أحشائها شديدة القوة موفورة الحياة حتى لتنمو في بطنها من تلقاء نفسها وكأنهـــا اعشاب برية . وكانت تستأثر بجسدها في غير رحمة وهي تجهد الا تترك ما يتم عنها .

وكانت تقضي الليالي متتابعة جالسة في فراشها عاجزة عن التمدد والنوم . وتروح تتوجع وتناجي نفسها بهذه الكلمات :

ـ يا ليتني كنت وحدى كما كنت وليس في بطني هذا الذي بها . يا ليتني كنت وحدى كمـــا كنت . اذن لرضيت نفسا وقنعت بحالي .

وكان يخطر لها أحيانا وهي في ثورة من امرها أن تعلق نفسها في قائم الفراش وتقضي على حياتها . ولكنها لم تستطع الى هــذا سبيلا . فقد كان بجانبها اولادها . ولما نظرت الى وجوههم الساكنة الهادئة لم تقو على انفاذ هذا الخاطر الجنوني ولم تطق أن تتصور نظـرات الجيران الى جثتها الهامدة وهم يفتشون عن أسباب موتها . فلم يكن امامها اذن الا أن تعيش .

على أن هذه المراة رغم آلامها لم تبرأ من رغبتها في هذا الرجل ، وان كانت تمقت نفسها كلما هزها الشوق اليه . بل لقد خيل اليها انه يربطها اليه رباط وثيق بهذا السر الخفي الذي ينمو في احشائها . ومع أنهـــا كانت تعض بنان الندم لاستسلامها اليه فقد كانت لا تفتأ تحن اليه نهارا وليلا . غير أنهـــا استحيت أن تلتمسه وخافت أن تراها اثميون كذلك . ولم يسعها الا الانتظار حتى يعود ثانية . فقد بدا لها انها اذا ذهبت لالتماسه فهي هالـكة حقا ومتاع لـكل رجل من بعده .

لـكنها آنست في هذا الشأن ظاهرة غريبة . فان الرجل قضى وطره منها وبث ما كان بينه وبينهـــا . ولم يأت مرة واحدة طوال الصيف حتى انتهى حصد الحب ووجب أن يعـــود . ولما جاء لزم الصمت والتحرز كدأبه واقتضى الـكيل كاملا حتى لم يتمالك الفتى أن هتف عجبا .

ـ كيف أغضبناه يا أمي وهو في العام الماضي كان رحيما بنا ؟ .

فأجابته الأم في تبرم :

ـ وكيف اعرف ؟ .

لكنها كانت تعرف . وقد عرفت حقا اذ رأته معرضا عنها .
بل انه لم يتكلف أن ينظر اليهـــــا مرة واحـدة اثناء ولائم الحصاد رغم انها اغتسلت ومشطت شعرها وسوته بالزيت وارتدت ثيابا نظيفة ولبست جوربها الوحيد وحذاءها الذى صنعته يوم دفن العجوز .
لبست اذن هذه الثياب وقد توردت وجنتاها أملا خامدا وحياء ولمعت عيناها بتأثير مخاوفها المكنونة وجعلت تروح وتغدو يوم الوليمة مهرولة أمام عينيه وراحت تخاطب هذا وذاك بصوت عال وهى تتكلف المرح ، حتى لقد تفرست نساء القرية فيها واخذتهن الدهشة من تورد وجنتيها ولمعان عينيها وارتفاع صوتها وتكلفها المرح وهى التى كانت تأخذ نفسها بالهدوء الموفور فى مجلس الرجال .
لكن الرجل لم يخلع عليها نظرة واحدة رغم هذا كله . وقد ذاق الخمر الجديده المصنوعة من الأرز وهتف للفلاحين قائلا :
ـ أريد لنفسى قدرا او اثنتين من هذه الخمر أيها المزارعون واطلب أن تحكموا سد القدر بالطين حتى تبقى عذبة سائغة .
بيد أنه لم يصوب اليها نظرة واحدة . وكانت اذا وقفت أمامه تخطاها بنظره وكأنها زوجة عادية لا يعرفها .
عند ذلك لم تطق المرأة صبرا . أجل . لم تستطع ان تطيق هذا رغم ادراكها أنه ينبغى لها أن تسر باعراضه عنهـــا وبانتهاء حاجته منها . فذهبت الى بيتها فى ابان الوليمة واخرجت تلك الحلى التى أهداها اياها من قبل من مخبأها السرى وهى ترتعش وتهتز انفعالا ، وعلقت القرط فى أذنيها بعد أن نزعت منهما السلك الدقيق الذى جعلته فيهما السنين الطوال حتى لا يسد ثقباهما . ودفعت زوج الأساور فى يدها الخشنتين وخرجت مرة ثانية لـكى يراها ووقفت بين النساء اللاتى أقمن على خدمة الرجال اثناء الوليمة . ولما رأتها الأرملة الثرثارة وكانت تلبس حذاء جديد وتدفع قدميها دفعا حتى يراه كل انسان هتفت قائلة :
ـ حسننا أيتهـا الزوجة الطيبـة . اراك اشـتريت الحلى اخيرا وتحليت بها أيضا رغم أن زوجك لم يزل بعيدا عنك .
فاهت الأرملة بهذه الكلمات فى صوت عال حتى التفتت النسوة جميعا وضحكن بل التفت الرجال ايضا وابتسموا لمـا رأوه من مرح هذه المرأة . ولما سمع الوكيل هذا الضحك وهذا الكلام اللاذع الذى عنيت به المرأة رفع رأسه عن صحفته فى عجرفة وفى غير مبالاة وجعل

فكاه يتحركان لامتلاء فمه بالطعام وقال بغير اهتمام وبصوت عال حتى تسمعه :

ـ اى امراة تقصدون ؟ .

ووقع نظره على وجهها المورد وتخطاها بعينيه كأنه لم يرها ابدا وانهمك فى الاكل من جديد . ولما أحست المراة بالتورد يفيض من وجهها ابتعدت مسرعة وضحك الجميع حين رأوها تجرى حياء من مرحها .

ومنذ ذلك اليوم حرصت المراة على العزلة والابتعاد عن أهل القرية جميعا تبقى وحدها مع أولادها اخفاء للكائن المروع الذى ينمو فى احشائها .

غير أنها كانت تفكر نهارها وليلها فيما يمكن أن تفعل ، وكانت أمام الناس تواصل العمل فى الحقول وتخزن الحب للشتاء ولما حل عيد الخريف وكان فى كل بيت عيد وامتلأت البيوت بالحب والطعام لم تجد الأم للعيد طعما وان كانت مع ذلك صنعت بعض الفطـائر لأولادها تمشيا مع العادة . ولما بزغ القمر ليلة العيد جعلوا يأكلون الفطائر خارج البيت تحت أشـجار الصفصاف ويستمتعون بضوء القمر الفضى الذى أحال ليلهم نهارا ساطعا . غير أنهم كانوا يأكلون فى وجـوم . واستشعر الأولاد حاجتهم وحاجة امهم الى الفـرح والبهجة حقا وقال الفتى اخيرا فى رزانة :

ـ يخطر لى أحيانا ان ابى لابد أن يكون قد مات لأنه لا يعود ابدا .

فانتفضت الأم حين سمعت هذه الكلمات وقالت بسرعة :

ـ انت ابن عاق حتى تتكلم عن موت ابيك .

لـكن هذه الكلمات أوحت الى نفسها خاطرا وبعثت فى ذهنها فكرة .

وقال الفتى مرة ثانية .

ـ يخطر لى أحيانا ان اذهب للبحث عن أبى ، وبامكانى أن أذهب اذا اعطيتنى مبلغا صغيرا ، وفى قدرتى أن احمل ملابسى الشتوية فوق ظهرى اذا تأخرت فى البحث عنه وايجاده .

عند ذلك أشفقت الأم وقالت له لـكى تحول افكاره عن هـذه الناحية :

ـ كل فطيرة اخرى يا ولدى ، وانتظر سنة ثانية . وماذا افعل اذا ذهبت انت ولم تعد أيضا ؟ انتظر حتى يكبر اخوك الأصغر ويحل محلك .

لـكن الابن الأصغر هتف بقوة اذ كان عنيدا متشبثا برايه :
ــ لكن اذا ذهب أخي فسأذهب انا ايضا معه .
وزم شفتيه الصغيرتين القرمزيتين ونظر الى امه غاضبا . فقالت الأم للفتى مؤنبة :
ــ هل رأيت ما تكون النتيجة وانت تقول هــذا الــكلام وتشتت عقله ؟ .
ولم تشأ الأم أن تسمع كلاما آخر فى هذا الشأن .
لكن هذه الفكرة علقت بذهنهـــــا ولم تبرح خاطرها . وجعلت تستعرضها وتتأملها وتقلبها على وجوهها . فها هى ذى بقيت وحدها أعواما خمســة كاملة . فهل لم يكن ممكنا أن يعود فى أثناء هذه المدة اذا كان فى نيته أن يعود حقا ؟ .
لقد مضت أعوام خمسة . ولابد ان يكون فى عداد الموتى . ولابد انها أرملة ، بل ارملة منذ سنوات دون أن تدرى . وليس وكيل المالك متزوجا .
هى ارملة وهو غير متزوج . فقد سمعته يقول ان زوجته ماتت فى العام الماضى ولم تهتم اذ ذاك بكلامه ، اذ ما كان يعنيها من هذا الكلام وهى لم تكن قد ترملت بعد . اجل .. لابد أن تكون ارملة حقــا .
وفى هذه الليلة باتت ساهرة تسامر القمر وقد نام الأولاد وهجعت القرية الا من كلب ينبح هنا وهناك . وقد استقر فى نفسها كلما مضى الوقت انها أرملة . فاذا كانت كذلك ، واذا تزوجت منه . حالما يقبل فهل تصلح ما افسدت ؟ .
ومن عجب أن الظروف عجلت بتحقيق هذا الــذى ساورها فان الفتى . لم ينس عزمه واخذ يعمل كالمحموم فى حرث الحقول وبذر القمح ، ولما تم له ذلك ركب راسه واصر على الذهاب فى يومه لالتماس والده .
شب الفتى طويل القامة كابيه . نحيلا صلبا كعود الخيزران . ولم يعد حدثا صغيرا يسكت على رفض رغباته . ونشأ هادئا عنيدا لا ينزل عن عزم يضمره . وقال لأمه :
ــ دعينى أذهب الآن للبحث عن ابى . اعطينى اسم المدينة التى يقيم فيها والبيت الذى يسكنه .
عند ذلك قالت الأم فى يأسها لصرفه عن عزمه :
ــ لــكنى أحرقت رسائله ولابد من انتظار العام الجـــديد حين تأتينا رسالة منه .

فهتف الفتى :
ـ نعم . لكنك قلت انك تعرفين العنوان
فقالت بسرعة :
ـ هذا ما كنت أظنه . لكنى نسيت بسبب مشاغلى الكثيرة وبسبب وفاة جدتك . وقد تذكرت انى نسيت لأنى أردت أن أرسل رسالة فى أثناء مرضها فلم أتمكن اذ نسيت العنوان .
فلما نظر الفتى اليها معاتبا وهو لا يكاد يصدقها هتفت غاضبة :
ـ وكيف كنت أعرف انك ستفكر فى الذهاب وتترك كل الأعمال على رأسى بعد أن كبرت واصبح يمكن الاعتماد عليك ؟ . لم أحلم أبدا بأنك ستترك امك . وانا اعلم ان رسالة ستردنا فى السنة الجديدة ككل سنة .
وهكذا لم يستطع الفتى الا أن يطرح عزمه للزمن وجعل ينتظر ضيق الصدر متبرما . وقد وطن النفس على رؤية أبيه . ومع أنه لم يعد يتذكر هذا الأب ، فقد خيل اليه أن فى ذاكرته منه صورة الرجل الطيب المرح وتاقت نفسه الى رؤيته . فانه لم يعد يكلف بأمه كثيرا فى هذه الأيام لأنه كان يراها حادة الطبع سريعة الغضب نحوه لا تفهم أو لا تكاد تفهم منه شيئا ، وساوره حنين الى ابيه .
ولم تدر الأم ماذا تفعل . ورأت أخيرا أن الوقت قد حان لكى تقوم بعمل سريع حاسم . ولم يبق لديها شك فى وفاة الرجل بعد أن لبثت كل هذه السنوات بعيدا عن زوجته واولاده . وجعلت تردد هذا الكلام حتى نزل من نفسها منزلة اليقين وايقنت من موته حقا . ولم يبق عليها الا أن تدبر مسألة شكلية لكى تقنع الفتى وتقنع أهل القرية بموته .
واذن فقد ذهبت مرة أخرى الى البلدة والتمست كاتبا آخر لم تكن رأته من قبل . وقالت له وهى تتنهد :
ـ أكتب لزوجة أخى وقل لها ان زوجها توفى . قل لها أنه مات حرقا . فان النار شبت فى الدار التى كان يقيم فيها لانقلاب المصباح بأيدى أحد العبيد وأنه احترق وهو نائم حتى استحال رمادا ولم يبق من جثته ما يرسل الى أهله .
ودون الكاتب اسمها باعتباره اسم زوجة الأخ . وقررت له اسما مستعارا باعتباره شخصا تطوع بابلاغ هذا النبأ ، وكتب اسم مدينة أخرى بعيدة باعتبارها مصدر هذا الخطاب . وآنس الكاتب فى هذا كله ما أثار دهشته وتساؤله ، بيد أنه لم يتعرض لأنه لا يعنيه

من الأمر شيء ولأنه تناول اجرا مرضيا .
وهكذا وجدت المراة مخرجا . لم تستطع أن تصبر حتى يتم لها ما تريد على الوجـه الذى تصورته . واعتزمت ان تخطر وكيل المالك بوفاة زوجها على وجه من الوجوه . وجعلت تختلف الى هنا وهناك باحثة عن بيته حتى وجدته . وكأن الآلهة حالفتها ، فقـــد صادفته وهو يهم بدخول الدار . فهتفت به ووضعت يدها على ذراعه فنظر اليها والى يدها الموضوعة فوق ذراعه وقال لها :
ــ ما الذى تريدين يا امراة ؟ .
فأجابت همسا :
ــ سيدى . انا أرملة . انى سـمعت اليوم فقط انى أصبحت ارملة .
فدفع يدها عنه وقال بصوت مرتفع :
ــ وما شأنى فى هذا ؟ .
ولما تطلعت اليه متألمة قال بخشونة :
ــ انى دفعت لك الثمن . دفعت لك الثمن كافيا .
وفجأة ناداه رجل فى الطريق فعرفه . وقال له ضاحكا :
ــ ما هــذا يا رجل يا طيب ؟ . هل تستوقف النســاء الرجال هكذا ؟ .
فأجاب الوكيل ببرود :
ــ نعم . وهى أمامك اذا اردتها . اما أنا فلا .
ودخل داره دون أن يعبأ بها .
وقفت مكانها مشدوهة خجلى لا تفقه شيئا . لكن كيف دفع لهـا الثمن ؟ وما الذى أعطاها ؟ .
وفجأة تذكرت الحلى التى اعطاها اياها . فهل كان هذا هو الثمن الذى يعنيه ؟ .
ترى ماذا تفعل الآن بعد أن عرفت كل شيء ؟ .
سارت قدما عائدة الى البيت واحست بقلبهـــا يكاد يقف عن الحركة . وراحت تقول لنفسها :
ــ لم يحن وقت البكاء بعد . لم يحن وقت البكاء بعد .
والحق أن العبرات جاشت فى نفسها وكادت تخنقها . لـكنها غالبت نفسها .
وألزمت قلبها الصلابة والسكون يوما أو يومين حتى وافتهـــا الرسالة التى دبرتها . فحملتها الى كاتب القرية . وقالت له بسكون

وهى تقدمها له :
ـ تحدثنى نفسى يا عمى باننى ساسمع انباء سيئة . فهى فى غير موعدها .
فتناول الـكاتب الرسالة وطالعها وانتفض قائلا :
ـ هذه اخبار سيئة أيتها الزوجة الطيبة . فاستعدى .
فقالت له فى تجلد :
ـ هل هو مريض ؟ .
فوضع الـكاتب الرسالة وانزل العوينات عن وجهه وقال برزانة وهو يحدق فيها :
ـ بل مات .
فلما سمعت الأم هذا الـكلام صرخت والقت رداءها فوق راسها وبكت .
اجل . كان لها ان تبكى الآن . فبكت آمنة واسترسلت فى البكاء وكأنها تعلم انه مات حقا .
بكت لوحدتها وتهدم صرح حياتها . بكت لسوء حظهـــا وذهاب زوجها . بكت لأنها لا تستطيع أن تلد هذا الجنين الذى حملته فى أحشائها . وبكت أخيرا لأنها ديست بالاقدام وامتهنت اى امتهان .
وأراقت الآن فى غير ضن هذه العبرات الحرى التى كانت تحبسها اشفاقا من عيون الأبناء والجيران .
ولما سمع نساء القرية بأمرها اسرعن اليها يواسينها ويوصينها الا تسرف فى البكاء حتى لا تمرض فقد كان لهـــا أبناؤها أخيرا ، وذهبن وجئنا لها ترويحا بولديها عن نفسها وتخفيفا لحزنها . ووقف الولدان أمامها وكان الفتى شاحب اللون كأنما أصيب بمرض فجائى بينما جعل أخوه الأصغر يبكى لبكاء أمه .
وفجأة وفى ابان هذا الهرج ارتفع صوت البكاء والعويل وتبين انه صوت الأرملة الثرثارة التى تغلب عليها الحـــــزن من هذا المشهد وانحدرت الدموع على وجنتيها واخذت تقول منتحبة :
ـ انظرى الى أنا المسكينة . فأنا أتعس منك حظا . لأنى لا املك ولدا . أنا أحق بالشفقة وأسوأ من كل النساء حالا .
وتجدد حزنها القديم واشتد حتى دهشت النسوة والتفتن اليها يواسينها فانتهزت الأم هذه الفرصة وذهبت الى بيتها يتبعها ولداها وهى تبكى فى سكون دون أن تستطيع امساكا .
ولما وصلت الى البيت جلست لدى الباب تبكى . وبكى الفتى قليلا

وجعل يجفف دموعه بظهر يده واستمر الولد الأصغر في بكائه دون أن يدري معنى موت أبيه لأنه لم يكن رآه . وجعلت البنت تبكي وتتوجع وهي تضغط على عينيها الما .

لكن الأم رات أن بكاءها الآن الى غير غاية لا يجديها شيئا . وما لبثت أن كفت عن البكاء الى حين وهونت على الأولاد الى حد ما بسكونها واخذت تفكر فيما تفعل .

رات أنه ليس امامها اذا لم تتخير الموت نهاية لها الا ان تنتزع من أحشائها ذلك الجنين الذي ينمو كل يوم . لكن هذا عمل لا قدرة لها عليه وحدها . ولابد لها من حليف يساعدها . ولم يكن أمامها من تلجأ اليه سوى زوجة العم . وقد ودت الأم كثيرا الا تضطر لاطلاع أحد على امرها . غير أنها لم تدر كيف تقوم بهذا العمل وحدها . وقد كانت زوجة العم امراة طيبة ذات خبرة . وهي تعرف اساليب الرجال وتعرف خصب النساء . لكن كيف السبيل الى اطلاعها على هذا الأمر ؟ .

غير أن المناسبة المنشودة جاءت من تلقاء نفسها . فقد تقابلت المراتان بعد يوم أو يومين من ذلك في احد الطرقات ووقفتا تتجاذبان أطراف الأحاديث . فقالت زوجة العم بلهجتها الرقيقة : -

ـ يا بنت عمي كلي وضعي حدا لاحزانك . فان وجهك شاحب كأن في بطنك بعض الديدان .

فخطرت الفكرة في بال الأم وقالت بمرارة وفي صوت خافت :

ـ الحقيقة ان في بطني دودة تمتص حياتي .

ولما حدقت زوجة العم مستفسرة وضعت الأم يدها على بطنهاقائلة :

ـ يوجد شيء ينمو في بطني يا بنت عمي . لكني لا اعرف ما هو الا ان كان ريحا خبيثا من نوع ما .

فقالت زوجة العم :

ـ دعيني أنظر .

ففتحت الأم رداءها وتحسست زوجة العم موضع الانتفاخ من بطنها وقالت في دهشة :

ـ يا بنت عمي . هذا يشبه جنينا . ولو كان لك زوج لقلت انه كذلك .

فلم تنبس الأم ببنت شفة . لكنها نكست رأسها وهي في اشد حالات التعاسة ولم تقو على رفع بصرها ورات زوجة العم حركة في بطنها .. فهتفت مرتاعة :

ـ أحلف انه طفل . لكن كيف أمكن هـذا وزوجك غائب منـذ سنين ، الا ان كان من فعل روح من الأرواح ؟ لكنى سمعت أن هذا يحدث أحيانا للنساء . وقد حدث فى الأزمان القـديمة للنساء القديسات اللاتى كانت الآلهة تزورهن . غير انك يا بنت العم وان كنت امراة طيبة محترمة فلست من القديسات .. لكن هل زارك اله ؟.

وقد همت الأم حينما سمعت هذا السؤال أن تكذب كذبة اخرى وان تقول انها أحست باله يزورها حين اعتصمت يوما من العاصفة بأحد المعابد . غير أنها ، كادت تفتح فمها لصوغ هذه الكذبة حتى عجزت عن النطق ووقفت الكلمات فى حلقها . فقد خافت أن تكذب على الاله الطيب الذى حجبت وجهه بردائها هذه الكذبة الشنيعة . ومن ناحية أخرى فقـد ملت الـكذب ولم تستطع أن تمعن فيه الى النهاية .

ولذلك رفعت رأسها وتطلعت الى زوجة العم فى حالة تبعث على الرثاء والشفقة وتصاعد الدم الى وجنتيها الشاحبتين فضرجهمـا بحمرة متقطعة وودت أن تنزل الآن عن نصف عمرها لكى توفق الى كذبة تستتر بها هذا الموقف . لكنها لم تستطع . وأدركت المرأة الطيبة الحقيقة وفهمت كل شىء فلم تلق عليها سؤالا آخر ولم تستفسرها كيف حدث ما حدث . بل قالت لها :

ـ غطى نفسك يا أختى حتى لا تبردى .

وسارت كلتاها معا . واخيرا قالت الأم فى لهجة تقطر مرارة :

ـ لا يهم أن تعرفى من أحدث هـذا . ولن يعرفه أحد . واذا ساعدتنى فى هذا يا بنت عمى وأختى فسأخدمك طول حياتى .

فقالت زوجة العم فى صوت خافت :

ـ انى لم أعش هذه السنين الطـويلة عبثا . وقد رايت نساء يتخلصن من شىء لا يردنه .

وللمرة الأولى لمع بريق الأمل امام عينى الأم ، فقالت همسا :

ـ لكن كيف ؟ لكن كيف ؟ .

فأجابت زوجة العم :

ـ توجد ادوية يمكن شراؤها اذا كان عند الانسان نقود . وهى مواد قوية تقتل الأم والوليد أحيانا .. وهى تحدث دائما عسرا أشد من الولادة . لكن اذا أخذت منها ما يكفى فسيتم كل شىء .

فقالت الأم :

ـ اذن فلتقتلنى هذه المواد بشرط أن تقتل الجنين . وبهذا اخفى

الحقيقة عن اولادى وعن الناس .
فتفرست زوجة العم طويلا فى وجه الأم ووقفت مكانهـــا وقالت لهـا :
ــ نعم يا بنت عمى . لكن هل يتكرر هذا الأمر بعد أن مات زوجك؟.
فجعلت الأم تقسم وهتفت متوجعة :
ــ لا . سألقى نفسى فى الترعة واهدىء حرارتى الى الأبد اذا ركبتنى الشهوة كما ركبتنى فى الصيف .
وفى هذه الليلة كشفت الأم عن الحفرة واخرجت نقودها الفضية وانتهزت فرصة مناسبة فاعطتها لزوجة العم كي تبتاع بها الأدوية .
ولما جىء بالعقاقير وتم اعدادها سعت زوجة العم فى ظلام الليل الى الأم وهمست فى اذنها :
ــ اين تشربين الدواء ؟ هذا عمل دموى ولا يمكن أن يتم فى أى بيت ؟ .
عند ذلك تذكرت الأم ذلك المعبد المقفر الخرب الذى يقل المرور به نهارا وينعدم ليلا . فقصدت كلتاهما اليه وشربت الأم العقاقير وتمددت على الأرض وجعلت تنتظر .
واخيرا أخذت هذه المواد تتفاعل فى احشائها واحدثت مغصا وآلاما شديدة لم تكن الأم تحلم بمثلها حتى لقد هان عليها أن تموت . وقد طغى عليها هذا الألم وألم بها طويلا حتى ذهلت وطاش صوابها . غير أنها برغم هذا تذكرت شيئا واحدا اخذت نفسها به فى غير لين ولا هوادة وهو الا تصرخ تسكينا لألمها . بل انها لم تجسر حتى على اضاءة نور ما خوفا من احتمـــــال مرور احد بهذا المكان من قبيل الصدفة الخارقة فيرى نورا غير عادى فى هذا المعبد الخرب .
راضت الأم نفسها اذن على احتمال الألم بكل ما اوتيت من قـوة وجلد . وسال العرق فوق جسدها غزيرا وذهلت عن كل شىء الا هذا المغص القاتل وكأنما قد انشب وحش ضار انيابه فى أمعائهـــا وأخذ ينتزعها وينهشها . بل لقد جاءت لحظة خيل اليها فيها ان هذه الأمعاء قد انتزعت حقا . وبدرت منها صرخة واحدة .
عند ذلك جاءت زوجة العم بحصـــير احضرته معها . وتناولت ما تناولت وجعلت تتحسس ثم قالت فى كآبة :
ــ كان يمكن أن يكون ذكرا أيضــا . انت امرأة موفقـة فى ولادة الذكور .
لكن الأم جعلت تئن وتتأوه وقالت :
ــ لن الد شيئا بعد الآن .

ثم انطرحت الأم فوق الأرض واستراحت قليلا . ولما قويت على النهوض قفلتـا عائدين الى البيت . واتكأت الأم على ذراع زوجة العم وجعلت تغالب أنينها . وفى الطريق مرت زوجة العم بقناة فألقت باللفافة فيها .

رقدت الأم أياما كثيرة فى فراشها حليفة المرض والهزال . وكانت زوجة العم الطيبة القلب تسدى اليها ما تستطيع من مساعدة . لكن المرض والهزال لازماها طوال الشتاء ، حتى لقد كان الذهاب الى السوق لبيع حمل من الأحمال يكلفها كثيرا من الألم والعذاب ، لكن لم يكن لها مفر من ذلك وكانت تؤديه على وجه من الوجوه .

ثم تحسنت قليلا بدخول فصل الربيع ، وان لم تعد الى حالتها الأولى ، وكانت اذا جاءتها زوجة العم بطعام مرىء وألحت عليها فى تناوله وضعت الأم يدها على صدرها قائلة :

ـ لا يمكن ان ابتلع شيئا . هنا شيء ثقيل يضغط على صدرى . واحس بأن قلبى معلق بين ثديى ولا يمكن ان أزدرد الاكل . واشعر بأن قلبى يفيض ألما ولكننى لا أستطيع البكاء والتخفيف مما اشعر . ولو استطعت أن أبكى الى النهاية لتحسنت حالتى .

ذلك ما كان يبدو للأم . لكنها لم تستطع الى البكاء سبيلا . ومضى الربيع وهى لا تستطيع البكاء ولا تقوى على العمل كسالف شأنها . وكان الابن الاكبر يكافح للقيام بأعباء العمل يساعده العم بنصيب موفور .

وظل الحال كذلك حتى نضج الشعير . وجلست الأم ذات يوم فى أشعة الشمس يغلبها الاعياء حتى لقد تركت شعرها أشعث غير ممشط . وفجأة سمعت وقع خطوات قربها ، ولما رفعت راسها ألفت وكيل المالك واقفا أمامها .

وما كاد الفتى يرى الوكيل حتى تقدم نحوه قائلا :

ـ سيدى . ان أبى مات وانا أقوم مكانه ، وأمى مريضة منـذ شهور كثيرة . ولابد من ذهابى معك الآن لتقدير المحصول اذا كنت حضرت لهذا الغرض ، لأن أمى لا تقوى على ذلك .

فلما سمع الرجل هذا الكلام نظر الى الأم طويلا بغير مبالاة وقد ادرك تماما ما حل بها . وعرفت هى انه فهم امرها واطرقت براسها صامتة . لكنه قال بغير اكتراث :

ـ هيا بنا اذن يا فتى .

وذهب الاثنان معا وتركاها وحدها .

ادركت الأم تماما انه لا أمل لها عند هذا الرجل . وهى لم تكن فى حاجة اليه بعد الآن وبعد أن الم بها هذا الضعف المزمن . لكن رؤيته الآن كانت جماع ما تريده وكانت القطرة الاخيرة التي طفحت بها كأس شقائها . فأحست بغصة في حلقها والم مميت في قلبها وطفرت الدموع الى عينيها . وسارت فى طريق غير مطروف حتى وصلت الى قبر موحش مهجور طال عليه القدم حتى جهل النـاس اسم صاحبه أو صاحبته ، فجلست فوق سطحه المكسو بالحشائش وانتظرت . واخيرا طاوعها الدمع فأخذت تبكى .

وانحدرت دموعهـــا اول الأمر بطيئة مريرة . غير انها انهمرت غزيرة بعد قليل . فاسندت راسها الى القبر وجعلت تبكى كما تبكى المرأة حين يطفح قلبها حزنا وتفيض نفسها مرارة وغما وتلتمس شفاء ما بها فى سكب الدمع وسفح العبرات . وقد حمل نسيم الربيع صوت بكائها الى القرية ، فجعل نســــاؤها يتبادلن النظـر ويقلن مشفقات :

ـ دعوا هذه المسكينة تبك وتخفف عن نفسها . فهى لم تتعز بمرور الوقت وطول الزمن . قولوا لأولادها أن يتركوها فى بكائها .

وهكذا تركها الجميع تبكى ما طاب لها البكاء .

على أن الأم بعد طول البكاء سمعت صوتا قربها . فرفعت راسها ورأت فى ضوء الشفق اليسير ابنتها تتحسس الطريق اليهـــا فوق الأرض الوعرة ، وهتفت البنت فى سيرها :

ـ أمى . ان زوجة عمى أوصت أن تدعك تبكين حتى تخففى عن نفسك . لكن الم تشعرى بالراحة بعد طول هذا البكاء ؟ .

فما كانت الأم تسمع هذه الكلمات حتى ثابت الى رشدها وتطلعت الي البنت وهى تتنهد . ثم جلست وسوت شـــعرها المهدل وجففت عينيها المورمتين ونهضت . ومدت البنت يدها تتحسس يد الأم وهى تطبق عينيها اتقاء وهج الشمس الآفلة ، وقالت شاكية :

ـ يا ليتنى لا أبكى ابدا . فانى اذا بكيت شعرت بألم شديد فى عينى .

ثابت الأم الى رشدها فجأة حين سمعت هذه الكلمات وتطهرت نفسها . أجل . ان هذه الـكلمات القلائل التى صدرت فى ختام هذا اليوم ، وهذه اليد الصغيرة الممدودة الى ناحيتها ، فقد انتزعتا الأم من قوة اليأس التى كانت تتخبط فى ظلماتها طوال الأشهر الماضية . فعادت اليها عواطف الأمومة ثانية ونظرت الى البنت وقد طرحت

عنها ذهولها آخر الأمر وهتفت :
ــ هل تؤلمك عيناك كثيرا يا ابنتى ؟ .
فأجابت البنت :
ــ اظن انى لم اتغير عما كنت ، الا فى ان النور يؤذينى أكثر ، ولم أعد أراك بوضوح كما كنت فى الماضى . ولا يمكننى الآن بعد ان كبر اخى ان اميز بينك وبينه حتى أسمع صوتكما .
فلما سمعت الأم هذا الكلام أخذت تتوجع قائلة وهى تقود ابنتها برفق :
ــ أين كنت كل هذه الأيام ؟ سأذهب يا ابنتى عند طلوع النهـــار لشراء مرهم لشفاء عينيك كما كنت أقول كثيرا .
وفى هذه الليلة بدت الأم لأبنائها جميعا وكأنها عادت من مكان قصى وثابت الى نفسها ثانية . فقد ملأت صحافهم بالطعـام حتي حوافيها وجعلت تهرول شاحبة اللون ولكن هادئة النفس ســـاكنة القلب . وأخذت تنظر اليهم جميعا وكأنها لم ترهم منذ أعوام . ثم تطلعت الى الابن الأصغر وهتفت :
ــ غدا سأغسل لك ملابسك يابنى . اننى لم أرها على هذه الحالة من القذارة والتمزيق . أنت ولد جميل ولا يمكن أمك إن تتركك تسير فى الطرقات بهذه الثياب .
ثم التفتت الى الابن الأكبر قائلة :
ــ قلت لى أن أصبعك جرحت وانها تؤلمك . دعنى انظر ..
وعمدت الأم الى يد الفتى فغسلتهـــا وصبت بعض الزيت فوق الجرح وقالت له :
ــ كيف جرحت يا ولدى ؟ .
ففتح الفتى عينيه دهشة وقال :
ــ قلت لك يا امى انى جرحت أصبعى عندما كنت اشحذ المنجل استعدادا لحصد الشعير .
فأجابت الأم بسرعة :
ــ صحيح . تذكرت الآن . فأنت قلت هذا .
وقد خيل للأبناء دون أن يدروا كيف حدث هذا التحول « انهم يشعرون فجأة بالأنس والدفء . وان هـــذا الأنس وهذا الدفء يفيضان عن أمهم . وملأ الفرح والبهجة قلوبهم وأخذوا يحدثونها فى كل شأن . وقال لها الابن الأصغر :
ــ لقد تراهنت اليوم مع أصحابى على أبينا بوسعه أن يقذف الى

أبعد مرمى . وفزت عليهم وكسبت هذا البنس . وانا لا شك مجدود لأن هذا البنس هو أول ربح أصيبه .

فنظرت اليه الأم بشراهة ورات جماله وترقرق الصحة فيه وعجبت من نفسها كيف غفلت عن هذا من قبل وقالت له بحنو شديد :

ـ انت غلام نابه لأنك احتفظت بهذا البنس ولم تشتر به حلوى .

لـكن الطفل ظهرت عليه علائم القلق حين سمع هذا الكلام وقال :

ـ لكن اليوم فقط يا امى فكرت فى ان اشترى به حلوى غدا . ولا حاجة بي الى ادخاره وبوسعى أن أكسب كل يوم بنسا مثله .

وكان الطفل يتوقع أن تقابله بالرفض ، لكنها أجابته برقة :

ـ اشتر يا ابنى ما يحلو لك . لأن هذا البنس ملـكك .

ثم تدخل الفتى فى الحديث وقال لأمه :

ـ اريد يا امى أن أقول لك شيئا غريبا ، فعندما كنت فى الحقول مع وكيل المالك أبلغنى ان هذه آخر سنة له عندنا لأنه سيذهب للعمل فى جهات اخرى . وقد قال انه تعب من طول المشى فى الطرقات الريفية وملّ الفلاحين البسطاء وزوجاتهم وسئم تشابه الفصول ، وانه سيذهب الى احدى المدن البعيدة .

فلما سمعت الأم هذا الكلام جلست جامدة فىمكانها وجعلت تتفرس فى الفتى وتتطلع اليه من خلال الضوء اليسير المرسل من الشمعة التى أوقدتها هذه الليلة ووضعتها فوق الخوان . ولما استوعبت هـذه الكلمات تركتها تستقر فى نفسها فنزلت على قلبها بردا وسلاما كما ينزل ماء المطر فـوق التربة المتعطشة ، وهتفت فى صـوت منفعل خافت :

ـ هل قال ذلك يا ولدى ؟ .

ثم اردفت بسرعة وكان الأمر لا يعنيها :

ـ لـكن لابد أن ننام ونستريح ، لأنى سأقوم غدا فى الفجر واذهب الى البلدة لشراء مرهم لأختك حتى يشفى نظرها ويعود كما كان .

وقد فاهت الأم بهذه الـكلمات فى صوت قوى ملىء بالسـكينة والاطمئنان . ولما دنا الـكلب منهـــا مستجديا أطعمته بسخاء فأخذ الحيوان يأكل وهو سعيد مذهول وراح يزدرد الطعام مسرعا . ولمـا شعر بالشبع والامتلاء تنهد راضيا .

وفى هذه الليلة وفقت الأم الىالنوم . ونامت وأولادها نوما عميقا مليئا بالراحة والهدوء .

الفصل الحادى عشر

لم تفد الأم من رحلتها الطويلة الى العطـــار فى البلدة المجاورة لشراء مرهم لعينى ابنتها الكفيفة . فقد ابلغها الرجل ان عمى البنت محقق لا شفاء منه ، وعزا السبب الى لعنة حلت بالبنت نتيجة اثم ارتكبه أحد ابويها . ومع ان الأم ذهبت بعد ذلك الى معبد لالهة رحيمة للصلاة والاستغفار لعل اللعنة ترتفع عن البنت العمياء ، فان الالهة لم تستجب لها ، وايقنت الأم ان خطيئتها هي السبب ، وعادت الى البيت بائسة نادمة على تلك الخطيئة التى انزلقت اليها . وعندما استبد بها اليأس برئت من شهوات الشباب وانطوت صحائفه من سجل حياتها . وانطمست في نفسها صورة الرجل من حيث هو رجل ، ولم يبق فى سماء حياتها سوى ولديها وابنتها العمياء .

***

هكذا ولى عهد الشباب عند الأم ونيفت سنها الآن على الثالثة والأربعين . ورغم ذلك لم يكن أحب الى قلبها من العمل فى الحقل غير مكترثة باحتجاج أكبر اولادها وحثه اياها على الاخلاد الى الراحة .

واصبح يشقيها الآن التفكير فى مصير الفتاة العمياء اذا لم يقدر لها الزواج . وقد هداها طول التفكير الى البحث عن زوجة لابنهـا الأكبر لـكى تعنى به وبأخته الكفيفة . انه قد ناهذ الآن التاسعة عشرة من عمره ، وغدا شابا مكتمل الصـفات صلب العـود دءوبا على العمل ، ولم يكن يعيبه فى نظرها سوى قسوته على أخيه الاصفر الـكسول العابث اللاهى الذى كانت رغم ذلك تحبه وتؤثره على اخيه الأكبر اذ كان اقرب شبها بأبيه . والواقع ان هذا الفتى كان يتهرب من العمـــل ويتغيب يوما او يومين عن البيت حتى أثار اغضاؤها وتدليلها حفيظة الابن الأكبر ومقته له .

***

كان مقت الشاب لأخيه الفتى يزداد كل يوم رسوخا فى نفسـه . ولم تدر الأم نفسها الى أى حد بلغ هذا المقت من نفس الشاب حتى جاء يوم معين انفجرت فيه براكين هذه العـــاطفة المريرة فى صدره وفاضت جائشة مكتسحة كما يفيض النهر فجأة ويكتسح السـدود القائمة دونه وقد غذته روافد خفية لا تراها الأعين ، حتى اذا سال فيضه دهش الناس لأنهم لم يدركوا كيف كان النهر فى الأحوال العادية

وقد كان يبدو لأعينهم ساكنا .

حدث هذا وقت حصاد الأرز في اواخر أيام الصيف حين يكد الجميع في الحقول ويكدحون منذ مطلع الفجر حتى مغرب الشمس، وحين يجب على كل قادر أن يكد ويكدح ما لم يكن غنيا ميسور الحال .

وقد قام الفتى الأصغر بنصيبه كذلك من عمل اليوم وان كان عقله منصرفا الى عمل في مكان سحيق كان يجب أن يقوم به . لكن امه كانت قد استحثته للعمـــــل وقالت له وهي تبسط أصابع يده الملساء :

ــ اشتغل يابني كما يجب في هذه الأيام ، أيام الحصاد ، وبرهن لأخيك على قدرتك . واذا قمت بالعمل كما يجب وأرضيت أخاك فاني ساشترى لك شيئا تحبه وتحتاج اليه .

وهكذا وعدها الفتى بالعمل وهو يزم شفتيه ويعد نفسه مرهقا مضيقا عليه ، واخذ يقوم بنصيبه من هذا العمل بقدر ما يدفع عنه أذى اخيه اذا وقعت عينه عليه .

لكنهم في هذا اليوم الذى أنذرت فيه السماء بالمطر تجاوزوا ساعات العمل المألوفة وساهمت الأم معهم في العمـــــل حتى كلت قواها فلم تتمالك أن قومت ظهرها الموجع متنهدة وقالت لابنها الشاب :

ــ سأعود يا بني الى البيت لكي أدفىء الأكل لأنى أشعر بأشد التعب والألم .

فقال الشاب في خشونة يسيرة لا يقصدها لأنه لم يحمل أمه أبدا على تجاوز طاقتها في العمل :

ــ عودى الى البيت اذن .

وهكذا عادت الأم الى البيت وتركت ولديها وحدهما ..

وما كادت الأم تأخذ في انضاج الطعام حتى هتفت الفتاة التى كانت جالسة في مدخل الدار قائلة انها سمعت أخاها الأصغر يبكى . ولما خرجت الأم مسرعة من المطبخ تحقق لديها ذلك . فركضت بكل قواها الى الحقل حيث ألفت ابنها الشاب يضرب أخاه الأصغر بقبضة المنجل ضربا قاسيا أليما والفتى يصرخ ويستغيث ويرد الضربات بقبضتي يديه ويحاول أن يخلص نفسه من يد أخيه المطبقة على عنقه . لكن هذا لم يتخل عنه وظل ينهال عليه بقبضة المنجل . فاندفعت الأم بكل قواها الى الابن الأكبر وتعلقت به وصاحت متوسلة :

ــ يا بني ! انه لا يزال صغيرا . يا ابني . يا ابني .

وانتهز الفتى هذه الفرصة فافلت من قبضة أخيه وراح يركض فى الحقل كالأرنب الهارب واختفى فى ظلام الشفق . ولما صارت الأم وحدها مع ابنها الغاضب الحنق قالت فى صوت متهدج :

ــ هو لم يزل طفلا صغيرا فى الرابعة عشرة من عمره وعقله منصرف الى اللعب .

لكن الشاب اجابها :

ــ وهل كنت طفلا وأنا فى الرابعة عشرة ؟ هل كنت العب فى موسم الحصاد وأنا فى الرابعة عشرة من عمرى ؟ وهل كنت ترشيننى بخاتم او رداء جديد أو غيره مما لم أكن أربحه وأناله بكدى ؟ .

ففهمت الأم من هذه الكلمات أن الفتى الأبله قد راح يزهو بما يتوقع أن يناله ، ووقفت صامتة لا تحير جوابا وهى شاعرة بغلطتها . واستسلم الشاب لألمه ومرارته فانفجر صائحا :

ــ نعم . انت تحتفظين بالنقود . وأنا اعطيك كل ما نربحه . وأنا لا آخذ بنسا واحدا لشخصى ولا أدخن قصبة صغيرة ولا أشرب قدحا من الخمر ولا أشترى لنفسى شيئا مما يناله أى شاب ويعده حقا لنفسه . ومع ذلك فأنت تعدينه بكل ما لم أنله فى حياتى . ولأى داع ؟ لكى يقوم بالعمل الذى يجب أن يؤديه بلا مقابل حتى يدفع ثمن ما يأكل وما يشرب .

أحست الأم ببعض الخوف من هذا الابن الغاضب الناقم الذى كادت تنكره الآن لفرط ما كان يتسم به من الرزانة والهدوء فى الأيام العادية . وقالت فى صوت خافت مضطرب :

ــ أنا لم اعده بخواتم ولا ملابس .

فقال الشاب بانفعال شديد :

ــ بل وعدته . أو اذا لم تكونى وعدته فقد فعلت ما هو اسوأ . فقد قال انه سينال كل ما يريد بعد بيع المحصول وسداد الضرائب . بل قال انك وعدته .

فقالت الأم وهى خجلى امام هذا الابن الطيب الفاضل :

ــ انى قصدت أن أقدم له لعبة تافهة لا تكلف سوى مبلغ زهيد يسير .

ثم استجمعت شجاعتها بعد أن رات أنها هى الأم وأن لها حقوقا . فقالت :

ــ واذا كنت وعدته بلعبة تافهة فلكى انقذه من غضبك الدائم الذى تلاحقه به مهما فعل ، وأنت تشتد عليه وتؤذيه بنظراتك القاسية

وكلماتك الأليمة ، والآن بضرباتك .

لكن الشاب لم يقل شيئا آخر . وانثنى الى حزم الأرز يعمل فيها بصرامة وسرعة وكأن شيطانا ركبه . ووقفت الام تنظر اليه وهى لا تدرى ماذا تفعل . وكانت تشعر بأنه قد قسا فى معاملته لابنهـا الأصغر ، ولكنها أدركت فى نفس الوقت انها اخطأت وحادت عن طريق الصواب .

ثم ألقت عليه نظرة فاذا الدموع تكاد تطفر من عينيه ولكنه ضغط على فكيه لكى يحبس عبراته . فلما آنست الأم فيه هذا الاحساس الذى لم تعهده فيه من قبل وهو الذى كان ابدا راضيآ مستسلما لا يبدى رغبة مّا ، ذاب قلبها ورقت حاشيتها كدابها كلما آذت احد ابنائها ، وان كان الابن لا يحس منهـا ذلك ، وزاد حدبها وحنانهـا فهتفت بلهجة سريعة :

ــ انى أقر بخطيئتى يا ولدى . انا لم اصنع نحوك ما يجب فى العهد الأخير . انا لم ادرك أنك صرت رجلا . لـكنك رجل . وانا الآن اقدر هذا واراه بعينى . وسيكون لك مقام الرجل فى بيتنا وتضع يدك على على النقود وتحتل المكان الأول بالاسم كما تحتله فى العمل الذى تقوم به دائما . نعم . انى أراك الآن رجلا . وسأعمل فى الحال ما ابطأت فيه زمنا طويلا . سأبحث لك عن زوجة وسـيكون لك ولهـا دور الصدارة . انى لم أدرك هذا من قبل . لكن أدركته الآن كما يجب .

وهكذا عمدت الأم الى الاصلاح . وغمغم الشاب كلاما لم تسمعه وادار ظهره ولم ينبس بكلمة اخرى بل راح يواصل العمل . اما هى فقد سرى عنهـا وعادت أدراجهـا وهى تقول هذه الجملة لاخفـاء شعورها :

ــ كفى . لابد ان يكون الارز احترق الآن .

وما كادت تصل الى المنزل حتى راحت تتشاغل بمختلف الأعمال وقد نسيت أعباءها . ولما سألتها الفتاة عما حدث اجابتها فورا :

ــ لا شيء يا ابنتى الا أن اخاك الأصغر لم يقم بنصيبه من العمل ، او هذا ما قاله شقيقه . لكن الاخوة يتشاحنون دائما كما اظن .

واسرعت الأم باعداد لون شهى من الطعام يحبه ولدها الأكبر . وراحت وهى تعده تفكر فى خطة الاصلاح التى عولت عليها . فرأت انه من الصواب أن يتزوج ابنها . وجعلت تلوم نفسها لأنها اعتمدت عليه كما تعتمد على الرجل دون أن يظفر بما يظفر به الرجال من الجزاء . وزادها التفكير تصميما على انفاذ ما قررته .

وعاد الشاب الى البيت اخيرا فى ضوء الشمعة التى أوقدتهـــا ووضعتها فوق الخوان . ولما تفرست فى وجهه دون أن يفطن اليهـا رأته قد عاد الى حالته السالفة وظهرت عليـــه علائم السرور بتأثير ما وعدت به وفارقه الغضب . فلما رأت الأم هذا الصفاء نادت الفتى الأصفر الذى كان يحوم حول الباب دون أن يجسر على الدخول حتى يتبين شعور أخيه ، وان كان الجوع قد أرغمه على المجىء . وقالت له الأم :

ــ أدخل يا بنى .

فدخل الفتى وهو ينظر الى أخيه . لـكن هذا لم يحفل به ولم يلتفت اليه بعد ان تلاشى غضبه ، واحست الأم بالرضـــاء وطابت نفسها ورأت انها احسنت فى اتخاذ قرارها ، وشرعت فى تحقيق هذا الوعد الى النهاية .

ذهبت الأم الى بيت العم وزوجته كعادتها فى كل معضلة . وقـد دفعها الى الذهاب كذلك أنها لم تكن تعرف فتاة لتزويجها من ابنها . ولم يكن بوسعها أن تختار احدى بنات القرية اذ كان أهلها جميعا من ذوى القربى وهم يلقبون بلقب مشترك . كما انها لم تكن تعرف فتاة من أهل البلدة لاقتصار معاملاتها على بضعة حوانيت صـغيرة كانت تشترى منها ما تقدمه للبيع .

ذهبت الأم الى بيت العم اذن فى المساء ، ودار الحديث فى هــذا الشأن بينما كانت زوجة العم ترضع وليدها الأخير . واعربت الأم اخيرا عن عرضها من الزيارة وقالت :

ــ فهل تعرفين يا اختى فتاة فى تلك القرية التى كنت بها قبل زواجك لا انى أريد فتاة مثلك تماما . سمحة الخلق ، سريعة الحمل ، قادرة على العمل . ولم يزل فى امكانى أن أدبر شئون البيت أعواما اخرى كثيرة ، واذا لم تكن ماهرة فى هــذه الشئون ففى وسعى أن احتمل هذا .

فلما سمعت زوجة العم هذا الـكلام ضحكت عاليـا وهتفت وهى تنظر الى زوجها :

ــ لا أعلم اذا كان ابنك يا أختى يعد زوجة مثلى نعمة أو نقمة ؟ .

وضحكت الزوجة ثانية وقالت :

ــ فى وسعى يا أختى أن أذهب الى هناك وأبحث ففى تلك القرية زهاء المائتين من العائلات ، ولا ريب أن فى احداها فتـاة صالحة للزواج .

وهكذا جعلت المرأتان تتحدثان فى هذا الشأن وقررت الأم بجلاء انها لاتحتمل تكاليف كثيرة واستطردت قائلة :

ــ انا أعلم تماما اني لا أطمع فى فتاة كاملة من كافة النواحى . لانى فقيرة وابنى لا يملك سوى رقعة صغيرة من الأرض ونحن مضطرون لاستئجار اكثر مما نملك .

وفى اليوم التالى لبست زوجة العم ثيابا نظيفة وحملت طفلهـــا الرضيع واصطحبت معها اثنين من ابنائها الصغار لـكى يراهما أهلها واثنين اكبر منهما لمساعدتها فى العناية بالصغيرين . واستأجرت عربة من ذات العجلة الواحدة والذراعين لحمل الأولاد جميعا وامتطت هى حمار زوجها الأشهب الذى استغنى عنه فى الوقت الحالى بعد انتهاء موسم الحصاد . وذهب الجميع على هذه الحال وغابوا أياما . ولمـا عادوا أخيرا كانت جعبة الزوجة حافلة بأخبار الفتيات اللاتى رأتهن ، وقالت للأم التى سارعت للوقوف على ابنائها عقب علمها بعودتها :

ــ انى رأيت الفتيـات كثيرات فى القـــرية فنحن لا نقتلهن هناك كما يفعل الناس فى بعض البلدان عنـــد مولد البنات . ونحن نتركهن يكبرن مهما كان عددهن عند الأم الواحدة ، ولذلك كانت القرية مكتظة بهن .

وقد رأيت بعينى يا أختى اثنتى عشرة فتاة أعرفهن . وهن جميعا مكتملات النمو ذوات لحم موفور ولون طبيعى . وكل واحـدة منهن تليق لواحد من أبنائى . لـكنى كنت أعلم أن المطلوب واحدة فقط ، فضيقت عينى وجعلت أنظر الى هذه والى تلك حتى وقع اختيارى على ثلاث . وأخذت استعرض هؤلاء الثـلاث فرأيت احـداهن تسعل والثانية تشكو ألما فى عينيها ، وأما الثـالثة فكانت أوفرهن كمالا . وهى فتاة بارعة حريصة فى أقوالها وافعالها وقد قيل انها أسرع خياطة فى البلدة . وهى تصنع ملابسها وملابس أهلها كمـا تصنع ملابس غيرهم وتجنى من ذلك بعض النقود . وهى اكبر قليلا من ابنك لأنها كانت مخطوبة من قبل وقد مات خطيبها قبل أوانه والا لـكانت الآن فى عـداد المتزوجات لـكن هذا ليس مما يؤخذ عليها ، فان والدها متلهف لتزويجها على وجه من الوجوه ولن يطلب فيها مالا كثيرا . وربما لم تكن وافرة الملاحة كغيرها . وهى فى الواقع شاحبة اللون الى حد بسبب انهماكها فى الخياطة . لكنها سليمة العينين .

فقالت الأم بسرعة :

ـ عندنا في البيت من العيون المريضة ما يكفى . كما أن نظرى لم يعد كما كان فى الماضي . ونحن فى حاجة الى فتـــاة تخيط وتحب الخياطة. واذا كانت لا تكبر ابني بأكثر من خمسة أعوام ففيها الكفاية.

وهكذا تم الاتفاق على هذه الفتـــاة . وذهبت الأم الى عراف فى البلدة فجعلت تضاهي عنده أيام الشهر الذى ولد فيه العروسان ، وموقع السنة وساعة المولد . فاذا هي جميعـــا تحمل طابع القبول والتوفيق . فاما الشاب فقد ولد تحت برج الحصان . وأما الفتـــاة فتحت برج القط ، وكلاهما لا يلتهم صاحبه . ولذلك تنبأ العراف بالوفاق فى الزواج استنادا الى هذه البيانات .

ولمـا تبين ان كل شيء يجرى مجـــراه الطبيعى ثم تبادل الهدايا المألوفة في مثل هذا المقام .

وذهبت الأم الى كنزها المخبوء فأخرجت منه بعض العملة الفضية والنحاسية واشترت اقمشة قطنية جيدة لصنع ثوبين للعروس . وقد أرادت ان تقوم بصنع الثوبين امرأة سعيدة الطالع موفقة في زوجها وابنائها كما جرت العادة . ومن فى القرية أكثر توفيقا فى هذا الشأن غير زوجة العم ؟ ولذلك حملت الأم القماش اليها قائلة :

ـ ضعي يدك فى هذا القمـــاش يا أختى حتى يمتد حظك الى زوجة ابنى .

فقامت زوجة العم بما طلب منها . وجعلت كلا الثوبين رحبـــا فضفاضا حول البطن حتى اذا حملت الفتاة لبستهما في يسر وسهولة ولم تطرحهما جانبا .

وانفقت الأم نقودا أخرى واستأجرت مقعد الزفاف الاحمر ، والتاج والقرط المصنوعين من اللآلىء الزائفة والسراويل الحمراء التى يتحتم على العروس ارتداؤها فى هذه الجهات . ثم حدد يوم الزفاف ، ومضت الأيام تباعا . وأخيرا حل هذا اليوم المنشود ، وكان يوما باردا من ايام الشتاء .

بدا هذا اليوم غريبا فى نظر الأم التى كان عليها أن تستقبل فى بيتها امرأة شابة جديدة وقد ظلت فيه عهـدا طويلا صاحبة المقـام الأول والحظوة التامة .

وحين وقفت لدى الباب تنتظر العروس وهى مرتدية افخر ثيابها ، ورأت مقعد الزفاف الاحمر يضم بين جنبيه العروس الشابة ، بدا لها انه لم يكد يمضي سوى عهد قصير منذ أن جاءت هي نفسها فى هذا المقعد . وقد وقفت العجوز المتوفاة حيث هى اليوم واقفة . ووقف

زوجها حيث يحتل ابنهـــا الآن مكانه . ولم تكن الأم تستعرض فى خيالها أيام زوجها الماضية الا لماما . والحق أنه كان يبدو لها فى عداد الموتى . لكن أعجب العجب ان قد ساورها الآن حنين الى هذا الرجل حيث وقف مكانها . وما كان هذا الحنين يمت الى الجسد بأوهى صلة. فقد مات مثل هذا الحنين وتلاشى منذ عهد طويل . ولكن كان حنينا من لون آخر ـ لاكمال ما تحسه من نقص فى شيخوختها ، بعــد ان شعرت بالوحدة والانفراد .

ونظرت الى ابنها نظرة لا عهد لها بها ، فاذا هو لم يعد ابنا لهـا وحدها بل كان زوجا لامرأة أخرى ، وقد وقف مكانه شديد السكون منكس الراس متصلب الأعضاء فى هذا الرداء الأسود الجديد الذى صنعته له ، يلبس حذاء في قدميه اللتين كانتا أبدا عاريتين .

وقد بدا لهــا بعيدا عن الانفعال او خيل اليها انه يبدو كذلك ، حتى رات يديه ترتجفـــان فى كم ردائه الأسود . فتنهدت ثانية . وتذكرت زوجها للمرة الثانية وذكرت كيف اطلت عليه من فرجة ستار مقعدها فوثب قلبها فرحا حينما راته وسيم المحيا تستريح العين اينما نظرت اليه . أجل . كان زوجها اكثر وسامة وصباحة مما يبدو الآن ابنها الاكبر ، وبدا لها الآن انه كان اجمل رجل راته فى حياتها .

على أن طليعة موكب الزفاف أهلت قبل أن تمضى الأم فى تأملاتها المحزنة الى أبعد من هذا الحد . فجاءت أولا فاكهة الزفاف يتبعهــا الديك الذى كانت الأم أرسلته الى بيت العروس فردوه مع دجاجة قرنوها اليه كما تقضى بذلك التقــاليد . ثم أقبل المقعد بعد هــذه الأشياء اليسيرة واستقر أمام الباب . وتقدمت زوجة العم والأرملة الثرثارة وغيرهما من نساء القـــرية المكتهلات واخذن بيد العروس محاولات اخراجها من المقعد . فتمنعت وتأبت أول الأمر . ثم خرجت أخيرا ولكن فى نفور شديد . وقد غضت بصرها ولم تتطلع بعينيها مرة واحدة . وعند ذلك انسحبت الأم الى دار العم عملا بالعادة المتبعة التى تحظر على زوجة الابن أن ترى حماتها فى يسر وسهولة والا استخفت بأمرها فيما بعد ولم ترهب جانبها . وأمضت الأم نهارها كاملا فى بيت العم .

على ان الأم وقفت قرب الباب تنصت الى ما يقـــوله الناس عن الزوجة الجديدة . فسمعت أحدى النساء تقول : « هى فتاة طيبة مستقيمة » . وقالت أخرى : « يقال انها تجيد الخياطة ، واذا صح انها صنعت الحذاء الذى تلبسه فان لها أصابع ثمينة » .

وذهبت نساء الى العروس فأخذن يتحسسن ثوب الزفاف الاحمر ورفعن الرداء الخارجي لفحص ما تحته من الملابس الداخلية ، فألفينها جميعا متقنة الصنع ووجدن الأزرار صلبة مصنوعة بدقة من قماش مجدول . وأسرعن الى الأم فنقلن اليها ما رأين وقلن لها :

ــ هى فتاة طيبة قديرة ومظهرها يدل على تمام الاستقامة .

لكن بعض الرجال تناول العروس بالنقد الجاف وقال قائل منهم :

ــ هى شديدة النحول والشحوب لا أسيفها اذا كانت لى .

فرد عليه آخر قائلا :

ــ نعم . لكن هذا النحول يعالج فى ظرف شهور قلائل يا أخى . وليس كالرجل فى قدرته على نفخ الفتاة .

وبينما كانت هذه الأحاديث الطروبة المكشوفة تدور ، تقدمت العروس مترددة متثاقلة الى بيتها الجديد . وهكذا تمت مراسم الزفاف .

ثم اضطرت الأم لاخلاء الفراش الذى نامت فوقه أعواما طويلة . وجاءت زوجة الابن ليلا لاعداد فراش الحماة كما تقضى بذلك التقاليد فبسطت خلف الستائر تلك المرتبة التى كانت العجوز المتوفاة تنام فوقها من قبل ، وكان ينام فوقها بعد ذلك الابن الأكبر . ووضعت مرتبة أخرى بجانب هذه لنوم الفتاة العمياء . وترك للابن الأصغر أن ينام فى المطبخ اذا عن له أن ينام فى البيت اطلاقا . أما الفراش الأصلى فقد جعل الآن لنوم الابن الأكبر مع زوجته الجديدة .

ولم يكن يسيرا على نفس الأم أن تتخلى للزوجين الحديثين عن المكان الذى كان لها ولزوجها من قبل . وقد جعلها هذا التطور تبدو هرمة فى عينى نفسها كلما آوت الى فراش العجوز الميتة ـ وكانت فى النهار تتشاغل وتصدر الأوامر وتصلح هذا وتعدل ذاك ، فتبدو فى حالتها العادية . أما فى الليل فكانت عجوزا فانية . وطالما كانت تستيقظ ليلا فتنكر نفسها ولا تكاد تصدق انها هى التى ترقد فوق المرتبة وان الزوجين يحتلان الفراش الكبير حقا . وكانت تناجى نفسها وقد استحوذ عليها الذهول بهذه الكلمات :

ــ أحسب ان تلك العجوزالتى كانت أما حينما جئت الى هذا البيت قد أحست احساسى وساورها شعورى الحالى عندما اقتحمت بيتها عروسا ونحيتها عن فراشها واحتللته بدورى مع ابنها . والآن ها هى ذى أخرى ترقد فى الفراش مع ابنى .

عجبت الأم أشد العجب من هذه العجلة الخفية التى تدور الى

ما لا نهاية . هذه السلسلة المتصلة الحلقات التي لا يدرك آخرها ، حتى لقد بهرها التفكير فيهذا الشأن. واذهل حواسها ، مذ كانت لا تتكلف التفكير فيما يعرض امام عينيها ، وانما تتقبل كل ما تراه بالتسليم والامتثال . لـكنها تضاءلت في عيني نفسها منذ هذا اليوم . ومع انهـــا كانت بالاسم كبرى نســاء البيت واولاهن واجـدرهن بالسيادة والتصدر فانها لم تبد كذلك في عينيها .

ثم جعلت الأم تراقب زوجة ابنها . فألفتها مجدة غيورة على اداء واجباتها ، وكانت تقوم بواجب التحية لحماتها فتنحنى أمامها كل يوم حتى تبرمت الأم وامرتها أن تكف عن هذه التحية ، لكن الأم لم تستطع أن تهتدى الى نقيصه في خلق الفتاة أو في تصرفاتها . ومن ثم كان هذا الـكمال نقيصه في ذاته . وغمغمت الأم قائلة :

ــ حسنا . . لا شك أن بها عيبا خفيا لا يبدو لي فورا .

فان زوجة الابن لم تكشف عن دخيلتهـا مرة واحدة . اذ كانت موفورة النشاط سريعة في اتمام واجباتهـــا . واذا اتمت كل شيء جلست تخيط شيئاً لزوجها . لكنها كانت تؤدى أعمالها بطريقتهـا الخاصة الدالة على الحرص والتدقيق .

والواقع انه ليس في الدنيا امرأتان يمكن أن تقـــوما بعمل واحد بطريقة متشابهة . وقد غابت هذه الحقيقة عن ذهن الأم وكانت ترى ان جميع النساء يفعلن الشيءكما تفعله . لكن هذه الزوجة كانت تمتاز بطابعها الخاص في القيام بكافة الأعمال . وكانت اذا تولت طهى الأرز جعلت فيه ماء كثـــيرا ، أو هكذا كان يخيل للأم فيجيء الأرز أكثر رخاوة مما ألفت الأم أو مما تحب أن يكون . وقد نفضت هذا الرأى لزوجة الابن ، لكن هذه اطبقت شفتيها الشاحبتين وقالت لها :

ــ لكنى أصنعه دائما هكذا .

ولم تشأ أن تغير هذه الطريقة .

وسرت هذه القاعدة الى كافة الشئون المنزلية الأخرى . فقد جعلت زوجة الابن تتناول هذا الشيء وذاك بالتغيير والتبديل وفاقا لذوقها ، ولم تلجأ في هذا الى العجلة والتسرع والنزق ، بل كانت دائمـــا في أعمالها مثال التأنى والحرص والأخذ بقاعدة التدرج . وبهذا لم تهيىء للأم سبيلا للغضب والتحرش .

ثم كانت هناك مسألة اخرى . فان الزوجة الشابة نفرت من رائحة الدواب في الليل وشكت من ذلك لا الى الحماة ولكن لزوجها . فعمد الرجل في نفس هذا الشتاء الى بناء غرفة اخرى ملحقة بالبيت لنقل

الفراش اليها حتى ينام وزوجته وحدهما . وكانت الأم تنظر الى هذه التطورات الجديدة بعين الدهشة والعجب .
وقد قررت الأم لفتاتها العمياء أول الأمر انها لن تغضب من زوجة ابنها . والواقع انه لم يكن يتيسر لها أن تبدى هذا الغضب بسرعة فان الزوجة الشابة كانت تتقن أعمالها وتؤديها بحرص وتدقيق وكان يتعذر على الأم ان تقول لها انك اخطأت فى هذا أو لم تتقنى ذلك .
لكن من الامور ما كانت الأم تمقته أشد المقت كطهى الأرز رخوا طريا ، وجعلت تكرر الشكوى من هذا الأمر ولم تتمـــالك أخيرا ان رددت شكواها عاليا فى هذا الشأن اذ قالت :
ــ أنا لا أشعر بالشبع والتغـــذية بمثل هذا الأرز . لا يوجد ما أمضغه بأسنانى من هذه المادة المائية . وهى تقر ببطنى كالريح ولا تستقر بها كما يستقر الطعام الثابت الجيد .
ولما رأت أن زوجة ابنها لم تعر هذه الشكوى التفاتا ذهبت خلسة ذات يوم الى ابنها فى الحقل وقالت له :
ــ يا بنى . لم لا تأمرها أن تطهو الأرز جافا يابسا ؟ انى كنت أعرف انك تحبه هكذا .
فكف الابن عن العمــل واستند الى فأسه قليــلا ثم قال بلهجتــه الهادئة :
ــ انى أحبه كما تصنعه وتجيد صنعه .
فما كادت الأم تسمع هذا الجواب حتى تحرك الغضب فى صدرها وقالت :
ــ أنت لم تكن تحبه هكذا . ومعنى هذا انك تنضم اليها ضدى . من العار أن تحبها هذا الحب وتقاوم أمك .
فتورد وجه الشاب توردا شديدا وقال ببساطة :
ــ نعم انى أحبها كثيرا .
واستأنف العمل بمحراثه .
ومنذ هذا اليوم أدركت الأم انهما صارا سادة البيت . ولم تختلف طباع الشاب عن رقتها المألوفة وكان يجيد القيام بالعمل ويستحوذ على النقود فى يده . وصحيح انه لم ينفق هذه النقود ولم تمســها زوجته ، فقد كان كلاهما من المستمسكين بأسباب الاقتصاد . لكنهما كانا رجلا وزوجته والبيت بيتهما والأرض أرضهما ، ولم تعد الأم فى نظرهما سوى امرأة عجوز .
وصحيح كذلك أن الأم اذا تكلمت فى مسائل التربة أو البذور أو

شئون العمل الزراعى الذى كانت تعرفه تماما مذ كانت مستقلة به وحدها ـ كان الزوجان يتركانها تتكلم ، حتى اذا فرغت من الكلام كانت كأن لم تتكلم ، وراحا يقومان بمشروعاتهما الخاصة ويؤديان كل شيء على الوجه الذى يحلو لهما . وبدا للأم انها لم تعد شيئا مذكورا وان خبرتها لم تعد ذات قيمة فى البيت الذى كان بيتها .

كان هذا أشد من أن يستطيع انســـان احتماله . ولما تم تشييد الغرفة الجديدة وانتقل اليهـــا الزوجان غمغمت الأم قائلة لفتاتها العمياء التى كانت ترقد بجوارها :

ـ انا لم أر فى حياتى مثل هذه المغالاة فى الرقة . وكان رائحة الدواب الطيبة هى سم مميت . احلف انهما جعلا هذه الغرفة ليتيسر لهما البعد عنا وتدبير خططهما دون أن نسمعهما . انهما لا يفضيان الى بشيء بتاتا . ليست المسألة مسألة دواب . ولكن الحقيقة ان اخاك يحبها حبا مخجلا . نعم هما لا يهتمان بك ولا بأخيك الصغير ، بل لا يهتمان بى ايضا .

ولما لم تجب الفتاة قالت لها الأم :

ـ الا ترين هذا مثلى يا ابنتى ؟ . الست على حق ؟ .

فترددت الفتـــاة قليلا ثم صدر صـــوتها من خلال الظـــلام بهذه الجملة :

ـ يا أمي عندى كلام اريد أن أقوله لك ، ولكنى لا أود ان أقول لـكيلا أحزنك .

فهتفت الأم :

ـ تكلمى يا بنت . انى تعودت الحزن .

فقالت الفتاة فى صوت خافت :

ـ ماذا تنوين أن تفعلى بى يا أمى وأنا فتاة عمياء ؟ .

كانت الأم ترى ان من الممكن أن تقيم هذه الفتاة معها فى هـــذا البيت مدة أخرى . وقالت فى دهشة :

ـ ما هو قصدك يا ابنتى ؟ .

فأجابت الفتاة :

ـ أنا لا أقصد أن أقول ان زوجة أخى ليست طيبة . فهى ليست قاسية . لكنى أظن انها لا تحلم بأنك لن تزوجينى قريبا . وقد سمعتها تسأل اخى الأصغر عن امكان خطوبتى . ولما قرر لها انى لست مخطوبة قالت له بدهشة : « فتاة كبيرة لا حماة لها ! » .

فقالت الأم :

ـ لكنك عمياء يا ابنتي . وليس من السهولة تزويج فتاة عمياء .
فقالت الفتاة برقة :
ـ اعرف هذا .
ثم استطردت بعد قليل في انفعال :
ـ لكنك تعرفين يا أمي ان في قدرتي أن اقوم بأعمال كثيرة . وقد يوجد رجل بائس ، كأرمل مسكين أو سواه ، يرضى بما أستطيع أن أؤديه دون ان يدفع لي مهرا . فاذا تيسر هذا كنت في بيتي وتسنى لي اذا ذهبت انت ان أجد من اهتم به . أنا لا اظن ان أختي تريدني يا امي .
لكن الأم اجابت في لهجة عنيفة :
ـ لن ادعك تذهبين لتعمير بيت رجل على هذا الوجه يا طفلة . نحن فقراء كما اعرف . لكن في وسعنا أن نطعمك . ان أرامل الرجال يا ابنتي هم أقسى وأغلظ الأزواج . فلتنامي اذن ولا تفكري في هذا بعد . أنا لا أزال موفورة القوة ويمكن ان اعيش مدة طويلة . ولم يكن اخوك قاسيا نحوك أبدا ، حتى وانت طفلة .
فقالت الفتاة وهي تتنهد :
ـ هو لم يكن متزوجا في ذلك العهد .
ولزمت الفتاة الصمت بعد هذا كأنما استسلمت للنوم .
لكن الأم لم تجد سبيلا للنوم رغم انها كانت في الليالي السالفة تستغرق في النوم . وتمددت في مكانها تقدح ذاكرتها وتستعرض الأيام الماضية يوما يوما لعلها تجد سندا من الحقيقة والواقع يؤيد ما قالت الفتاة . ومع انها لم تستطع ان تهتدي الى شيء معين فقد بدا لها ان زوجة الابن ليست بارة ولا رفيقة . اجل انها لم تكن بارة كما يجب نحو الابن الأصغر ، وهي أقل برا بالفتاة العمياء . وهكذا توفرت للأم مادة جديدة للألم والعذاب .

الفصل الثاني عشر

كان غضب الأم شديدا عندما وجدت ابنها الأكبر يستحثها على تزويج أخته العمياء لانه لا يستطيع اطعامها طول حياته . وقد اتهمته بأن هذه الفكرة هي من تحريض زوجته ورفضت بعناد واصرار . ثم تجرأت زوجة الابن واصبحت تشكو علنا وتعرض بالابن الأصغر

الكسول العاطل والفتاة العمياء التى لم تتزوج. وكان الجيران يتدخلون ويقولون ان هناك عائلات فقيرة لها ابن لا أمل له فى الزواج ويمكن أن تقبل فتاة عمياء فقيرة زوجة له اذا أخذت العروس بلا مقابل .
وبتأثير الحاح الجيران رضخت الأم وانتهى طـول البحث الى تزويج الفتاة من ابن لعائلة فقيرة بين التلال الشمالية فى ارض قاحلة ، فقد بدا للأم أخيرا انها قد لا تعيش طويلا ولابد لها من الاطمئنان على مصير فتاتها العمياء ، كما ان مرض الأم عجل بتنفيذ هذه الخطوة التى زكاها الجميع . وعندما حل يوم رحيل الفتاة الى بيت الزوجية النائى بين التلال ، جاء رجل عجوز فوق حمار اعجف لمصاحبة الفتاة الى مقر ابن أخيه العريس بين التلال تنفيذا لما تم الاتفاق عليه بين الوسطاء . وقد توجست الأم شرا من هيأة العجوز وكادت تمانع لولا الحاح الابن الأكبر وزوجته والجيران . وهكذا غلبت الأم على أمرها وركبت فتاتها الحمار الأعجف مرتدية ما صنع لها من ملابس جديدة وودعتها الأم وهى تشدد من عزمها وتعدها بزيارة قريبة فى مقرها الجديد ، وعندما توارت الفتاة خلف التلال استسلمت الأم للدموع والأحزان .

***

لم يكن للأم الا ان تتشاغل على وجه من الوجوه تسكينا لمخاوفهـا وسدا للفراغ الذى خلفه ذهاب الفتاة العمياء . وقد بدا لها البيت ساكنا والشارع مقفرا حيث لم تعد تسمع رنين الناقوس الصـــغير الذى كانت الفتاة تدقه كلما خرجت من البيت . فلم تقو الأم على الصبر والاحتمال وذهبت الى الحقول للعمل فيهـــا على غير رغبة ابنها ، ولما رآها تمسك الفأس قال لها :
ـ لا حاجة بك الى العمل يا أمى . يخجلنى ان أراك تعملين فى الحقول ويراك الناس هكذا وانت فى سن الشيخوخة .
لكنها قالت له غاضبة :
ـ لست عجوزا كما تتصور . دعنى أشتغل حتى أروح عن نفسى . الا ترى كيف يجب ان أروح عن نفسى ؟ .
فأجاب الشاب فى عناده المألوف :
ـ يبدو لى انك تحزنين بلا موجب للحزن يا أمى . ولا حاجة بك الى توقع مكروه قد لا يحدث أبدا .
لكن الأم قالت فى حزن لازمها هذه الأيام ملازمة الظل :
ـ انت لا تفهم . انت صغير . لا تفهم شيئا بتاتا .

فتطلع الشاب الى امه فى ذهول دون أن يدرك مغزى كلامها . لكنها لم تنبس بكلمة أخرى . بل حملت فأسا وخرجت الى الحقول فى صمت وسكون .

على انها لم تعد تقوى على العمل الشاق بعد . فقد كان العرق يغمرها اذا فعلت . واذا هبت الريح ولو ساخنة بعثت قشعريرة فى جسدها . وسرعان ما تجدد الداء وعاودها مرض القيء القديم .

فلم يكن بد اذن من أن تحتمل هذا الخمول ، ولم تسع الى العمل فى الحقول بعد شفائها . بل كانت تجلس فى مدخل الدار فى كسل واستسلام . ولم تكن بحاجة الى القيام بأى عمل فى داخل البيت اذ كانت زوجة الابن لا تترك صغيرة ولا كبيرة الا قامت بها على خير الوجوه .

وقد رات الأم ان لا عيب فى هذه الزوجة ســـوى انها لا تحمل ولا تلد . وكانت الأم وهى جالسة فى مكانها بلا عمل تدير عينيها قلقة فى أرجاء الحوش حيث ألفت من قبل أن تنظر أطفالها الصغار يتعثرون فى لعبهم . وكانت طوال يومها تستعرض الأيام الذاهبة . وتذكرت كيف جلست مرة فى هذا المـــكان تفيض صحة وشبابا وقد وقف زوجها عن كثب وراح اطفالها يرتعون ويمرحون وهى الزوجة الشابة وغيرها الأم العجوز . ثم ذهب زوجها ولم تسمع عنه شيئا . فحزنت فى نفسها هذه الذكرى وأعرضت عنها . وعاد بها الفكر الى الواقع فبدت الدنيا فى عينيها خواء او كالخواء . فقد كان ابنهـــا الاكبر يقضى يومه فى الحقول او يتفقد المحصول مع وكيل المـــالك ، وهو رجل عجوز مهدم قيل لهم انه يمت بصلة القرابة الى المـــالك ولم يقع نظرها عليه مرة واحدة . وقد ذهبت ابنتها العمياء . وكان ابنها الأصغر يختلف كثيرا الى البلدة ولا يعود الى البيت الا لماما .

ومهما يكن من شيء فقد بقى لها هذا الابن الأصغر . وكانت تفكر فيه كثيرا وتؤثره على سائر أولادها بمزيد الحب والاعزاز . وكان يبدد وحشتها كلما جاء بين حين وآخر ويخلق فى سماء حياتها جوا من البهجة والانتعاش . واذا رأته نهضت من عزلتها باسمة وراحت تملأ العين من محاسنه وتجتلى طلعته البهية . فهو أجمل أولادها وأقربهم شبها لأبيه . وكان يجيء فى هذه الأيام مطمئنا آمنا لا يخاف اخاه كما يخافه من قبل ، اذ كان يقوم بعمل فى البلدة يستمد منه بعض الكسب .

على انه لم يقل مرة ما هو هذا العمل ولم يشر اليه بشيء من

التجديد ، ولم يعرف عن هذا العمل الا انه كان يهيىء له مالا كثيرا احيانا واحيانا اخرى كانت جيوبه تنضب منه ، وان لم يظهر هذا المال مرة لأمه ولكنه كان يبدو فى الملابس الطيبة التى يرتديها ، على انه كانت تهزه الأريحية أحيانا فيدس فى يد امه خلسة قطعة من النقود ويقول لها :

ـ خذى هذه يا امي وانفقيها على نفسك .

فكانت الأم تتقبلها منه وتثني عليه وتبدى له حبها اذ كان الابن الأكبر لا يقدم لها مالا على الاطلاق ، ومنذ آلت اليه السيادة فى البيت استبقى النقود كلها فى يده ولم يتخل عن شيء منها . وقد كانت فى الحق تنال كفايتها من الطعام وهو لذتها الوحيدة الباقية ، وكانت تتمتع بالملبس الطيب والخدمة الصادقة ، بل كان كفنها قد هيىء لها وان لم تفكر بعد فى الموت وكانت ترى انهـا تستطيع ان تعيش طويلا ، وكانت تنال كل ما تطلبه وتشتهيه. فمن قصبة لتدخين وقدر من الطباق الجيد ، الى قدح من النبيذ الأصفر الذى يقدم لها ساخنا ، لكن ابنها وزوجته لم يخطر لهما يوما ان يدسا فى يدها قطعة من النقود ويقولا لها : « خذى هذه لانفاقها فى أى شيء تحبين». وكانت تعلم انها اذا طلبت مثل هذه القطعة لتبادل الزوجان النظر وقال أحدهما :

ـ لكن أى شيء تشترين بها ؟ السنا نقدم لك كل شيء .

فلما أعطاها الابن الأصفر قطعة النقود سرت بها أكثر من سرورها بكل ما فعله الزوجان نحوها ، وأبقتها فى صدرها حتى جاء الليل فنهضت الى الحفرة واخفتها فى بطنها .

لـكن هذا الابن الأصفر لم يكن بحيث تراه دائما . وكانت الأم وزوجة ابنها تجلسان وحدهمـــا فى الحوش فيبدو للأولى ان كل ما حولها خواء ووحشة وفراغ . وكانت تجلس مكانها ترسل الزفرات وتدخن القصبة وتفكر فى حياتها الماضية أو فى بعض نواحيها على وجه التحديد . فقد كان يشوبها ذلك الحـــادث الذى لا تستطيب التفكير فيه . واذا فكرت فيه اعاد الى ذهنها شأن فتاتها العمياء ولم تستطع أن تحزم بأن الحادث ومصاب الفتاة غير مقترنين فى تقدير الآلهة وحسابها . وكان يعن لها احيانا ان تقصد الى احد المعـــابد التماسا لبعض السلوى والعزاء وان كانت لا تدرى كنههما . لكن الخطيئة الماضية كانت تقف ابدا سدا امامها ، وكان يبدو لها ان أوان الصفح والغفران قد انقضى وفات ، فتدع الامور تجرى فى

مجراها وتتنهد وتتحدث أحيانا عن ابنتها العمياء فى حزن وكآبة :
ولما تكلمت يوما فى هذا الشأن قالت زوجة الابن بحدة :
ــ هى بخير ولا شك . ومن حسن الحظ انكم وجدتم من يقبلها زوجة لولده .
فقالت الأم بحرارة :
ــ ان ابنتى فتـاة ماهرة . وأنا اعرف انك لا تؤمنين بقدرتهـا ومهارتها . لـكنها كانت تقوم بأعمال كثيرة قبل مجيئك ، فلما جئت ولم تتركى لها أن تعمل شيئا فاتك أن تعرفى مبلغ مهارتها .
فقالت زوجة الابن وهى تدنى القماش الذى تخيطه من عينيها لـكى تحكم خياطته :
ــ نعم . ربما كان هذا . لكنى تعودت مواصلة العمل الذى أقوم به حتى أتمه . أما الفتـاة العمياء فانها لا تقـدر على القيام بعمل جـدى .
فتنهدت الأم ثانية وادارت نظرها فى الحوش الخاوى وقالت :
ــ ليتك كنت تحملين طفلا يا ابنتى . لابد لكل بيت من طفل أو طفلين أو ثلاثة . وأنا لم أتعود بقاء البيت خاويا هكذا . ويا ليت ولدى كان يتزوج اذا كتب عليك الا تعقبى أولادا . لكن لن يفعل هـذا لسبب ما .
كان هذا العامل مصدر حزن الشابة . فقد مضى على زواجهـا خمس سنوات دون ان تحمل أو تظهر عليها دلائل الحمـل . وقد ذهبت الى أحد المعابد للصـلاة والدعاء وفعلت كل ما تستطيع وتعرف . غير انها بقيت عاقرا ولم تظهر لها بارقة أمل . غير انهـا كانت شديدة الكبرياء لا ترضى أن تكشف عن مبلغ حزنها فى هذا الشأن . وقد أجابت الأم فى هدوء :
ــ سيكون لى أولاد فى الوقت المناسب ولا شك .
فقالت الأم فى نزق :
ــ نعم . لكن هذا هو الأوان . انا لم اسمع بامرأة متزوجة فى قريتنا لا أولاد لها . ان رجالنا يغدون آباء حالما يتزوجون ، ونساءنا دائما ذوات خصب . بذرة صالحة . وتربة صالحة . لابد من وجود مرض خفى فى جسمك يتولد عنه هذا العقم الغريب . انى صنعت لك ملابسك رحبة فضفاضة . لكن ما الفائدة ؟ .
وراحت الأم تشكو لزوجة العم وتقول لها همسا :
ــ أنا أعرف تماما مصدر الخلل . ان زوجة ابنى مجـردة من

الحرارة . هى مخلوقة شاحبة صفراء . وهى لا تختلف فى يوم عن يوم ولا يعلوها ابدا ذلك التوقد الذى يصدر من داخل الجسم .

فأومأت زوجة العم براسها ايجابا وضحكت وقالت :

ـ صحيح ان أمثال هؤلاء النساء الصفراوات الباردات لا يحملن بسرعة .

ثم ضحكت ضحكة اخرى ذات مغزى واستطردت :

ـ لكن ليست كل امراة مملوءة حرارة يا أختى كما كنت فى شبابك . وأنت تعرفين تماما ان هذا غير محمود دائما فى المراة .

فلما سمعت الأم هذا التعريض قالت بسرعة :

ـ آه . نعم . اعرف هذا .

ولزمت الصمت بعض الوقت . ثم قالت مكرهة :

ـ صحيح انها امراة حريصة شديدة النظافة . وهى تغتسل بين وقت وآخر وربما كان هذا هو سبب عقمها . فان الافراط فى الاغتسال غير محمود دائما .

لكنها لم تتكلم فى حرارة النساء بعد هذه المناسبة . فقد خافت ان تثير زوجة العم موضوع الخطيئة التى ارتكبتها فى أعماق الماضى ، وان كانت زوجة العم من أطيب النساء ولم تشر مرة الى هذا الموضوع بشىء طوال تلك السنوات . ولولا هذان العاملان اللذان كانا مصدر حزنها وانقباضها ـ اى عمى الفتاة وعقم زوجة الابن ـ لنسيت الأم هذه الخطيئة نسيانا تاما بعد أن باعد الزمن بينها وبين عهود الجسد والشباب . اجل . كان يمكن أن تنسى هذه الخطيئة لولا اشفاقها من أن يكون الحزن المقترن بهذين العاملين هو عقاب الخطيئة وجزاؤها .

لكن هكذا قدر ان تكون حياتها . فابنتها عمياء وقد ذهبت عنها . وزوجة ابنها عاقر لا ولد لها . . وليس حولها سوى الدواب والكلب . وحتى هذه الحيوانات لم تجسر على اطعامها .

ولم يبق لها عزاء فى هذه الأيام سوى أن ولديها كفا عن الاختصام والشجار . فقد قنع الابن الأكبر بما نال من سيادة فى البيت . واستقر الابن الأصغر خارج الدار فى مكان ما ـ وقصارى ما كان نفعله الشاب اذا جاء اخوة ثم عاد من حيث جاء أن يقول فى شىء من الازدراء .

ـ ترى من اين يستمد اخى هذه الملابس الطيبة التى يرتديها وما هو هذا العمل الذى يؤديه ؟ لا أستطيع ارتداء ملابس كهذه

الملابس وانا الذى أكد واقوم بأشق الأعمال . ويبدو انه يحصل على المال من اى طريق . وكل ما ارجو الا يكون مندمجا فى سلك عصابة من لصوص المدن أو فى شىء من هذا القبيل فيجلب لنا التعب اذا قبض عليه .

فلما سمعت الأم هذا الكلام هبت فى بسالة للدفاع عن ولدها الأصفر كدابها . وقالت :

ــ ان اخاك ابن شديد الطيبة . ويجدر بك أن تثنى عليه وتحمد ذهابه وتوفيقه الى عمل خاص يقوم به حتى لا يبقى هنا ويشاركك هذه الأرض .

فقال الشاب ساخرا :

ــ نعم .. هو يرضى ان يقوم بكل شىء-يبقيه بعيدا عن العمل فى الأرض .

أما زوجة الابن فلم تتدخل فى شىء من هذا الحوار . فقد طابت نفسا هذه الأيام اذ بقى البيت لها وحدها ولم يكن يعنيها ما يقوم به الابن الأصفر وما يفعله . وانقطعت شكواها الآن لأنه كان يبتاع ملابسه ويخيطها بعيداً فلا تضطر لصنعها له .

وهكذا كانت الأيام تمضي والزمن يدور . واقبل الربيع وانقضى وجاء الصيف ولم تستطع الأم ان تنسى فتاتها .

وجلست ذات يوم تحصى على أصابعها الأيام التى مضت منذ أن حالت التلال بينها وبين ابنتها . فأحصت بأصابع يديها حوالي اثنتى عشرة مرة ثم ضلت والتبس عليها العد . ولذا قالت فى كآبة :

ــ لابد من ذهابى اليها . انى استسلمت للضعف وكان يجب أن اذهب من قبل . ولو كانت فتاة صحيحة لجاءت الآن لأداء الزيارة التى تقوم بها الزوجات لبيوتهن القديمة ، ولسألتها عن حالها ولمست يديها وذراعيها ووجنتيها ورأيت لون وجهها .

وراحت الأم تسرح الطرف فى سفوح التلال المحيطة بها وقد اكتست بتقدم الصيف ثوبا سندسيا وأينعت النباتات فى الحقول وبسقت أعوادها . وراحت تتحامل على جسدها الذى دب اليه الاعياء رغم خمولها الدائم . وناجت نفسها قائلة :

ــ لابد من ذهابى فورا لرؤية ابنتى . فقد أصبحوا لا يحتاجون الى فى الحقول وهأنذا أجلس خاملة بلا عمل . سأذهب قبل اشتداد الحرارة حتى لا يصيبنى المرض من جديد . نعم . سأذهب فى الغد اذ لا توجد سحابة واحدة فى هذه السماء الجميلة . هذه السماء الزرقاء .

ولما جاء ابنها الأكبر قالت له :
ــ انني أفكر فى الذهاب غدا لرؤية اختك ، ولمعرفة أحوالها فى البيت الذى تزوجت فيه ، لأنها لا تستطيع ان تجىء الى .
فلما سمع الشاب هذا الكلام قال فى لهجة القلق :
ــ لا يمكننى أن أذهب معك يا أمى فى الوقت الحالى . الآن عندنا عملا فى الغد . انتظرى حتى يتم الحصاد ويدرس الحب ويكال ، فيتيسر لى بعض الفراغ لمرافقتك .
لكن الأم لم تستطع ان تنتظر . فقد كانت ذات صلابة وقوة اذا اعتزمت امرا ، وكانت متبرمة من طول قعودها وخمولها . وقالت :
ــ لا سأذهب غدا .
فقال الابن دون أن يفارقه قلقه :
ــ لكن كيف تذهبين يا أمى ؟
فاجابت :
ــ ساركب حمار العم اذا أعارنى اياه . ولتكلف انت احد أولاده بالذهاب واستدعاء أخيك لكى يقود الحمار ويسير بجانبى . وسنكون فى أمان اذ لا يوجد لصوص فى هذه الأيام سوى هذا النوع الجديد من لصوص المدن الذى يسمونه « الشيوعيين » .
وقد رضى الابن آخر الأمر ان ينزل على رايها ، وأن لم يذعن لها بسهولة حتى تدخلت زوجته وقالت بهدوء :
ــ صحيح انى لا ارى خطرا ما اذا رافقها اخوك الأصغر .
وهكذا تركوا الأم تفعل ما يحلو لها . وذهب ابن العم الى البلدة وبحث عن الابن الأصغر حتى وجده وعاد الى الأم قائلا :
ــ ان ابن عمى وابنك الثانى سيجيئان يا عمتى .
وجعل الفتى يفكر قليلا وهو يدير زر ردائه ثم قال ثانية :
ــ احلف ان ابن عمى الأصغر يقيم فى مكان سرى غريب يصعب ايجاده . فهو يعيش فى غرفة مستطيلة مملوءة بالفرش . فيها نحو عشرين فراشا وهى كائنة فوق احد الحوانيت . وهى مكتظة بالكتب والأوراق . لكنى سألته وعلمت منه انه لا يشتغل فى الحانوت . انا لم اكن أعلم يا عمتى ان ابن عمى يستطيع أن يقرأ واذا كان يقرأ هذه الكتب فهو رجل عالم .
فقالت الأم فى دهشة :
ــ هو لا يعرف القراءة . وهو لم يخبرني ابدا انه يكسب من الكتب . والحقيقة ان هذا شىء شديد الغرابة . ولابد أن أسأله

في هذا الشأن .
وفي اليوم التالي بعد ان ركبت الأم الحمار وسار بها يشق طريقه في الوديان انتهزت فرصة انفرادها بولدها وسألته :
ـ ما هذه الكتب والاوراق التي قال ابن العم انها موجودة في تلك الغرفة التي تقيمون فيها جميعا ؟ انت لم تخبرني ابدا بأنك تعرف القراءة أو انك تعيش من الـكتب . أنا لم أرك تقرأ كلمة واحدة يا ولدي .
فكف الابن عن اتمام الأغنية التي كان آخذا في الترنم بها اذ كان رخيم الصوت يحب الغناء ، وأجاب قائلا :
ـ نعم . اني تعلمت قليلا .
ولما الحت عليه في السؤال قال لها :
ـ لا تسأليني الآن يا أمي . فانك ستعرفين كل شيء في يوم ما ، متى حانت الساعة .
قلقت الأم ولم تتمالك أن هتفت مشفقة :
ـ ارجو الا تكون مندمجا في عصابة شريرة يا ولدي كلصوص او من شاكلهم . هذا اقرب الى كلام النهابين وقطاع الطرق يا ولدي .
لكن الفتى غضب من هذا الكلام وقال :
ـ انت لا تفهمين شيئا يا أمي . اني اقسمت أن الزم الكتمان . لـكن سيأتي يوم تعرفين فيه كل شيء . نعم . لن انساك في ذلك اليوم . لكن انت وحدك . ولن اقاسم احدا لم يقاسمني .
وقد فاه الفتى بهذه الجملة الأخيرة في صوت مرتفع حتى لقـد فهمت الأم انه يعني أخاه بها . ولذا لزمت الصمت لحظة خوفا من اثارة غضبه .
لـكنها لم تستطع أن تتركه حيث يريد ، وقد جلست فوق ظهر الحمار وتشبثت بجلده ذي الشعر وجعلت تفكر في أمر هذا الابن وتخالسه النظر .
رأته يسير أمام الحمار ممسكا بزمامه ، وانشأ يغني من جـديد اغنية لم تسمع مثلها في حياتها ، اغنية ملتهبة نارية لم تستطع ان تلم بكلماتها . ورأت انه قد آن الأوان لكي يتصل هذا الفتى بالحياة ويندمج فيها . أجل . ويجب أن ترده الى حظيرة البيت والعائلة وتربطه اليهما برباط أشد وثاقا . وعليها أن تزوجه وان تضم زوجته الى البيت . فاذا فعلت كثر تردده على البيت . وربما أقام فيه اقامة دائمة لأجل زوجته . وفي وسعها أن تلتمس له فتاة حسناء ...

يمكنه أن يعشقها . لأن فى وسع زوجه الابن الاكبر ان تقوم بسائر أعمال البيت فيتيسر للأم ان تفتش لابنها الأصغر عن زوجة من طراز آخر .

فلما استعرضت الأم هذه الخواطر طابت نفسها ولم تستطع أن تكتم ما يجيش فى صدرها وقالت له :

ــ أنت الآن يا ولدى تناهز الحادية والعشرين من عمرك . وقد فكرت فى تزويجك قريبا . كيف تجد هذه الفكرة السارة ؟ .

كانت الأم تتوقع أن يبتسم الفتى ويلزم الصمت وهو بين الرضا والحياء . لكنه وقف مكانه واستدار نحوها وقال باصرار :

ــ كنت أنتظر منك مثل هذا الكلام . فهو كل ما تفكر فيه الأمهات ويملأ ادمغتهن . ورفاقى يقولون ان هذا هو كل ما يردده آباؤهم . لكنى لن اتزوج . واذا زوجتنى رغم ارادتى ، فلن ترى وجهى ابدا .

ودار فى مكانه وجعل يسير بسرعة أكبر فلم تجسر على مبادرته بالكلام . بل جلست فى مكانها مذهولة مرتاعة من غضبه وسكوته عن الفناء .

غير أنها لم تلبث ان نسيت هذا الموضوع بتأثير ما هى مقبلة عليه فقد اخذ الطريق يضيق شيئا فشيئا . وتلاشت سفوح التلال السندسية واعقبتها سلسلة من الجبال الصخرية الجرداء الصاعدة فى السماء . واختفت النباتات لانعدام المياه فى هذه البقاع المقفرة المجردة من معالم الحياة . وكان الطريق يمتد متعرجا صاعدا لا نهاية له . وبعد الظهر بساعتين تقريبا أشرق فجأة على واد عميق مستدير بين الجبال قامت فيه قرية صغيرة مربعة يحف بها سور صخرى وتنتشر فيها بعض حقول خضراء . على أنه حينما وقفت الأم وابنها بباب القرية مستفسرين عن المكان الذى يقصدان اليه تقدم منهما رجل كان واقفا وأشار بيده عاليا وقال :

ــ هناك حيث تنتهى الخضرة عند حافة هذا المرتفع البعيد يوجد بيتان وهذه آخر حدود الأرض المزروعة . ولا يوجد بعدها غير الصخور والسماء .

وكانت الأم فى هذه الأثناء تحدق فى دهشة الى هذه الجبال الصخرية وما حولها من المناطق الزراعية اليسيرة . وقد قضت حياتها بين الوديان الخصبة التى تفيض بالخير والحياة . ولم تتمالك ان هتفت حين وقعت عيناها على هذا الجدب الموحش :

ــ انا لا أميل الى مظهر هذا المكان يا ولدى . واخاف أن يكون

مكانا قاسيا لا يصلح لمعيشة أختك . فان كان ذلك فسأردها الى بيتنا اذن . نعم . اذا كانت تعانى شظف العيش هنا ففى وسعى ان أمشى وأن نركبها الحمار وليقولوا بعد ذلك ما يقولون . انهم لم يدفعوا مهرا لها . ولن نسألهم شيئا الا أن يعيدوها لنا .

لكن الفتى لم يقل شيئا . فقد كان منهوك القوى جوعا اذ انهما لم يبتلعا الا طعام بارد يسير حملاه معهما . وكان متلهفا للوصول الى بيت أخته حيث قدرا أن يمضيا الليل بين جدرانه . وجعل يجذب عنان الحمار بشدة حتى ضاقت الأم وهمت ان تنتهره وتؤنبه .

وفجأة وصلا الى البيت المنشود .

وصلا الى بقعة بين الصخور فيها بيتان رأت الأم عند أحدهما ذلك العجوز المشئوم الذى جاء لأخذ فتاتها . فأدركت ان ابنتها تقيم هنا . ولما رآها الرجل يحدق فيها بعينيه وكأنه لا يصدق انها هى . وسرعان ما دخل البيت وخرج منه ثانية يتبعه رجل أسمر نحيل مخيف الشكل وامرأتان وشاب متكاسل . لكنها لم تر ابنتها .

ترجلت الأم عن الدابة وذهبت اليهم وهم يحدقون اليها صامتين . فلم تتمالك أن تطلعت خلفها خوفا .

والواقع انها لم تشاهد فى حياتها مثل هذه السحن . فقد كانت كل من المراتين مشوشة الشعر مغضنة الوجه شديدة السمرة بتأثير حرارة الشمس ، ترتدى ملابس قذرة كل القذارة لم تغسل يوما ما . وكذلك كان شأن الجميع .

وانضم الى هذه الزمرة المخيفة أطفال مرضى شاحبو الوجوه شديدو القذارة خرجوا من البيت الثانى . ووقف الجميع يحدقون صامتين لا يبادرون الأم وابنها بتحية وقد تجردت نظراتهم من كل دلائل الانسانية وكأنهم حيوانات وحشية لا تعقل ولا تبين .

عند ذلك تمزق قلب الأم خوفا وجزعا وركضت الى الامام قائلا :

ــ أين ابنتى ؟ أين أخفيتم ابنتى ؟ .

وأسرعت الأم حتى صـــارت بينهم . أما الفتى فقد وقف مكانه مترددا ممسكا بعنان الحمار .

وأخيرا قالت إحدى المراتين فى لهجة مبهمة تشف عن السخط والتبرم :

ــ انت جئت فى الوقت المناسب أيتها المرأة الطيبة . فانها ماتت اليوم .

ــ ماتت !! .

فاهت الأم بهذه الكلمة في صوت خافت ولم تعقب بشيء . فقد كف قلبها عن الحركة .. وانقطع تنفسها . واحتبس صوتها .

لكنها اندفعت الى اقرب الكوخين . فاذا فتاتها العمياء ممددة فوق فراش من قش ملقى على الأرض . أجل .. كانت الفتاة ترقد رقدة هادئة وقد فارقتها معالم الحياة . وكانت ترتدى نفس الملابس التي ارتدتها يوم فارقت بيت أمها . لكنها لم تكن نظيفة ولا سليمة . وكانت الغرفة مقفرة الا من كوم من الحشائش البرية وبعض المقاعد الصغيرة الجافية .

هنالك اندفعت الأم وجثت بجانب الفتاة وجعلت تحدق في وجهها الساكن وعينيها الغائرتين وفمها الصغير وكافة هذه التقاطيع التي تعرفها تمام المعرفة . وفجأة انهمرتْ دموعها وصاحت باكية وارتمت فوق الفتاة وتناولت يديها وازاحت كمهـــا ونظرت الى ذراعيهـا الصغيرتين ثم حسرت سروالها عن ساقيها وجعلت تنظر ان كان بهما آثار رضوض أو ضرب أو أذى من أى لون .

لـكنها لم تجد شيئا . ورأت بشرة الفتاة الرقيقة سالمة من كل سوء وعظامها النحيلة صحيحة وليس بها ما يستوقف النظر . وبدت لها شاحبة اللون شديدة النحول . لكنها كانت نحيلة أبدا والموت يطبع الوجوه بطابع الشحوب . فانحنت الأم فوقها وجعلت تتشمم فاها التماسا لرائحة سم . لكنها لم تجد الا رائحة الموت اليسيرة التي يفوح منها الحزن .

على أن الأم لم تستطع ان تؤمن بأن ما نزل بفتاتها هو موت طبيعي مألوف . فانثنت الى أصحاب البيت الذين وقفوا بالباب يراقبونها صامتين . وتطلعت اليهم وأجالت عينيها في وجوههم الوحشية المخيفة التي لا تعرف وجها واحدا بينها ثم صاحت فيهم من خلال دموعها المنهمرة الغزيرة .

ــ أنتم قتلتموها . أنا واثقة انكم قتلتموها . فاذا لم يكن هذا فاخبروني كيف ماتت ابنتي بهذه السرعة ، وقد تركتني صحيحة الجسم سليمة الاعضاء .

فكشر الرجل العجوز الذى احست نحوه بالمقت منذ رأته لأول مرة عن أنيابه وأجابها :

ــ زني كلامك أيتها المرأة الطيبة . ليس من اليسير ان تقولي اننا قتلناها .. و .

لكن المرأة الغاضبة المشوشة الشعر قاطعته صارخة :
ــ كيف ماتت ؟ ماتت من برد اصابعها . لانها شديدة الضعف . هذا سبب موتها .
وبصقت المرأة على الارض ثم استأنفت صياحها :
ــ كانت فتاة عديمة النفع . جاهلة لا تعرف شيئا . بل لم تكن تستطيع احضار الماء من العين دون أن تتعثر اوتسقطأوتضل الطريق .
فأرسلت الأم بصرها ورأت طريقا حجريا ضيقا ينحدر في سفح الجبل الى عين ماء صغيرة . ولم تتمالك أن هتفت موجعة :
ــ هل هذا هو الطريق الذي تقصدين ؟ .
لـكن لم يجب احد . فهتفت في ألم متزايد :
ــ كنتم تضربونها . لابد أنكم كنتم تضربون ابنتي كل يوم .
لكن المرأة قالت فورا :
ــ فتشي وانظري أن كان بهـــا أي خدش . ان ابني ضربها مرة واحدة لانها عادت اليه متباطئة . لكنها المرة الوحيدة .
فتطلعت الأم اليها وقالت بصوت خافت :
ــ أين ابنك ؟ .
فدفعوا لها ذلك الابن . فاذا هو معتوه لا يكاد يعقل .
فأمالت الأم رأسها فوق جثمان فتاتها الميتة وجعلت تبكي وتنتحب في لوعة أي لوعة وفي حرقة وجنون . واشتد بكاؤها ونحيبها كلمـا فكرت فيما قاسته الفتاة على أيدي هؤلاء الأشقياء . وفيما هي كذلك كان الغضب يتجمع ويجيش في صدور الواقفين حولها . ثم أحست اخيرا بيد تلمس كتفها ، فرفعت رأسها ورأت ابنها الذي انحنى فوقها وهمس في أذنها مستحثا قائلا :
ــ نحن في خطر هنا يا أمي . يجب الا نبقى هي الآن ميتة يا أمي وماذا في وسعنا أن نصنع لها ؟ وهم ينظـرون الينا نظرات تنم عن الشر ولا أدري ماذا يفعلون بنا . تعالي معي ولنعد مسرعين الى القرية حيث نشتري طعـاما يسيرا ثم نستأنف السير الى بيتنا في هذه الليلة .
اذ ذاك نهضت الأم مكرهة . على انها حينما نظرت اليهم الفتهم واقفين متلاصقين وآنست في ملامحهم ما جعل الخوف يتسلل الى قلبها . ولم تسترح الى تهامسهم والى نظراتهم التي كانوا يصوبونها اليها والى ابنها الفتى . أجل . يجب أن تفكر في أمر هذا الفتى . وليقضوا عليها ان شاءوا . لكن هناك ابنها .

تحولت الأم والقت نظرة ثانية على فتاتها الميتة وسوت ملابسها وبسطت يديها الى جانبيها . ثم سارت الى خارج الكوخ حيث كان الوقت قرب الأصيل .

ولما آنسوا هدوءها ورأوها تستعد لامتطاء الدابة قال الرجل الذى لم يتكلم قبل الآن وهو والد الفتى المعتوه :

ـ انظرى إبتها المراة الطيبة . اذا كنت لا تحسبيننا اناسا طيبين فانظرى الى النعش الذى اشتريناه لابنتك ، انه كلفنا عشر قطع من الفضة كانت كل ما نملك . وهل كنت تظنين اننا نشترى نعشا لو لم تكن لها قيمة عندنا ؟ .

نظرت الأم . فرأت قرب الباب نعشا حقا . لكنها أدركت انه لا يساوى هذه القيمة اذ كان مصنوعا من الخشب الجافى الرقيق . وهو لا يمتاز فى شيء عن أى نعش يؤتى به لأى رجل بائس فقير . وقد فتحت فاها لكى تعرب عن غضبها وتقول للرجل :

ـ هذا النعش ؟ . هل كانت النقود الفضية التى أعطيتها لابنتى يشترى بها مثل هذا النعش ؟ .

لكنها لم تفه بهذه الكلمات . فقد ساورها خوف شديد من هؤلاء الناس . واحست بيد ابنها تجذبها من كمها . فقالت فى رباطة جأش :

ـ لن اقول الان شيئا . ان ابنتى ماتت ولن يردها الى الحياة غضب ولا كلام .

وكفت عن الكلام واجالت عينيها فيهم جميعا ثم استطردت :

ـ ستقفون أمام السماء وأمام الآلهة . فليحاسبوكم على ما فعلتم !

وأدارت فيهم عينيها مرة ثانية . لكنهم لم يجيبوا . فتحولت عنهم وركبت الحمار وقاده الفتى بعيدا عنهم فى الطريق الصخرى . والتفت خلفه وهو يرتعد خوفا من أن يتبعوه ، وقال لأمه :

ـ لن اطمئن حتى نصل الى تلك القرية حيث يوجد اناس من بنى الانسان . فاننى شديد الخوف .

لكن الأم لم تفه بكلمة . فما نفع الكلام الآن وقد ماتت فتاتها ؟ .

الفصل الثالث عشر

راحت الأم تبكى طوال الطريق الى البيت . وكانت حينا ترفع الصوت بالبكاء وحينا آخر تبكى بكاء رقيقا . وضاق الفتى ذرعا بهذا

البكاء ولم يتمالك ان هتف آخر الأمر فى الم وجزع :

ــ كفى عن هذا العويل يا امى والا عجزت عن احتماله .

فهدات الأم من روعها قليلا ، ولكن سرعان ما استانفت بكاءها . فصر الفتى على اسنانه وغمغم فى عنف :

ــ لو أن اليوم الموعــود جاء ، ولو انا لم نــكن فى أشد الفقر والتعاسـة ، ولو نال الفقراء نصيبهم فى الحياة وتيسر لهم أن يدافعوا عن انفسهم ، اذن لسعينا للثار والانتقام لموت اختى . لكن ما الفائدة ونحن فى فقر شديد ولا عدل فى هذه الديار ؟ .

فقالت الأم وهى تنتحب :

ــ صحيح انه لا فائدة من الالتجاء الى القانون ما دمنا لا نملك مالا لالتماس العدالة .

ثم استأنفت بكاءها وهتفت :

ــ لكن اموال الدنيا وعدالة القانون لن تردا الى فتاتى العمياء .

ولم يتمالك الفتى أن بكى ايضا . ولم يكن بكاؤه لمصاب أخته وتفجع أمه باكثر من بكائه لحـــاله وما نال من الم السير ووعورة الطريق .

وهكذا وصلا الى البيت اخيرا . ولما ترجلت الأم عن ظهر الحمار الأشهب نادت ابنها الأكبر صارخة مولولة حتى ركض اليها مسرعا فصاحت قائلة :

ــ أختك ماتت يا بنى .

وفيما كان الشاب يحدق فيها مذهولا وهو لا يكاد يفقه ما تقول راحت تسرد عليه القصة بحذافيرها . وجاء على صوتها سواد أهل القرية مسرعين ووقفوا ينصتون الى القصة فى ظلمة الشفق . ووقف الفتى مستندا الى الحمار وهو يكاد يسقط اعياء . ولما استرسلت الأم فى تفصيل قصتها انتحى جانبا وتهالك فوق الأرض وتمدد مكانه وهو فى ذهول مما شهد فى يومه . وراحت الأم تدير عينيها فى وجوه الواقفين حولها وهى تهتف عاليا :

ــ ماتت ابنتى وذهبت . وشد ما امقت نفسى لأنى تركتها تبتعد عنى . وما كنت اتركها تذهب لولا زوجة ابنى الباردة القاسية التى كانت تمقتها ، حتى انى خشيت اذا مت وبقيت وحدها أن تتعرض لكل مكروه . آه يا بنى ! ان زوجتك هى سبب هذا المصاب . انى العن اليوم الذى جاءت فيه الينا . ولا عجب اذا بقيت عاقرا وهى بهذا القلب القاسى المتحجر .

سرى عن الأم شيئا فشيئا وجعلت تبكي حينا في صمت وسكون .
ثم تطلعت حولها قائلة :
ــ أين ابني الأصغر ؟ .
فجاء الفتى وراته شديد الشحوب والاعيـــاء وقد فارقه مرحه وبشاشته . فحملته على الجلوس بجانبهـــا وتناولت يده وجعلت تستحثه على الأكل والراحة وقالت له :
ــ نم هذه الليلة بجانبي يا ولدي في الفراش الذي اعتادت أختك ان تنام فيه . لا يمكن يا ولدي أن أراه الليلة خاويا .
وهكذا امتثل الفتى لقولهـــا ، وما كاد ينطرح على الفراش حتى استغرق في نوم عميق .
لكن الأم لم تستطع أن تنام طويلا حتى رغم الهدوء الذي شمل أرجاء البيت . وكان عزاؤها الوحيد في هذا الوقت أن تسمع غطيط الفتى وهو راقد بجانبها . واشتد حبها له الآن وجعلت تناجي نفسها بهذه الكلمات :
ــ لابد أن افعل نحوه كل شيء . هو آخر أبنائي . يجب أن أزوجه وأن ابني له غرفة جديدة فـــوق البيت سيكون له غرفة خاصة ولزوجته . واذا رزق أطفالا .. نعم يجب أن أفتش له عن زوجة طيبة ذات حيوية حتى يكون لنا أطفال في البيت .
واحست بأن هؤلاء الأطفال المرتقبين سيكونون سلواها ــ غير أنها كانت تحرم من هذه السلوى . فقد عاودها المرض القديم حتى أنهك جسمها وحال دون استسلامها للحزن أو تعلقهـــا بالرجاء . وكانت جاراتها تأتين اليها لمواساتها وتشديد عزمها .. فتقول احداهن :
ــ مهما يكن يا أختي فان الفتاة كانت عمياء .
وتقول ثانية :
ــ لا سبيل الى تبديل أحكام السماء يا أختي . ولا فائدة من الحزن على شيء في هذه الدنيا .
وتقول ثالثة :
ــ فكري في ولديك .
ولما ذكرتها زوجة العم ذات يوم بهذا الكلام قالت لها :
ــ نعم . لـكن زوجة ابني لا تحمل .. وابني الأصغر لن يتزوج .
فأجابتها زوجة العم بحرارة :
ــ امهليها سنة او سنتين يا أختي . فانه أحيانا بعد مضى سبع

سنوات فى العقم تعود المرأة الى طبيعتها وتنتج محصولا طيبا من الأولاد . وقد رأيت مثل هذه الحالات . أما فيما يختص بقول الفتى أنه لن يتزوج فلابد أن تكون له حبيبة فى مكان ما ، ومن واجبنا أن نفتش عنها وننظر فى صلاحها للزواج منه . نعم . لابد أن له حبيبة مثل غيره من شبان هذه الأيام . فانه لا يوجد رجل فى الدنيا لا يقبل الزواج .

لكن الأم قالت لها همسا :

ـ تعالى يا أختى وضعى أذنك فوق شفتى .

فلما امتثلت زوجة العم لما طلبت قالت الأم همسا :

ـ انى أخاف أحيانا كلما رأيت الأحزان تلازمنى وكل شىء ينعكس فى وجهى أن يكون هذا بسبب تلك الخطيئة الماضية التى ارتكبتها والتى تعرفها الآلهة . وقد لا يبعد أن تضن على السماء بالأحفاد .

وما كاد هذا الخاطر يســـاورها حتى أغمضت عينيها وانحدرت دمعتان كبيرتان من بين أجفانها المطبقة .

وجعلت تفكر فى كافة خطاياها .. لا فى تلك الخطيئة التى تعرفها زوجة العم وحدها ، بل كذلك فى كذبها المتصل حينما زعمت أن زوجها توفى وانها أرملة ، وما تفرع عن هذا كله من الكذب والتدليس ، طمعا فى الفوز برجل آخر .

وهكذا ألمت بها الآن ذكرى هذه الذنوب جميعا ، وقد كانت تقوى على نسيانها فى الأحوال العادية لتقادم العهد عليها . أما الآن وقد ألح عليها الضعف والحزن فقد كانت هذه الذكرى لاتثقل على نفسها لانها لم تكن تستطيع أن تبوح بها تضطر لكتمانها فى صدرها ، وكان يحز فى نفسها أكثر من هذا أن قومها يعدونها امرأة فاضلة وينظرون اليها بعين الاحترام .

وقد اشتدت كآبة الأم ولم يعد شىء يسرى عنها حتى ترى ابنهـــا الأصغر حولها . أجل . ومع أن زوجة الابن كانت تتفانى فى خدمتهـــا وتبذل كل ما فى وسعها لمرضاتها فانها لم تكن مصدر سلواها ولا عاملا على تطييب نفسها . وطالما كانت الأم تؤنبها لأن يدها باردة أو لأن وجهها شاحب وتحدق فيها بنظرات عدائية صبيانية . على أن الأم مع ذلك كفت عن التنديد بعقمها . فقــد خطر لهـــا فى أعماق نفسها أن خطاياها قد تكون سبب هذا الجدب الذى منيت به زوجة ابنها .

بيد أنها غادرت أخيرا فراش المرض . ولما ذهب الخريف زايلتهـــا أسقامها وكانت تجلس طول النهار محزونة ولكنه حزن هادىء خلا من

ظواهر العنف واللوعة . وكانت تناجي نفسها قائلة :
ـ نعم . ربما صح ما يقولون . وقد يكون من الخير أن ماتت ابنتي . ففي الحياة أشياء كثيرة أسوأ من الموت .
وتشبثت بهذه الفكرة واطمأنت اليها .
ووجدت من اهل القرية جميعا كل عون ومساعدة . اذ لم يعد أحد منهم يحدثها عن ابنتها او يثير ذكراها امامها . وقد دفعهم الى هذا السكوت رغبتهم في دفع الألم والحزن عنها ، ولأن الحديث في هذا الشأن كان حديثا معادا لا جديد فيه ، ولأن شئون الحياة والناس المتجددة قد طغت على هذه الذكرى . وهكذا اختتمت سيرة الفتاة العمياء .
وهكذا تركت الأم الماضي ساكنا خامدا فلا تقلبه الا حين تخلو احيانا الى نفسها .

الفصل الرابع عشر

ثم خيل للأم ان قلبها يوشك أن ينعم ببعض الراحة والسلوى . ففي ربيع هذا العام جاء اليها ابنها الأصغر وقال لها :
ـ اني جئت الى البيت للاقامة فيه بعض الوقت يا أمي . ولا أعرف كم من الوقت ابقى هنا . ولكني سأبقى على الأقل حتى يصدر الأمر بعودتي .
ولما طربت الأم من هذا النبأ لم يتبسط الفتى في الكلام وكان اطواره تغيرت واختلفت عن ذي قبل . فقد كان يبدو الآن كثير الهدوء لا يغني ويلهو ولا يستهتر في كلامه كما كان يفعل فيما مضى ، حتى لقد عجبت الأم من هذا وراحت تتساءل ان كان به مرض أو اضطراب خفي .
على أن الفتي لم يلبث بعد مضي تسعة أيام ان عاد مسرعا من حيث اتي وعلى نحو أقرب الى الخفاء منه الى الجهر ، وان لم يدر أحد كيف تلقى الأمر بالعودة . وقد دس الفتى ملابسه في صندوق من الجلد كان معه ، وحزنت الأم لذهابه فقالت له :
ـ كنت اظن يا ولدي انك ستقيم معنا .
لكنه اجاب قائلا :
ـ آه . سأعود مرة ثانية يا أمي .
وكانت تبدو على الفتى بعد ذلك سيماء الجذل والمرح . وجعل

يعود الى القرية ويخرج منها بغير سابق انذار . وكان اذا جاء الى القرية راح يتسكع في ارجائها يوما أو يومين ، فيختلف الى حانوت الشاي ويلقي اقوالا رنانه وكلمات تضخمه في سوء الأحوال وانعدام العدالة ويقرر انه سيأتي يوم عظيم تذهب فيه كل هذه المســـــاوىء ويستقيم كل شيء . وكان الناس يصغون اليه وهم يتبادلون النظرات دهشة دون أن يفقهوا من كلامه شيئا . وذات يوم حك صاحب الخان رأسه وهتف قائلا :

ــ أقسم يا جيراني أن هذا الكلام يرن في اذني ككلام اللصوص ! .

لــكنهم كانوا يتجاوزون عن هــذا الــكلام لاجل الأم ولأجل اخيه الطيب .

وكانوا يردون هذه الأقوال الى طيش الشباب ويعتقدون انه سيلزم حدود التعقل متى تزوج وعاش عيش الرجال .

على أن الفتى كان اذا عاد الى البيت يلزم البطالة والخمول ويتظاهر بالرغبة في مساعدة أخيه والقيام ببعض الأعمال اليسيرة ، وأن كان أخوه اذا راى ذلك منه قال له بازدراء :

ــ شكرا لك يا أخي . لـكنني تعودت أن اعمل بغير مساعدتك .

فيتطلع الفتى الى أخيه بوقاحة الفها في هذه الأيام الأخيرة ويضحك ضحكة هادئة ويبصق على الأرض ثم يقول :

ــ كما تحب يا أخي .

وقد كان هذا الهدوء يثير الأخ الاكبر حتى يكاد ينشق من الفيظ والحقد ويهم بطرد أخيه من الدار الى الأبد لولا اشفاقه من لوم الناس وتنديدهم بهذا العمل .

أما الأم فلم تكن ترى في مسلك الفتى نقيصة ولا مذمة . وقد سمعته يتشدق يوما بكلامه الضخم الرنان ويقول معرضا بأخيه الاكبر :

ــ أقسم أن صغار الملاك هــؤلاء الذين يؤجرون الأرض هم أناس مغرورون لا قيمة لهم ، وانهم يستحقون ما سينزل بهم يوم تكون الأرض مشاعا ولا يملكها انسان بعينه .

فلم تفقه الأم من هذا الكلام سوى شطره الأول وقالت له مؤمنة على قوله :

ــ نعم . اني أرى مثلك أن أخاك شديد الغرور أحيانا ، كما أن زوجته عاقر شديدة الجدب .

والواقع ان كل ما يصدر عن هذا الفتى كان في نظرها آية الصواب وعين الحكمة والسداد . واذا عاد الى البيت كان يوم عودته عيــدا

عندها . ولو استطاعت لذبحت له كل يوم دجاجة وصنعت له اطيب الطعام . لكن اين السبيل الى هذا وقد صار الدجاج الآن ملكا لابنها الاكبر ؟ وقصارى ما كانت تستطيع هو ان تسرق بيضة او بيضتين وتخفيهما عندها للفتى ، حتى اذا عاد صبتهما سرا فى ماء ساخن ، وقدمتهما اليه مع بعض السكر الذى تدخره لمجيئه على وجه من الوجوه .

وكانت الأم اذا اصابت بعض الألوان اللذيذة المشتهاة او اذا ذهبت لزيارة بعض جاراتها فأعطينها خوخة أو كعكة أو غيرهما من باب الشفقة عليها — كانت اذا ظفرت بهذا أو ذاك ادخرته للفتى الأصغر وانفقت وقتا طويلا فى السهر على هذه الألوان حتى لا تفسد . ولا تتعفن وادخرتها اطول مدة ممكنة . حتى اذا ابطأ فى العودة واضطرت لأكلها قبل أن تفسد فعلت هذا مكرهة وهى لا تكاد تسيغ ما تأكل وان كانت تحب الطعام وتتلذذ به ! .

وكانت تنفق ساعات طويلة من وقتها كل يوم فى التطلع الى الطريق لعلها ترى ولدها قادما . حتى اذا رأت رجلا آتيا هرعت بكل ما تتسع له قوتها فاذا كان القادم ولدها تناولت يده الدافئة الملساء فى يدها اليابسة المغضنة وذهبت به الى غرفتها وصبت له الشاى الذى تبقيه عندها زوجة ابنها وقدمت له ما ادخرت من سائغ الطعام وجعلت تراقبه فى تدله وهو يقلب ما قدمت له وينتقى منه أحسنه .

فاذا تناول ما طاب له راحت تنصت له وتستمع لما يقول . ولم يكن يجيب عما تلقيه عليه من الأسئلة اجابة صريحة ، واذا الحت عليه أبدى لها تعجله فى العودة من حيث اتى . فلما رأت ذلك منه الفت الا تلقى عليه سؤالا والفاهو بدوره أن يبعد بها عن موضوع السؤال بما كان يسرده عليها من نوادر الحواة والمشعوذين . فيقول لها مرة أنه رأى أحدهم يزدرد ثعبانا ثم يجذبه ويخرجه من جوفه ثانية . أو انه شاهد امرأة ولدت طفلا ذا رأسين كانت تعرضه أمام المتفرجين لقاء مبلغ تافه يسير . أو ما الى ذلك من المشاهد الغريبة التى يراها الانسان فى المدن .

وكانت الأم تتسلى بهذا الكلام وتبكى اذا ذهب الفتى عنها ، وتروح تقص هذه النوادر على ابنها الأكبر وزوجته . وذات يوم بينما كان الشاب يغسل وجهه فى وعاء به ماء بعد عودته من عمل النهار الشاق قصت عليه الأم بعض ما سمعت من ابنها الفتى . فلم يتمالك الشاب أن رفع رأسه المبلل وقال بمرارة :

ـ نعم . هو لا يطعمك ولا يفعل شيئا نحوك الا أن يجيء الى هنا ويأكل دون أن يحمل بيده فأسا ولا محراثا ويلقى اليك بقطعة زهيدة من النقود كأنك متسولة . وهو يجيء الى هنا يأكل دون أن يحمل بيده فأسا ولا محراثا ويقص عليك هذه القصص وهو عنـدك أكثر من ..

ثم أحنى راسه ثانية وجعل يفسل وجهه فى ضجة عالية ولم يستمع الى ما ارادت الام أن تقول ردا على كلامه .

لكن الأم لم تعرف فى ابنها الأصغر الا أنه فتى مليح العود رشيق القوام ذهبى البشرة طويل الأظفـــار أبيض الأسنان يصفف شعره الأسود بالزيت ويتركه ينمو ويتدلى حتى أذنيه ثم يدفع راسه دفعا لـكى يزيح الشعر اللامع عن عينيه .

اجل .. كانت الأم تعرف فى فتاها هذا وحده وتحب منه نظراته الجريئة المستهترة وسخاءه فى انفاق الفضة وتعجب به حين يدس يده فى حزامه ويقدم لها ما يملك ، واذا لم يجد معه شيئا سألها أن تعطيه ما عندها ولم يكن أحب الى نفسها من أن تعطيه ما عندها وتلح عليه فى قبوله . وكل ما كان يمنحها كانت تدخره لكى تقدمه له اذا أعوزته الحاجة اليه وذلك فى نظرها أفضل سبيل لانفاق ما تملك من مال يسير ..

الفصل الخامس عشر

ولكنه ذات يوم لم يعد اليها فى الوقت الذى حدده . ولكن كيف ايقنت من عودته فى هذا الموعد المحدد ؟ .

ذلك أنه منذ ثلاثة أيام جاء خلسة فى الليل عن طريق الحقول لا عن طريق القرية وطرق الباب برفق حتى لقد خافت أن تفتحه وظنت الطارق من اللصوص . وفيما هى تهم بالصياح سمعت صوتا خافتا ، ومن حسن الحظ أن الدجاج أخذ ينق فى تلك اللحظة وحجب الصوت عن سمع الابن الأكبر وزوجته .

فنهضت الأم من فراشها مسرعة وراحت تلتمس ملابسها وتلتمس الشمعة فى تخبط وتعثر حتى فتحت الباب برفق اذ علمت أنه جاء على هذا النحو لأمر خفى ، واذا هى تراه أمامها برفقة شابين آخرين وهم جميعا يرتدون ملابس سوداء كالتى اعتاد أن يرتديها فى هـذه الأيام . وكان الثلاثة يحملون لفافة كبيرة محزومة بورق وحبـــال

ولما فتحت الباب وهى تحمل الشمعة فى يدها اطفأها الفتى اذ كان القمر يرسل نورا يسيرا كافيا . وما كادت الأم تهتف فى رفق معربة عن سرورها برؤيته حتى قال لها همسا :

ـ هذا شيء يخصنى يا امى اريد ان اضعه تحت فراشك بين ملابس الشتاء . ولا تقولى كلمة عنه لأنى لا اريد ان يعرف أحد مكانه وسأعود مرة ثانية لآخذه .

فتوجست الأم خوفا حينما سمعت هذا الكلام وتطلعت اليه فى رزانة وقالت له فى صوت خافت :

ـ ارجوك يا ولدى الا يكون هذا شيئا محرما . أرجو الا تكون اخذت ما ليس لك .

لكنه أجابها على الفور :

ـ لا يا أمى . اقسم لك انه ليس من المسروقات . وهو بعض جلود الغنم اشتريتها بثمن قليل واخاف أن يلومنى اخى كما يلومنى فى كل شيء وليس لى مكان آخر أحفظها فيه . وسيكون لك واحد منها فى الشتاء القـــادم . بل انه سيكون لنا جميعا ملابس طيبة فى الشتاء القادم يا أمى .

فسرت الأم من هذا الكلام وصدقته ولذ لها أن تشاطر ابنها بعض أسراره وقالت له بسرعة :

ـ نعم . ثق بى يا ولدى . توجد بهذه الغرفة أشياء كثيرة لا يعرف ولدى ولا زوجته عنها شيئا .

عند ذلك حمل الشابان اللفافة الى داخل الغرفة ودساها فى سكون تحت الفراش ، وفى هذه الأثناء أخذ الدجاج ينق ويحـدق بأعينه واستيقظت الجاموسة وأخذت تطحن فكيها .

لكن الابن لم يشأ أن يبقى بعض الوقت . وعجبت الأم حين آنست منه هذه العجلة ، لـكنها قالت له :

ـ ثق يا ولدى انى ســـأحرص على الأمانة . لكن الا يجب أن أعرضها للهواء والشمس خوفا من العث ؟ .

فأجاب الفتى بغير مبالاة :

ـ سنكون عندك يوما أو يومين ، لأننا سننتقل الى مكان أكبر وسيكون لى غرفة خاصة رحبة .

فلما سمعت الأم اشارته الى الفرفة الرحبة جالت بخاطرها تلك الفـكرة التى كانت تساورها أبدا . فـكرة تزويج الفتى . وسرعان ما انتحت به ناحية بعيدا عن رفيقيه وتطلعت اليه مبتهلة متوسلة .

ولم يكن يسوؤها منه سوى نفوره من الزواج واعراضه عنه . فقد كانت تعلم تمام العلم ان دماء الشباب تتدفق حارة فى عروقه وأن هذا الابن يحمل نصيبا موفورا من عواطفها الجياشة وشهواتها الجامحة في صدر شبابها ، وكانت توقن أنه لا محالة يعمد الى اطفاء حرارة عاطفته على وجه من الوجوه . وهى تمقت الاسراف وتنفر منه أشد النفور . ولم يكن أحب الى نفسها من أن تزوجه فتاة نظيفة صالحة فيكون لها أحفاد . ولم تتمالك حتى فى هذه اللحظة حين كان يتعجل الذهاب وقد وقف صاحباه متسترين بظلام الباب ، ان وضعت يدها فوق يده وقالت له مستحثة فى نبرات خافتة :

ـ لكن يا ولدى اذا كانت لك غرفة خاصة رحبة فلم لا تتركنى أبحث لك عن عروس ؟ انى سأفتش لك عن أحسن الفتيات . أو اذا كنت تعرف فتاة معينة فأخبرنى عنها وأنا أعهد الى زوجة عمك أن تذهب اليها وتخطبها لك . أنا لا ارغمك يا ولدى . وانى لأحب الفتاة التى تحبها .

لكن الفتى دفع خصلات شعره المسدلة ونظر الى الباب وحاول أن يرفع يدها عن يده . لكنها تشبثت به قائلة :

ـ لم تبذر حبوبك فى أرض غير صالحة يا ولدى ولا تهيىء لى الاحفاد ؟ أن زوجة أخيك شديدة البرودة ولا أظن انى سأفوز بأطفال صغار اذ لم تنجبهم أنت . نعم . انت تشبه أباك . وأنا أعلم تماما كيف كان أبوك . ابذر حبوبك فى أرضك يا ولدى ، واجن ثمارها فى بيتك .

لكن الفتى ضحك فى سكون وازاح شعره عن عينيه اللامعتين وقال :

ـ ان النساء امثالك يا أمى لا يفكرن الا فى الزواج ووضع الأطفال . أما نحن شبان هذه الأيام فقد طرحنا كل هذا وأعرضنا عنه . بعد ثلاثة أيام سأعود يا أمى .

ثم انتزع نفسه من قبضتها وذهب مع رفيقيه فساروا فى الحقول المظلمة .

لكن مضت ثلاثة أيام ولم يعد . ثم مضت ثلاثة أيام أخرى وثلاثة مثلها دون أن يأتى ، حتى خافت الأم أن يكون قد ألم بابنها سوء . ولم تكن الأم فى هذا العام الحالى تذهب فى يسر وسهولة الى البلدة وهكذا لزمت الدار تنتظر وتترقب . وكانت تبرم وتضيق بكل من يدنون منها دون أن تجسر على مكاشفة أحد بمخاوفها أو تجرؤ على الابتعاد عن غرفتها حتى لا تزيح زوجة ابنها الستار وتهتدى الى

اللفافة المخبأة تحت الفراش .

وانتابها أرق فنهضت واضاءت شمعة ونظرت تحت الفراش وهى ممسكة بيدها الستار المسدل . فاذا (الأمانة) ملفوفة فى ورق سميك ومحزومة حزما جيدا بحبال من القنب . ولما تحسستها بيدها لمست جسما صلبا بداخلها فأيقنت انه ليس جلود الغنم حقا . لـكنها لم تجسر على فتحها وتركتها كما هى .

ومرت الأيام تباعا حتى انقضى شـــهر كامل دون أن يعود ابنها . فكادت تجن لولا أن حدث حادث أنساها مخاوفها الى حد ما .

كان هذا الحادث آخر ما تحلم به فى هذه الأيام . اذ حملت زوجة ابنها .

اجل . عادت المراة الى طبيعتها بعد كل هذه السنوات وادت واجبها . وذات يوم جاءها ابنها الأكبر بينما كانت جالسة فى مدخل الدار وقال وقد أشرقت اسارير وجهه ابتساما :

ـ امى . سيكون لك حفيد .

فأفاقت الأم من التأمل الذى كان يستغرقها فى الأيام الأخيرة وجعلت تحدق فيه بعينيها الغائمتين وقالت له فى تبرم :

ـ انت تتكلم كالمغفلين . ان زوجتك باردة مجدبة كالحجر . وأنا لا اعرف اين يوجد ابنى وهو يتعثر بذوره الصـــــالحة فى كل مكان ولا يتزوج لادخارها .

فسعل الابن الأكبر وقال ببساطة :

ـ ان زوجتى حامل .

لم تصدق الأم اول الأمر . وتطلعت اليه ثم صاحت وهى تنهض معتمدة على عصاها :

ـ هذا غير صحيح . لن اصدق هذا الكلام .

لكنها رات فى وجهه دلائل الصدق . فنهضت وأسرعت الى المطبخ حيث وجدت زوجة الابن تطهو الطعام . فتطلعت اليها وهتفت :

ـ هل حملت أخيرا ؟ .

فأومات الزوجة برأسها ايجابا واستأنف عملها وقد تضرج وجهها الشاحب بحمرة متقطعة . وأدركت الأم أن الحادث لا ريب فيه . فسألتها :

ـ متى عرفت هذا ؟ .

فأجابت الزوجة :

ـ من قمرين وزيادة .

فما كادت الأم تسمع هذا الجواب حتى غضبت حين رأت انها لم تقف على النبأ فى وقته ولطمت الأرض بعصاها قائلة :

ــ لم لم تخبريني وقد كنت هذه السنين أتشوق وأتلهف لمثل هذا النبأ ؟ . من قمرين ؟ هل فى الدنيا امرأة فى برودك لا تتكلم عن هذا الأمر من يوم ظهوره ؟ .

فألقت الزوجة السكين التى كانت تقطع بها البصل من يدها وقالت :

ــ لم أخبرك لخوفى من أن أكون مخطئة فأزيد حزنك أكثر مما احيى أملك .

لكن الأم لم تقبل هذا العذر وبصقت على الأرض وقالت :

ــ وهل كنت أعجز عن معرفة الحقيقة وأنا التى انجبت كل هؤلاء الأبناء ؟ لا . انت تحسبينني طفلة او عجوزا بلهاء . أنا اعرف ماذا تظنين فى . ويبدو هذا منك فى كل عمل تقومين به .

لكن الزوجة لم تنبس بكلمة ، بل اطبقت شفتيها الغليظتين الشاحبتين وصبت للأم قدحا من الشاى وقادتها الى مجلسها قرب الحائط .

لكن الأم لم تستطع أن تجلس وتكتم هذا النبأ . بل لابد لها من أن تذهب وتخبر العم وزوجته حيث يجلسان فى بيتهما . فان ابناءهما احتملوا الآن عبء العمل فاضطلع ثلاثة منهم بأعمال الفلاحة وتفرق الآخرون فى أعمال اخرى يتلمسون قوتهم منها ، وكان العم يقوم بما يستطيع وهو دائما متشاغل ببعض الأعمال اليسيرة ، وان لم يكن يقوى الآن على أداء الأعمال التى كان يقوم بها من قبل . أما زوجته فكانت تمضى النهار فى نوم عذب هنيء لا تستيقظ منه الا حين يبكى أحد حفدتها الصغار .

ذهبت الأم الى بيت العم اذن وايقظت زوجته بلا ترفق من نومها وصاحت قائلة :

ــ لن تكونى جدة وحدك . بعد شهور قليلة سيكون لى حفيد أيضا .

ثابت زوجة العم الى نفسها رويدا وهى تبتسم وتلعق شفتيها اليابستين من تأثير النوم وفتحت عينيها الصغيرتين الهادئتين قائلة :

ــ صحيح يا أختى ! هل يتزوج ابنك الأصغر ؟ .

فتكدرت الأم قليلا وأجابت :

ــ لا . ليس هذا .

وكان العم الضئيل الهرم جالسا فوق مقعد منخفض من الخيزران يضفر حبلا من القش لدود القز لكى ينتج فوقها الخطوط الحريرية . فرفع راسه وقال للأم :

ــ اذن فهى زوجة ابنك يا بنت العم ؟ .

فاجابت الأم بحرارة وقد عاودها اغتباطها وسرورها :

ــ نعم .

ــ وجلست لكى تسرد قصتها . بيد انها لم تشأ أن تتظاهر بالسرور وكتمت سرورها خلف ستار من الشكوى والتذمر قائلة :

ــ انى جعلت انتظر ثمانية اعوام كاملة . ولو كنت غنية لبحثت له عن امراة اخرى . لكنى كنت ارجو ان يتزوج ولدى الأصغر ويجرب حظه قبل ان أمد أخاه بزوجة ثانية ، والزواج فى هذه الأيام يكلف الانسان كثيرا حتى ولو كانت زوجة ثانية . ان زوجة ابنى هذه أمراة بليدة لها طبيعة باردة كطبيعة الثعبان .

فقال العم ينصف الزوجة :

ــ لكنها ليست رديئة يا بنت العم . فانها قامت بواجبها خير قيام وقد ضاعفت لكم عدد البط واستولدت الجاموسة عجــلا صغيرا . وبفضلها زاد عدد الدجاج حتى صار الآن اثنتى عشرة دجاجة عدا ما يباع كل سنة .

فقالت الأم مكرهة :

ــ لا . ليست رديئة . لكنى كنت افضل أن تهتم بنفسها اكثر من اهتمامها باستيلاد الدواب والدجاج .

وكانت زوجة العم فى هذه الأثناء قد غفت قليلا ثم استيقظت من غفوتها ورات الأم فى مكانها . فابتسمت وقالت :

ــ قلت سيكون لك حفيد ؟ . نعم . ان لنا من الأحفاد سبعة . وهم ليسوا كثيرين .

ثم استسلمت لنومها الهنىء . . .

***

وهكذا ملأ هذا النبأ فراغ الأم وقد كاد الفراغ يذهب بعقلها لغياب ولدها . وشغلها الفرح عن الانتظار والترقب وبدا لها انه لابد عائد يوما ما . وتركت الأمر يقف عند هذا الحد .

لكنها لم تنعم بهذا الفرح . فقد رات ان كل شىء ينعكس أمامها ويفسد على وجه من الوجوه ، اذ اشفقت أن يجىء المولود انثى . وما كاد هذا الخاطر يهجس فى وجدانها حتى غمغمت قائلة :

ـ نعم . لو جاء المولود انثى لكان هذا أقرب الى حظى السيىء .

وقد ودت بتأثير ما انتابها من قلق واشفاق أن تسعى الى تلك الربة القوية التي تعرفها وترشوها برداء جديد احمر او حذاء او غيرهما لكى تجعل المولود ذكرا . لكنها لم تجرؤ على الذهاب حتى لا تذكر الربة بخطيئتها الماضية التي لم تكفر عنها حتى بعد كل ما ذاقت من الأحزان ، وحتى لا تتذكر الربة اذا رأتهـا وسمعتها تتكلم عن الأحفاد فتمد سلطانها وتبطش بالجنين فى الرحم . وناجت نفسها بهذه الكلمات فى لهجة تشف عن البؤس الشديد :

ـ خير لى الا اذهب ولا اظهر نفسي امامها ابدا . اذا بقيت بعيدة عنها ولم أخبرها بأن الطفل فى طريقه الى الدنيا فقد تنسانى بعد أن لبثت كل هذا الزمن الطويل بعيدة عن الآلهة جميعا ويكون المولود فى نظرها الأى انثى وليس حفيدى ، وأرجو أن يكون ذكرا .

ثم ساورها القلق والانقباض ورأت ان الطفـل رغم كونه مصدرا للفرح والسرور فهو سبب للأحزان أيضا . ولما فكرت فى هذا الشأن وفى ان الطفل قد يولد ميتا أو مشوها أو معتوها أو اعمى أو انثى ، لم تتمالك ان حقدت على الآلهة والآلهات الذين يملكون من القـدرة ما يفسدون به حياة الناس . وغمغمت قائلة :

ـ لم أستوف عقابى عما ارتكبته من الذنوب ؟ من كان يحسب ان الآلهة ستعرف ما فعلت فى ذلك اليوم ؟ لكن لا ريب أن اله المعبد الخرب قد أحس بالخطيئة حوله ووشى الى الربة رغم انى حجبت وجهه . لا بأس . سأبتعد عن الآلهة محتملة كل ذنوبى وخطاياى ، لأنى اذا ذهبت اليها فلست أعرف كيف أكفر عن ذنوبى اكثر ممـا فعلت . وأقسم لو وزنت أفراحى وأحزانى لرجحت كفة الاحزان ولم يكن للأفراح التافهة التي نلتها سوى وزن يسير . انى لم الد الطفل ، وقد رأيت فتاتى العمياء تموت وهى لم تزل عمياء . الا ينفع الحزن فى التكفير عن الذنوب ؟ نعم . ان حياتى كلها كانت طافحة بالأحزان . لكن الآلهة لا تعرف العدالة .

وهكذا رأت وقد ملك الحزن والاكتئاب شعاب نفسها أنه لا مفر لها من احتمال أمرين : الخوف الا يولد حفيدها صحيح الجسم سليم الأعضاء أو يولد انثى . وانتظار هذا الابن الأصفر الذى لا يريد أن يعود . وقد خيل اليها أحيانا ان حياتها كانت لونا من الانتظـار المستمر . فقد انتظرت طويلا زوجها الذى لم يعد . وهى الآن تنتظر

ابنها واحفادها . وبدا لها ان هذه الحياة تافهة هينة لا وزن لهـــا ولا شأن .

ومع هذا فلم يكن امامها بد من التعلق بحبال الأمل والرجاء. وكانت تسأل كل من يعود الى القرية من البلدة قائلة :

ــ هل رايت ابنى الأصغر اليوم فى البلدة ؟ .

وكانت تطوف ببيوت القرية سائلة أهليها :

ــ من ذهب اليوم الى البلدة ؟ .

فاذا أجابها أحدهم بالايجاب قالت له :

ــ هل رايت ابنى أيها الرجل الطيب ؟ .

والف اهل القرية جميعا أن يسمعوا منها هذا السؤال . وكانوا اذا راوها تتوكأ على عصاها التى اقتطعها ابنها لها من فروع الأشجار وسمعوا سؤالها عن ولدها الأصغر أجابوها برفق قائلين :

ــ لا . لا أيتها الأم الطيبة . وكيف يمكن أن نراه فى سوق البلدة حيث نذهب ، وهو ما تقولين انه يعيش من الكتب ؟ .

فلا تملك الأم الا أن تمضى فى سبيلها مذهوبة الأمل ضائعة الرجاء وتعود أدراجها الى البيت لـكى تنتظر عودة الابن وهى مشفقة أن يأكل العث جلود الغنم .

ولكن جاءت أنباء ذات يوم بعد تعاقب عدة أقمار .

فقد جلست الأم بباب البيت بعد أن تناولت طعام الصباح ممسكة بقصبتها الطويلة بين أصابعها كعادتهـــا هذه الأيام . ورأت الشمس ترسل أشعتها حامية فوق رءوس الروابى المستديرة وجلست تنتظر أن تدركها حرارتها وتذهب عنها برد الخريف . وفجاة رأت أكبر أبناء العم يدخل الحوش ويذهب الى ابنها الأكبر الذى كان منحنيا فوق صندله يصلح رباطه الذى انقطع ويسر فى أذنه كلاما .

وقد عجبت الأم من رؤية ابن العم يعود الى القرية بعد أن شاهدته فى الفجر يذهب الى البلدة ببعض أحمـــال الحشائش ، اذ كانت لا تستطيب الفراش فى مطلع النهار ما تهيأت لهـــا الصحة لطول ما اعتادت النهوض مبكرة فى الفجر . فلما رأته يعـــود بمثل هذه السرعة همت بسؤاله ولكنها سمعت ابنها يهتف وهو ممتقع الوجه قائلا : أخى ؟ .

أجل . نفذت هذه الكلمة الى سمع الأم الحاد وقالت فورا :

ــ ابنى ... ماذا حدث له ؟ .

لكن الشابين جعلا يتكلمان معا كلاما كله جد واهتمام وقد لاحت

عليهما سيماء القلق ، فلم تطق الأم صبرا ونهضت وسارت اليهما متوكئة على عصاها وهتفت قائلة :

ــ حدثانى عن ابنى .

لكن ابن العم سار مبتعدا دون أن يقول كلمة . وقال ابنها الاكبر :

ــ يوجد شيء غير طبيعى يا أمى . ولست أعرف الحقيقة . لكن لابد أن أذهب الى البلدة ثم اعود اليك لكى أخبرك .

لكن الأم لم يذهب . بل تشبثت به وهتفت :

ــ لن تذهب حتى تخبرنى ؟ .

ولما سمعت زوجة الابن صوتها خرجت ووقفت تنصت ثم قالت :

ــ أخبرها والا مرضت من الغضب .

واذن فلم يجد الابن بدا من الكلام قائلا :

ــ قال ابن عمى انه رأى أخى فى صباح اليوم بين كثيرين غيره مقيد اليدين بحبال من القنب ممزق الملابس يسير أمام السوق حيث كان ابن عمى يبيع الحشـــائش . وقد كان أخى يسير فى صف طويل مؤلف من عشرين أو ثلاثين رجلا ، ولمـا رأى ابن عمى حـول نظره بعيدا . لكن ابن عمى جعل يسأل ، فقـــال الحراس الذين كانوا يسيرون معهم أنهم شيوعيون ذاهبون الى السجن لكى يعدموا غدا .

فلما قال الابن هذا الكلام جعل الثلاثة يحدقون بعضهم فى بعض وسرت رعدة فى فك الأم وأخذت تقلب نظرها بين ابنها وزوجته ثم قالت :

ــ انى سمعت هذه الكلمة . لكنى لا اعرف معناها .

فأجاب الابن متباطئا :

ــ انى القيت هذا السؤال على ابن عمى الذى سأل الحارس ، فضحك منه وقال ان هذه الكلمة تدل على نوع جديد من اللصوص ظهر هذه الأيام .

عند ذلك تذكرت الأم اللفافة التى طال عليها الوقت تحت الفراش وأخذت تولول وطرحت رداءها فوق رأسها وجعلت تنتحب قائلة :

ــ كان يمكن أن أعرف الحقيقة فى تلك الليلة . آه .. ان اللفافة الموجودة تحت فراشى هى ما سرقه ..

وعندئذ تشبث بها الابن وزوجته واقتاداها الى البيت وقالا لها :

ــ ما قصدك يا أمى ؟ .

ورفعت زوجة الابن الستار ونظرت الى زوجها الذى تقدم الى الأمام بينما أشارت العجوز الى اللفافة وقالت وهى تنتحب :

ـ لا اعرف ما فيها . لكنه احضرها الى هنا ذات ليلة واوصانى ان الزم الكتمان يوما أو يومين . لكنه لم يرجع أبدا .

فذهب الرجل الى الباب واغلقه برفق واوصده بالمزلاج . وعلقت الزوجة جلبابه فى النافذة وحمل الاثنان اللفافة وفكا اربطتها ..

وغمغمت الأم وهى تحدق فيها :

ـ اخبرنى ان بها جلود غنم .

لكنهما لم ينبسا بكلمة ولم يؤمنا بشىء مما تقول . فقد يكون ما فيها شيئا ذا قيمة ، وخيل أو كاد يخيل اليهما حين لمسا ثقلها وصلابتها ان فيها ذهبا .

على انهما حين فتحا اللفافة لم يجدا بها غير كتب .

كانت طائفة كبيرة من الكتب ، كلها صغيرة الحجم ، وبينها أوراق كثيرة فى بعضها صور تمثل اغرب المشاهد الدموية .. منها ما يمثل الموت ومنها ما يمثل الجبابرة يضربون اقزاما أو يمزقونهم بالخناجر .

فوقف الثلاثة يحدقون بعضهم فى بعض دون ان يفقهوا شيئا ودون أن يدركوا ماذا يدفع الانسان الى أن يسرق ويخفى مجرد أوراق مخططة بالمداد .

لكنهم لم يستطيعوا ان يفهموا شيئا مما يرون . فلم يكن بينهم من يعرف القراءة . ولم يفهموا من الصور الا انهـــا تمثل مشاهد دامية فيها رجال ممزقون بالخناجر ورجال يموتون وآخرون مقطعة أوصالهم قطعا ذريعا ، وهى جميعا مشاهد دموية ممقوتة لا تحدث الا حيث يكون اللصوص وقطاع الطرق .

واستولى عليهم جميعا رعب وجزع . فاما الأم فقد جزعت لمصير ابنها . وأما الزوجان فقد اشفقا أن يعرف الناس وجود هذه الاشياء فى بيتهما . وقال الرجل :

ـ لنحزمها كما كانت ولننتظر حتى يأتى الليل ، فنحملهـــا الى المطبخ لاحراقها .

لكن الزوجة كانت أكثر منه حرصا ، فقالت :

ـ لا يمكن أن نحرقها جملة واحدة والا راى الناس الدخان الكثير وتساءلوا عن سببه . لابد من حرقها واحدا واحدا ويوما بعد يوم فيحسب الناس انى أوقد الحشائش لطهى الطعام .

لكن الأم لم تحفل بهذا . فكل ما كان يعنيها الآن أن ابنها قد وقع فى التهلكة . وقالت لولدها الاكبر .

ـ ما الذى تفعله لاخيك الأصغر يا ولدى ؟ كيف تبحث عنه ؟ .

فأجاب الرجل مكرها :
ـ انى اعرف مكانه . فقد قال ابن عمى انهم اخذوه الى سجن معين قرب باب البلدة الجنوبى ، حيث يوجد ميدان للاعدام .
وفجأة هتف الرجل حين وقع نظره على وجه أمه الذى امتقع ونادى زوجته فحملها الاثنان فيما بينهما وأرقداها فوق الفراش حيث تمددت واخذت تلهث وقد استحال وجهها الى لون الطمى لفرط جزعها على الفتى المعتقل . وقالت لاهثة الأنفاس :
ـ الا تذهب يا ولدى ؟ اخوك . . .
فلما آنس الابن حالتها طرح جانبا خوفه على نفسه وقال وقد هزته الشفقة عليها :
ـ نعم يا امى سأذهب . . سأذهب .
وابدل الرجل ملابسه ووضع حذاء فى قدميه . وكان الوقت فى حساب الأم يمر بطيئا فلم تطق صبرا . ولما أتم الابن استعداده نادته الأم الى جانبها وادنت رأسه منها وهمست فى اذنه قائلة :
ـ لا تدخر مالا يا ولدى . ان كان حقا فى السجن فلابد من دفع مال لاخراجه . المال هو السبيل يا ولدى . من سمع أن سجنا استعصى فتحه على المال ؟ انى أملك مالا قليلا فى تلك الحفرة أدخرته لأجله فأنفقه كله . أنفق كل ما نملك .
لم تتغير ملامح الرجل حين سمع هذا الكلام . وتبادل النظر مع زوجته وقال :
ـ سأعمل كل ما فى وسعى لأجلك يا امى .
لكن الأم هتفت :
ـ وما الفائدة منى ؟ انا عجوز على حافة القبر . افعل كل شيء لأجله .
بيد ان الرجل كان قد ذهب . ومشى الى ابن عمه الذى شهد الحادث فرافقه الى البلدة . ولم يكن فى وسع الأم الا ان تلجأ الى الانتظار والترقب . لكن هذا كان أمر الوان الانتظار التى عهدتها فى حياتها . ولم تستطع أن تتمدد فوق الفراش ولا أن تقوى على النهوض لفرط ضعفها وأعيائها . وجزعت زوجة الابن اخيرا من حال الأم ومن نظراتها ومن كلامها ومن ضربها على فخذيها النحيلين . فذهبت الى العم وزوجته مستنجدة ، فأقبلا الى الدار وجلسا مع الأم العجوز .
والواقع ان الأم قد سرى عنها حين جاء الزوجان الى جانبها .

فاليهما وحدهما كانت تستطيع أن تتكلم وأن تفضى بذات نفسها وراحت تبكى وتبدىء وتعيد قائلة :

ـ اذا كنت أذنبت فى حياتى أفلم انل من الأحزان ما يكفى ؟ اذا كنت أذنبت فلم لا اموت وحدى واضع حدا لكل شىء ؟ لم يؤخذ أولادى واحدا بعد الثانى ، وسيؤخذ حفيدى أيضا من غير شك ؟ . لا . لن يقدر لى ان أرى حفيدى . نعم لن أراه . ولن أكون انا التى يجب ان ينفذ فيها حكم الموت .

وفجأة ضاق صدرها حنقا بهـذه الأحزان وهتفت غاضبة وهى ترسل الدموع ؟ .

ـ لكن أين هى المرأة الكاملة المبرأة من الذنوب ؟ ولم أحتملُ وحدى هذه الأحزان كلها ؟ .

فلما سـمعت زوجة العم هذا الـكلام خافت أن تندفع الأم الى الافضاء بأكثر مما يجب وهى فى سورة هذا الألم . فبادرتها قائلة :

ـ ثقى أن لنا جميعا ذنوبنا ، واذا وجب ان نحاسب عن هذه الذنوب فلن يبقى لواحدة منا أولاد . انظرى الى اولادى وأحفادى . انى برغم وجودهم مخلوقة شريرة فاسدة . وانا لم اذهب فى حياتى الى أحد المعابد ولا اسـعى الى الذهاب . وكنت اذا جاءتنى كاهنة تحثنى على التقرب الى السماء وجدت من شواغل أولادى ما يحول دون قيامى بهذا الواجب . وحين تجيئنى الآن كاهنة وتحضنى على التوبة قبل فوات الأوان أقول انى بلغت من العمر حدا لا يثمر معه علم ولا تلقين ولا مفر من موتى مقصية عن حظيرة الدين اذا لم يمكن قبولى على علاتى .

بمثل هـذا الـكلام راحت زوجة العم تهون على الأم المضعضعة الحواس . وقال العم بدوره .

ـ انتظرى يا بنت العم حتى نعرف الخبر . قد لا يكون هنـاك داع لحزن ، فقد يفرجون عن ولدك فى مقابل المال الذى يجب دفعه . وقد يجوز أن ابنى اخطأ ورأى شخصا آخر غير ولدك يسير امامه مقيدا .

وأما زوجة العم الحريصة فقد أمرت زوجة الابن ان تمضى لتدبير شئون البيت حتى لا يبـــدر من الأم البائسة كلام لا [illegible] تسمعه . ولو فعلت الآن بعد هذا الصمت الطويل لكان هذا من دواعى الرثاء حقا .

وهكذا جعل الثلاثة ينتظرون عودة الشابين . وكان الانتظار [illegible]

وقعا على نفوسهم من انتظار الأم وحدها .
لكن اقبل الليل دون أن تشهد الأم عودة الشابين . وكانت قد جرت نفسها من الفراش جرا وزحفت الى شجرة الصفصاف فجلست تحتها وجلس العم وزوجته قربها . وجعل ثلاثتهم يحدقون بأنظارهم في طريق القرية لعلهم يرون أحدا قادما ، الا زوجة العم حين كانت تغفو غفواتها القصيرة التي ما كان الحزن نفسه يدفعها عنها .
ولما غربت الشمس اخيرا راتهما الأم عائدين . فنهضت وتوكات على عصاها وظللت عينيها بيديها من أشعة الشمس الآفلة وصاحت :
ــ ها هما قد اقبلا .
وقد بدرت هذه الصيحة من الأم عالية مدوية ، ورنت خطواتها في الشارع سريعة متلاحقة ، حتى لقد خرج اهل القرية جميعا من مساكنهم . فانهم علموا بقصة الفتى المعتقل ولكنهم لم يجسروا على المجيء علانية الى بيت الأم خوفا من تعرضهم للمؤاخذة والجزاء واستهدافهم للاعتقال أيضا . وقد تفرقوا في النهار للقيام بأعمالهم وهم يتحرقون فضولا وتشوقا . ولكنهم كذلك خائفون متوجسون كشأن القرويين حين يتصل الأمر بموضوع السجون والحكام . أما الآن فقد نفروا من دورهم وراحوا يتلكأون هنا وهناك عن بعد أيضا وأخذوا يراقبون ما يجرى .
ونهض العم كذلك وتبع الأم . بل لقد همت زوجته أن تتكلف الذهاب لولا أنها أصبحت لا تسير الا حين يجب المسير ، وقد رات أن بوسعها أن تقف على جلية الخبر بعد قليل ، وكانت المرأة تؤمن بوقوع الخير آخر الأمر ، ولهذا كله وفرت على نفسها مؤونة الذهاب وجلست فوق مقعدها تنتظر .
أمام الأم فقد تشبثت بذراع ولدها صائحة :
ــ ماذا جرى لابني ؟ .
بيد انها تفرست في وجهي الرجلين وهي تلقى هذا السوال ورات نذر السوء مرتسمة على ملامحها . وتبادل كلاهما النظر ثم قال الابن أخيرا برزانة :
ــ هو في السجن يا امي .
وتبادلا النظر مرة ثانية . فحك ابن العم راسه وتكلف البلاهة وتظاهر بانه لا يعرف ما ينبغي أن يقال . فلم يجد الابن بدا من الكلام فقال :
ــ انى أشك يا أمي في امكان انقاذه . لقد حكم عليه مع عشرين

شخصا بالموت ، وسينفذ الحكم في الصباح .
فصرخت الأم ورددت صرختها :
ـ الموت !! الموت !! .
ولولا انهم تلقوها لهوت على الارض .
وذهب بها الرجلان الى أقرب بيت ووضعا مقعدا تحتها وأخذا يهونان عليها . اما هى قد جعلت تبكي وتصيح كالطفل . وكان فمها المفضن يرتجف والدموع تنحدر فوق وجهها غزيرة . وراحت تلطم ثدييهـا اليابسين بقبضتى يديهـا وانشـأت تصيح وتتهم ولدها قائلة :
ـ أنت لم تقدم لهم مالا كافيـا . قلت لك انى أملك هذا المبلغ اليسير وهو فى جملته قطعة من الفضة وقطعتان أخريان اعطانيهما اخيرا ..
ولما رات ابنها واقفـا منكس الراس يسيل عرقه غزيرا فوق جبينه وشفته بصقت عليه غضبا وقالت :
ـ لن تؤخذ منها قطعة واحدة لك . لن تكون لك اذا مات . نعم . سأذهب وألقيها فى النهر أولا .
عند ذلك تكلم ابن العم دفاعا عن صاحبه وايثارا للسلم ، فقال وقد ارتسمت على وجهه أمارات الصدق فى هذه الساعة العصيبة وازاء هذه المهمة الصعبة :
ـ لا يا عمتى .. لا تلوميه . انه عرض أكثر من ضعف مالك . انه عرض مائة قطعة . عرضها على الكبير والصغير فى السجن . انه راح يرشو هذا وذاك . لكنهم لم يسمحوا له برؤية ولدك .
فصاحت الأم :
ـ انه لم يعرض مالا كافيا . من سـمع أن حراسا فى السجن يستحيل رشوتهم ؟ لكنني سأذهب وأحضر هذا المال فى هذه اللحظة . نعم . سأخرجه من الحفرة وأذهب بنفسى انا العجوز ، واخرج ولدى من السجن وأعود به الى البيت . ولن يتركنى ابدا مهما قال الناس .
فعاد الرجلان الى تبادل النظر وتوصل الابن الى ابن عمه بعينيه أن يتكلم دفاعا عنه مرة اخرى . فقال هذا :
ـ انهم لن يسمحوا لك حتى برؤيته يا عمتى . وهم لم يأذنوا لنا أبدا بالدخول . نعم لم يأذنوا لنا رغم اننا عرضنا عليهم نقودا ، وقد فسروا سبب هذا التشدد فقالوا أن الحاكم ناقم على الجريمة التى اتهم بهـا ولدك . هى جريمة جديدة فى هـذه الأيام .. جريمة بشعة .

فصاحت الأم فى كبرياء ورفعت عصاها وجعلت تهزها فى وجه الرجل قائلة :

ــ ابنى لم يرتكب جريمة فى حياته . يوجد عدو هنا يدفع أكثر مما نملك لكى يبقى ولدى فى السجن .

وجعلت تدير عينيها فى الجمع الواقف حولها يلتهم هذه الانباء التهاما وقد فغر افراده افواههم وجعلوا يحدقون بأعينهم . ثم صاحت فيهم :

ــ هل راى احدكم ابنى يرتكب جريمة ؟ .

فاخذ الجميع يتفرسون بعضهم فى بعض دون أن يقولوا شيئا . ولما رأت الأم نظراتهم المستريبة تمزق قلبها وجعلت تبكى وهتفت :

ــ آه . كنتم تكرهونه لجمال شكله . لأنه أحلى من اولادكم السود .. الفلاحين . نعم . أنتم تكرهون كل من يكون أحسن منكم .

ونهضت الأم وسارت مترنحة الى بيتها وهى تبكى بكاء مرا .

على انها حينما عادت الى البيت ولم يبق معها سوى العم وزوجته واولادهما كفكفت دموعها وقالت لولدها الأكبر فى هدوء وفى لهجة المحموم ايضا :

ــ لكن هذا ضياع للوقت . اخبرنى بكل شىء . فقد تكون امامنا فرصة لانقاذه . امامنا الليل بطوله . ما هى جريمته ؟ سناخذ كل ما نملك ونسعى لانقاذه .

فتبادل الابن وزوجته عند سماع هذا الكلام نظرة لا تنم عن الشر حقا ، ولكنها شفت عن نفاذ صبرهما واحتمالهما . ثم قال الابن :

ــ انا لا اعرف ما هى جريمته تماما . لكنهم يسمونه « شيوعيا » كما قلت لك . وهى كلمة جديدة سمعتها كثيرا . ولما سالت عن معناها قيل لى انها لون جديد من اللصوصية . وقد سألت الحارس الواقف بباب السجن حاملا بندقيته على كتفه ، فاجابنى بهذه الكلمات ، « تسالنى عن معنى (الشيوعى) ؟ . اعلم أيها الرجل الطيب ان الشيوعى هو الذى يسرق حتى أرضك . وهو رجل يتآمر على سلامة الدولة ولذلك وجب أن يموت مع رفاقه » . نعم يا أمى . هذه هى جريمته .

انصتت الأم بعناية واهتمام شديدين الىهذا التفسير وقد سقط ضوء الشمعة فوق وجهها الذى تلألأت فوقه قطرات الدموع . وقالت فى صوت يشف عن الذهول وقد راحت تجهد أن تكسبه رنة الجلد والتماسك :

ـ لكنى لا اظن أن هذا ممكن . انا لم اسمعه ابدا يقول كلمة فى هذا الشأن . أنا لم اسمع ابدا بمثل هذه الجريمة . ان قتل الانسان ، وسرقة البيوت ، وتجويع الوالدين ، هى الجرائم بمعناها . لكن كيف تسرق الأرض . هل يمكنه أن يطويها كأنها قطعة من القماش ، ويأخذها معه ، ويخفيها فى مكان ما ؟ .

فأجاب الابن وقد نكس رأسه وتدلت يداه بين ركبتيه وهو جالس فوق المقعد الصغير :

ـ لا أعرف يا أمى .

كان الابن لم يزل مرتديا جلبابه الوحيد ، بيد انه دس طرفه فى حزامه اذ لم يألف لبس الجلاليب . ثم استطرد فى تؤدة :

ـ انا لا أعرف ما قيل غير ذلك . فقد سمعنا كلاما كثيرا فى البلدة هنا وهناك . لأنهم سيقتلون عددا كبيرا غدا وسيكون يوم عطلة . ماذا قيل غير هذا يا ابن عمى ؟ .

فحك ابن العم ذقنه وازدرد لعابه وتطلع فى الوجوه التى حوله ثم قال :

ـ ان اهل البلدة قالوا كلاما كثيرا . لكنى لم أجسر على الاكثار من الأسئلة . لأن أحد حراس السجن حين سمعنى أسأل عن سبب الضجة السائدة وأدقق فى السؤال التفت الى قائلا ، « هل انت واحد منهم أيضا ؟ وماذا يهمك اذا قتلوا ؟ » . ولم اجسر على القول بأنى ابن عم أحدهم .. لكننا وجدنا أحد رؤساء السجانين واعطيناه بعض النقود والتمسنا منه أن نحدثه على انفراد . فقادنا الى احدى زوايا السجن خلف بيته حيث أخبرناه بأننا من القرويين الاشراف وأننا نملك ارضا صغيرة ونستأجر مساحات أخرى ، وأن لنا بين المحكوم عليهم بالموت فتى يمت لنا بصلة القرابة البعيدة ، ولنا اذا استطعنا انقاذه لما ترددنا صونا لواجب الشرف لأن أحدا من أهل بيتنا لم يسبق ان مات تحت سكين الجلاد ، لكن بشرط الا ندفع مبلغا كبيرا جدا لاننا اناس فقراء . فأخذ السجان النقود وسألنا عن أوصاف الفتى فأخبرناه بها . وعند ذلك أجابنا : « اظن انى اعرف الفتى الذى تقصدون . لأنه متضايق من السجن واعتقد انه لا يتردد فى الاعتراف بكل ما يعرفه لولا وجود فتاة من اشد الفتيات جراة تثير نخوته وتحمله على الجلد والتشدد . نعم . يوجد بين المحكوم عليهم اناس صلاب أجرياء لا يحفلون كيف ولا متى يموتون . لكن هذا الفتى كثير الخوف . وأشك فى انه يقدر ما فعل أو يعرف

سبب الحكم عليه بالموت . لأن مظهره يدل على انه فتى قروى ساذج قد استخدموه لأغراضهم ومنوه بوعود عظيمة . واعتقد ان جريمته نجمت عن تلبسه بحيازة كتب معينة كان يوزعها بين الناس مجانا . وفى هذه الكتب كلام فاسد يحض على قلب الحكومة واقتسام كافة الأموال والأراضى بالمساواة » .

فلما سمعت الأم ما نقله ابن العم عن السجان انهمرت دموعها من جديد واخذت تئن وتتوجع والتفتت الى ابنها قائلة :

ـ كنت اعرف انه كان يجب أن تمنحه بعض الأرض . كان يمكن أن نستأجر ارضا اخرى ونعطيه نصيبه منها . لكن ابنى الأكبر وزوجته استأثرا بكل شىء وضنا عليه بكل شىء .

ففتح الابن فاه للكلام . لكن العم قال بهدوء :

ـ لا تتكلم يا بنى . دع أمك تلومك وتخفف عن نفسها . نحن جميعا نعرف أخلاقك واخلاق اخيك ونعلم أنه كان يمقت العمل فى الأرض بل كان يكره العمل بتاتا .

واذن فقد لزم الابن الأكبر الصمت نزولا على رأى العم . واخيرا استطرد ابن العم قائلا :

ـ وقد سألنا السجان بعد ذلك كم ندفع للافراج عن الفتى . فهز السجان رأسه وقال انه لو كان ذا مكانة كبيرة وولدا لرجل غنى عظيم ذى نفوذ فلا ريب أن المال كفيل بالافراج عنه واخلاء سبيله . أما هو فتى قروى فقير ، فما من رجل يعرض حياته للخطر فى سبيله مهما عظمت المبالغ التى تدفعها . وهكذا لا مفر له من الموت .

فلما سمعت الأم هذا الكلام صرخت قائلة :

ـ وهل يموت لأنه ولدى وانا فقيرة ؟ اننا نملك ارضا وسنبيعها لمنحه حريته . نعم . سنبيعها فى هذه الليلة فورا . يوجد فى هذه القرية أناس .

لكن الابن الأكبر ما كاد يسمع حديث الأرض حتى قال :

ـ وكيف نعيش اذن ؟ لا نكاد نستطيع العيش والأرض فى حالتها الراهنة . واذا استأجرنا ارضا اخرى بهذه الأجور المخزية لأصبحنا من المتسولين . ان كل ما نملكه هو هذه الأرض اليسيرة المحدودة . ولن ابيعها يا أمى . لا . ان الأرض أرضى . ولن ابيعها .

ولما فاه الابن بهذا الكلام نطقت زوجته لأول مرة ، اذ كانت جالسة فى هدوء تنصت الى ما يدور . فقالت برزانة :

ـ ولابد من التفكير فى أمر الجنين الذى احمله الآن فى احشائى .

فلم تملك الأم الا ان تلزم الصمت . أجل . لزمت الصمت وجلست تبكى . وكلما وجهت اليها كلمة واحدة طوال هذه الليلة كان جوابها الوحيد سفح الدموع واستئناف البكاء .
وجلس أصحاب هذا البيت ساهرين ليلتهم . ولما بزغ الفجـــر الشاحب استجمعت الأم قوتها وقالت :
ـ سأذهب بنفسى . سأذهب مرة ثانية الى البلدة وانتظر رؤية ولدى اذا لم يكن مفر من خروجه الى الموت .
فوضعوا أيديهم على ذراعها يســـألونها الا تذهب . وقال الابن بلهجة الجد :
ـ أمى . سأذهب لاحضاره فيما بعد . لأنك ستموتين اذا رايت هذا المشهد .
لكنها قالت له :
ـ وماذا لو مت ؟ .
وغسلت الأم وجهها ومشطت ما بقى لها من شعر أشيب يسير فوق رأسها ولبست رداء جديدا كعـــادتها كلما قصدت الى البلدة وقالت لابنها ببساطة :
ـ اذهب وأحضر حمار العم . هل تتركنى اركبه يا عمى ؟ .
فأجاب العم فى كآبة ولم يسعه الا أن ينزل على ارادتها :
ـ آه . نعم .
واذن فقد ذهب الابن وابن العم وجاء بالحمار واركبا الأم فوق ظهره وسارا بجانبها قاصدين الى البلدة وقد حمل الابن مصباحا فى يده اذ كان ضوء الفجر ضئيلا .
وكانت الأم قد خارت قواها ولزمت الهدوء لفرط ما سكبت من الدمع . ومضت فى طريقها لا تكاد تعى شيئا وقد تشبثت بظهر الحمار ونكست رأسها ولم ترفع عينيها مرة لكى ترى مطلع الفجر ، بل جعلت تحدق فى الطـــريق الشاحب الترب الذى لا يكاد يبدو للعيان من خلال الظـــلام . ولزم الرجلان الصمت كذلك . وظلوا يواصلون السير فى الطريق متجهين الى الجنوب حتى وصلوا الى باب البلدة الجنوبى الذى لم يكن قد فتح بعد فى بكرة النهار .
لـكنهم رأوا جمهورا كبيرا ينتظر عند الباب . فقد ذاع فى أنحاء هذه الجهات ان أناسا كثيرين سينفذ فيهم حكم الموت . وتقـــاطر أفراد عديدون للتفرج وجاءوا معهم بأولادهم .
وما كادت الابواب تفتح حتى دخـــل الجميع يتزاحمون بالمناكب

وبينهم الأم فوق الحمار ورفيقاها . وقصدوا جميعا الى ارض فضاء كائنة قرب سور البلدة . فرأوا فى طلائع ضوء النهـــار جمهورا حاشدا ينتظر وقد تضام أفراده ولزموا الصمت رهبــة من مشهد الموت الذى يوشكون أن يروه . وتشبث الأبناء بآبائهم فى ذعر غير مفهوم . واذا صرخ أطفال الزموا الصمت فورا . وخيم السكون فوق هذا الجمع الحاشد الذى وقف ينتظر فى نهم الجـــائع مستمتعا متلذذا ولكنه يذوب فى نفس الوقت رعبا وجزعا مما يرتقب ويتطلع اليه :

لكن الأم وصاحبيها لم ينتظروا فى غمار هذا الحشد . فقد همست الأم قائلة :

ـ لنذهب ونقف عند باب السجن .

فقد كانت المسكينة ترجو اذا رأت ولدها أن تحدث معجزة على وجه من الوجوه وأن تلتمس وسيلة لانقاذه .

واذن فقد ذهب بهـــا الرجلان الى باب السجن ووقفوا ينتظرون عند بابه فى السور المرتفع الذى غرست فوق قمته قطع الزجاج . وقد رأوا عند الباب حارسا منتصب القامة وبجانبه مصباح به شمعة قصيرة مضاءة هبت عليها ريح الفجر القارسة فأطفأتها .

وقف الثلاثة ينتظرون فى الشارع الترب . ونزلت الأم عن ظهر الحمار وجعلت ترتقب . وسرعان ما سمعوا خطوات كثيرة تسير فوق الأرض الحجرية ، ثم صاح صائح :

ـ افتحوا الباب .

فوثب الحراس فى أماكنهم منتصبين بجانب الباب شـــــاهرين أسلحتهم . ثم فتح الباب بعد قليل .

هنالك اتأرت الأم عينيها لكى ترى ولدها . فرج من الباب شبان كثيرون مقيدو الأيدى بحبال من القنب يسيرون اثنين اثنين وقد قيد كل اثنين الى من يتقدمهما . وقد بدا هؤلاء المسوقون لأول وهلة فتيانا جميعا . على انه كان بينهم بعض الفتيـــــات وأن تعذر تمييزهن بسهولة . فقد قصت شعورهن وارتدين مثل ملابس الفتيان ولم يكن هناك ما يدل عليهن الا أن يحـــدق الانسان بعينيه فيرى ثداءهن الضئيلة وخصورهن النحيلة . أما وجوههن فكانت مبتسمة بطـابع الجراة والغلظة مثل وجوه الفتيان .

تطلعت الأم الى وجوههم جميعا . وفجأة رأت فتاها . أجل . رأته يسير أمامها منكس الراس ، مقيدا الى فتاة تسير الى جانبه .

عند ذلك اندفعت الأم الى الأمام والقت نفسها عنـــد قدميه وضمتهما وصرخت صرخة داوية :
ـ ولدى ! .
وتطلعت الأم الى وجهه . فاذا هو شاحب بل أشد ما رأت من الوجوه شحوبا . واذا شفتاه ممتقعتان وعيناه متبلدتان .
ما كاد الفتى يرى أمه حتى اشتد شحوبه وامتقاع لونه وأوشك أن يسقط على الأرض لولا انه كان مشـــدود الوثاق الى الفتاة . والواقع ان هذه الفتاة جعلت تشده ولم تتركه يسقط . بل لم تتركه يتريث فى مكانه . ولما وقع نظرها على المراة العجوز ذات الشـــعر الأبيض الجاثية عند قدميه ضحكت ضحكة عالية تشف عن جراة بالغة ومرح عظيم ، وهتفت فى صوت عال أجش :
ـ أيها الرفيق . تذكر الآن انه ليس لك ام ولا اب .
وجذبته الفتاة فى سيرها .
وفى هذه اللحظة أسرع احد الحراس ورفع الأم من مكانها والقاها جانبا فبقيت فى سقطتها فى التراب . وتقدم أفراد الفريق وواصلوا السير حتى غابوا عن نظرها متجهين شطر الباب الجنوبى .
وجاء الرجلان اخيرا وهما برفع الأم عن الأرض لولا أنها لم تتركهما يفعلان . وتمددت فوق التراب وقتا وهى تئن وتنصت فى ذهول الى وقع الخطا المتباعدة .
على أنه لم يفسح لها طويلا فى مجال التوجع والأنين . فقد خرج من باب السجن حارس ووكزها ببندقيته فى غلظة شديدة وصرخ فيها قائلا :
ـ امشى يا عجوز .
فخاف الرجلان واوقفا الأم على قدميها وأركباها فوق الحمـــار وسارا بها متجهين الى البيت . على انهم وقفوا قرب جدار قبل أن يصلوا الى الباب الجنوبى وجعلوا ينتظرون .
وفيما كانوا ينتظرون سمعوا صراخا عظيما . فتبادل الرجـلان النظر وتطلعا الى الأم العجوز . وسواء كانت الأم قد سمعت هذا الصراخ أو أدركت معناه فانها لم تبد أدنى اشارة . بل جلست فوق ظهر الحمار مطرقة الرأس تحدق فى التراب تحت قدميها .
ثم استأنفوا سيرهم . وقابلوا فى الطـريق افراد الجمهور الذى انفض وتفرق وراح أفراده يتبادلون الكلام بأصـــوات عالية . فلم ينبس الرجلان بكلمة ولم يبد من حالة الأم انها منصتة لما يقال .

لكن احدهم هتف قائلا :
ـ هل رايت ذلك الفتى الذى تفجر دمه الأحمر حتى لوث تدم الجلاد وجعله يسب ويلعن ؟ .
ومن الناس من كان يضحك وقد تورد وجهه . ومنهم من علاه الشحوب . وفيما كان الرجلان والأم يخرجون من باب البلدة راوا شابا ممتقع الوجه مستندا الى الجدار مستسلما للقئ .
وسواء رات الأم هذه المشاهد أو سمعت هذه العبارات فانها لم تنبس بكلمة . اجل . فقد علمت أن الفتى قد صار فى عداد الأموات . ولا ينفع مال ولا لوم ان كان فى وسعها أن تلوم . وقد ساورها فى هذا الوقت تلهف الى العودة والتماس ذلك القبر المهـــدم حيث تسكب فوقه عبراتها وقد حز فى نفسها انها حرمت حتى قبراً خاصا بولدها الميت تبكى فوقه كما تبكى النساء فوق قبور ابنـــائهن ... ولا مفر لها من البكاء فوق قبر مجهول شفاء لما فى قلبها وتخفيفـــا للوعتها . على أن هذا الألم تلاشى من نفسها واصبحت تتلهف للبكاء وحده وتسكين ما بها .
ولما وصلت الأم الى باب بيتها نزلت عن الحمـــار وتوسلت الى ولدها قائلة :
ـ اذهب بى الى خارج القرية . لأبد من البكاء .
وكانت زوجة العم قريبة وسمعت هذا الرجاء . فهزت رأسها وقالت برفق وهى تكفكف دموعها بكمها :
ـ نعم . دع هذه المسكينة تبكى قليلا . فهذا افضل ما تفعل .
فلم يسع الابن الا ان يذهب بها فى سكون الى القبر حيث مهد لها مجلسا كساه ببعض الحشائش . فجلست الأم واسندت رأسها الى القبر وتطلعت الى الابن ممتقعة الوجه وقالت له :
ـ اذهب واتركنى وقتا حتى أبكى .
ولما تردد الابن كررت قولها فى حرارة وانفعال :
ـ اتركنى . اما ان ابكى أو أموت .
فذهب الابن عنها وهو يقول :
ـ سأعود بعد قليل لمرافقتك يا أمى .
والواقع انه كره ان يتركها وحيدة فى مثل هذا المكان .
وجلست الأم الى القبر ترقب مطلع النهـــار وانتشار الضوء .
ورات الشمس تشرق وتسطع فوق الأرض وكأنه لم يمت احد فى هذا اليوم . وكانت النباتات قد نضجت واينعت واكتست الحقول

باشعة الشمس الذهبية . وجعلت الأم ترتقب أن يفيض حزنهـا ويستحيل الى دموع تخفف عن قلبهـا المحطم . وراحت تستعرض حياتها وتفكر فى موتاها وتحصى ما فى هذه الحياة من أفراح ضئيلة . فجاشت الأحزان فى قلبها .

استسلمت الأم لهـذه الأحزان دون أن تغضب الآن أو تثور . وتركت هذه الأحزان تطفى عليها وتستأثر بنفسها . وتمددت فـوق التراب وتمرغت فى الرغام . ثم أدارت وجهها الى السماء وهتفت فى الم موجع :

ـ أهذا هو التكفير المنشود ؟ ألم أنل كفايتى من العقاب ؟ .

ثم تفجرت الدموع من عينيها أخيرا ، فأسندت راسها فوق القبر ودست وجهها بين الحشائش الكبيرة واستسلمت للبكاء .

جعلت الأم تبكى وتمعن فى البـكاء فى هذا الصباح المشرق الباسم وراحت تستعيد كل ما مر بها من الأحزان صغيرها وكبيرها . تذكرت كيف تشاجر زوجها معها وذهب عنها . وتذكرت أنه لا توجد فتـاة صغيرة تأتى اليها وتناديها وتصحبها الى البيت . وتذكرت كيف رأت فتاها مقيدا الى تلك الفتاة عندما شاهدته لآخر مرة . وهكذا جعلت فى هذا اليوم تبكى لكل ما مر بها فى حياتها .

وفيما هى فى هذا البكاء جاء ولدها راكضا . فكان يلوح بذراعيه ويصيح موجها كلامه اليهـا . لـكنها لم تتبين ما يقول . فسمعته قائلا :

ـ أمى ! أمى ! جاء ولدى . حفيدك يا أمى .

أجل . سمعت الأم هذه الصيحة فى أتم وضوح وجلاء . فانقطعت دموعها دون وعى منها . ونهضت من مكانها وسارت للقائه مترنحة هاتفة :

ـ متى ؟ متى ؟ .

ـ الآن فقط ! ولد فى هذه اللحظة . وهو ولد لم أر فى حياتى طفلا فى حجمه وصياحه . وكأنه ابن سنة .

فوضعت الأم يدها على ذراعه وأخـذت تضحك ضـحكا يسيرا ممتزجا بالبكاء . ثم اتكأت عليه وتحاملت على قدميها وسارت مسرعة وقد نسيت نفسـها .

وذهب كلاهما الى البيت ودخلا الى تلك الغرفة حيث تمددت الأم الجديدة فوق الفراش . وكانت الغرفة مكتظة بنساء القرية اللاتى جئن من بيوتهن للوقوف على هـذا النبأ . وجاءت بينهم الأرملة

الثرثارة وقد قوست الأعوام ظهرها واصمها الكبر . لكنها لم تشأ ان تترك هذه المناسبة تفوتها وأصرت على الحضور . وما كادت ترى الأم العجوز حتى راحت تقول بلهجتها المهدمة :

ـ انت امراة موفقة . وكنت احسب ان حظك ذهب الى الأبد . لكنك الآن ترزقين بحفيد . وهأنذا لا املك سوى جثتي العتيقة الفانية واسقامي العديدة .

لكن الأم العجوز لم تقل كلمة واحدة ولم تنظر الى احد . بل تقدمت الى الفراش ونظرت اليه . فاذا الطفل ممدد . وهو مولود ذكر . واذا هو يصيح كما وصفه ابوه . واذا هي تراه فاغر الفم جميل الصورة قوى البنية كأجمل واقوى طفل راته عيناها . فانحنت ورفعته بين ذراعيها وامسكته الى صدرها وأحست بالحياة تتدفق في كيانه حارة موفورة .

وراحت تنظر اليه من راسه الى قدميه وتضحك وتعاود النظر .. واخيرا دارت بعينيها في ارجاء الغرفة تلتمس زوجة العم . فاذا هي واقفة بين النساء وقد تعلق بها بعض احفادها لرؤية هذا المشهد .

وما كادت الأم العجوز ترى زوجة العم حتى رفعت الطفل بيديها لكي تراه صاحبتها . وهتفت وهي تضحك عاليا وقد نسيت امتلاء الغرفة بالنساء وبدت عيناها منتفختين من اثر البكاء المتصل :

ـ انظري يا بنت عمي . انى اشك في امتلاء نفسي بالذنوب كما خيل الى فيما مضى هل رايت حفيدي ؟

« تمت »

٢٠ قرشا



هذه الرواية

ولدت بيرل باك مؤلفة هذه الرواية الانسانية المؤثرة فى هيلزبورن بولاية فرجينيا الامريكية عام ١٨٩٤ من أبوين أمريكيين ذهبا بها الى الصين فى سن الطفولة ثم عادت واتمت تعليمها فى احدى جامعات فرجينيا مسقط رأسها ، وعندما عادت الى الصين مرة اخرى تزوجت شابا امريكيا .

لقد نبغت بيرل باك فى الكتابة منذ مستهل حياتها ، وكانت روايتها « الارض الطيبة » التى نشرت عام ١٩٣١ ثانية أعمالها الادبية وقد نالت بسببها جائزة بوليتزر المعروفة وأصبحت فيلما سينمائيا ناجحا . وبعد أن أصدرت أربع روايات أخرى هى « الابناء » و « الزوجة الاولى » و « الام » و « بيت منقسم » ، نالت ميدالية الاكاديمية الامريكية للفنون والاداب عام ١٩٦٥ ، وقد ادى هذا بالاضافة الى ملفاتها الاخرى الى فوزها بجائزة نوبل فى الادب عام ١٩٣٨ . وفى خلال ذلك اختيرت عضوا فى المعهد القومى للفنون والاداب بالولايات المتحدة عام ١٩٣٦ ، وكان رصيدها من الروايات الصينية قد بلغ ثمانى روايات .. فضلا عن ترجمة كتاب صينى مشهور هو « كل الرجال اخوة » . وعلى الرغم من انها تحولت فى العهد الاخير الى الكتابة عن الحياة الامريكية سوف تظل امام العالم مؤلفة أروع الروايات عن الحياة الصينية .